AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
14 OCT 1972
Tel. 260458

892.78
Z.39arA
c.1

عروس فرغانه

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الثانية عشرة من روايات تاريخ الاسلام

تتضمن وصف الدولة العباسية في عهد المعتصم بالله (سنة ٢١٨ — ٢٢٧ هـ) وقيام الفرس لارجاع دولتهم بالسيف ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية ويتخلل ذلك وصف آداب الاتراك وعاداتهم في أقصى بلادهم ووصف سامرّا عاصمة المعتصم وواقعة البذ في حرب بابك وواقعة عمورية في حرب الروم وغير ذلك

تاليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال

طبع بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٨

هذه هي الحلقة الثانية عشرة من روايات تاريخ الاسلام وهي آخر كلامنا في الدولة العباسية في ابان مجدها لانها أخذت من عهد المعتصم وما بعده بالتفرع والتشعب وانتقلت السلطة السياسية الى اماراتها في خراسان وفارس والشام ومصر والمغرب وغيرها وبقيت لها السيادة الدينية فسنشرع من الحلقة الثالثة عشرة في وصف حال اهم تلك الفروع ونبدأ بدولة بني طولون بمصر ان شاء الله

ويزيدنا نشاطاً في هذا العمل ارتياح القراء لمطالعة هذه الروايات مع ما فيها من الفوائد التاريخية الاسلامية وما حوته من آداب المسلمين وعادات الامم التي احتكوا بها في ابان دولتهم حتى طبع اكثرها غير مرة . وقد وقع اسلوبها وقعاً حسناً عند الادباء وارباب الاقلام من المسلمين غير العرب في الهند وفارس وتركستان وسائر الشرق الاسلامي فأخذوا في نقلها الى لغاتهم . ومنهم من أخذ في نقل السلسلة كلها بالتتابع من فتاة غسان فما يليها ومنهم من نقل منها روايات متفرقة . فالذين اخذوا في نقل السلسلة كلها هم :

اولاً — سمو البرنس عبد الحسين مرزا نقلها الى الفارسية وزين بعضها بالرسوم وقد نشرت في طهران وجاءنا أمثلة منها

ثانياً — الشيخ غلام محمد منشىء جريدة وكيل الهندية في امرتسار بالهند أوعز الى المولوي محمد حليم الانصاري فأخذ في نقلها الى اللغة الهندستانية (الاوردية) وقد ظهر منها عدة حلقات مطبوعة في مطبعة وكيل المشار اليها وعندنا نسخ منها

ثالثاً — السيد محمد كريم قاضي المسلمين في باكو من تركستان أخذ في نقلها الى اللغة التركية الاذربيجانية وجاءنا منه ترجمة رواية عذراء قريش وكتب يقول فيه « كنت عازماً على تأليف تاريخ الاسلام في اللغة التركية الاذربيجانية التي هي لغة ابناء وطني خدمة لهم . فلما اطلعت على رواياتكم الغرامية في تاريخ

الاسلام عزمت على نقلها الى اللغة المذكورة واكتفيت بها عن التآليف المخصوصة .... فشرعت بعذراء قريش وسأنقل بعدها ١٧ رمضان فعادة كربلاء اما ارمانوسة فهي تحت الترجمة . ولما اطلع على حسن اسلوب الروايات وكثرة فائدتها رجل القوقاس محبي المعارف والعلوم الحاج زين العابدين تقي اوف قبل ان يطبع هذه السلسلة على نفقته . وقد تم طبع عذراء قريش بحمد الله وارسلناها اليكم ومتى ظهر غيرها ارسلناه في حينه ..» والطبعة المشار اليها في غاية الاتقان على ورق صقيل وحرف واضح

اما الذين نقلوا حلقات متفرقة من هذه السلسلة او غيرها من رواياتنا فمنهم خليل افندي بيدس بدمشق والمستشرق فلاديمر دانيلوف في موسكو نقلا المملوك الشارد الى الروسية نقلين . وفرانس افندي شهاب بمرسين نقل اسير المتمهدي الى الفرنساوية . وقسطنطين افندي ثابت في بيروت نقل فتاة غسان الى الانكليزية ومس هيكس في الناصرة نقلت عذراء قريش الى الانكليزية . وميرزا جعفر بن علي اكبر في تبريز نقل ابو مسلم الخراساني الى الفارسية غير نقل البرنس عبد الحسين . واكثر هذه الترجمات تحت الطبع . ومنها ترجمة فتاة غسان الى لغة هندية لم نقدر على قراءة كلمة منها لانها مكتوبة بالقلم الهندي الشائع في سيلان وسنقافورة وهو يخالف الاقلام المعروفة عندنا واللغة اسمها «الارديدية» . وقد بعث الينا نسخة من هذه الترجمة حضرة السيد محمد بن سالم الكلالي في سنقافورة واخبرنا ان مترجمها هو الشيخ احمد غني مريكر من سكان ناقور . وكتب الينا السيد جلال الدين من كرانبور الهند يستاذن في ترجمة روايتي الامين والمامون وجهاد المحبين الى اللغة الهندستانية (الاوردية)

هذه هي الترجمات التي بلغنا خبرها ولعل هناك ترجمات لم نعلم بها الان بعضهم لا يرى استئذان المولف لازماً . وفي كل حال فاننا نشكر لحسن ظن المترجمين والناشرين ونرجو ان نوفق الى اتمام هذه السلسلة وبالله نستعين

الفصل الاول

فرغانة

هي مدينة كبيرة كانت عاصمة كورة فرغانة وكان الفرس يسمونها « اخشيكست » واقعة على ضفاف نهر جيحون على حدود تركستان والعرب يسمونهُ نهر الشاش والافرنج يسمونهُ نهر يكسارت والاتراك يسمونهُ سرداريا . وبيننا وبين فرغانة بعدٌ شاسع مسافتهُ بضعة اشهر فاذا اراد احدنا ان يسافر الى ضفاف جيحون اقتضى لهُ ان يسير شرقاً فيقطع الشام فالعراق ففارس فخراسان . ويعبر نهر سيحون ويخترق بخارا وسمرقند واشروسنة فيصل الى ضفاف جيحون او نهر الشاش بعد ان يجتاز الجبال والصحاري والسهول والاودية ويرى في طريقه بين سيحون وجيحون امماً شتى تختلف لغة وطبيعة ودينًا ناهيك بالمفاوز التي يعسر سلوكها لوعورتها وكثرة قطاع الطرق فيها واكثرهم من بدو الاتراك وهم اهل خشونة وسطو

فالعرب لما قاموا للفتح بعد الاسلام فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس في بضع عشرة سنة لكنهم لم يستطيعوا الوصول الى فرغانة الاَّ في اواخر القرن الاول للهجرة فتحها قتيبة بن مسلم فاتح تركستان سنة ٩٤ هـ [1] ولم يستعمروها او يقيموا فيها الاَّ بعد ذلك باعوام عديدة . وكانت تابعة لولاية خراسان بتادية الجزية والخراج .

ورغم ماتقدم ذكره من المفاوز والجبال في الطريق الى فرغانة كان المسافر ينتهي بعد تلك الاخطار الى نهر جيحون فيقطعهُ الى مدينة فرغانة على ضفته اليمنى اوالشرقية فيرى فيها الاسواق والابنية والقصور وحولها الاسوار والابواب وخارجها الارباض والبساتين على ضفاف ذلك النهر المبارك في ارض مستوية مساحتها ثلاثة فراسخ . وفي شماليها جبل وعر على مسافة ميل منها . وفي وسطها قلعة عظيمة يقال لها في اصطلاح الفرس قهندز على عادة ابنية ذلك العصر تعتصم بها حامية المدينة عند الحاجة مبنية بناء متيناً بالاحجار الضخمة وسائر ابنية المدينة من الطين . حولها سورٌ له اربعة ابواب وحول هذا السور ارباض حولها سورٌ ثان بابواب ويتخلل المدينة والارباض مياه جارية وحياض كثيرة . وكل باب من ابواب الارباض يفضي الى بساتين ملتفة وانهر جارية لاتنقطع مقدار فرسخ لاتصالها بالنهر .

(١) ابن الاثير ٢٧٩ ج ٤

فهي من انزه بلاد تركستان او ما وراء النهر[1]

وكان سكان فرغانة عند الفتح الاسلامي اخلاطاً من اهل البلاد الاصليين الذين يسمونهم « طاجية » وجماعات من جالية الهند والصين والترك . والطبقة الراقية فيهم جميعاً الفرس وقد كانوا ارقى المشارقة في ذلك العصر فكانت لهم الرئاسة والسياسية والنفوذ الادبي والديني لانهم كانوا ينقلون معهم تمدنهم حيثما حلّوا ودينهم المجوسية ولغتهم البهلوية (الفارسية القديمة) وكانت البهلوية لغة الطبقة الراقية في الشرق الاقصى كما هو شأن اللغة الفارسية الحديثة الآن . وكانت لغة أهل فرغانة الاصليين التركية القديمة المعروفة بالشاغطائية

وكان على فرغانة عند الفتح امراء او ملوك يعرفون بلقب خاص بهم فيسمى احدهم « اخشيد » كما يسمّى ملك الحبشة نجاشي وملك الروم قيصر وملك الفرس كسرى . وكان الاخاشيد كثيرين يتولون اجزاء كورة فرغانة . فلما دخلت في حوزة المسلمين والحقوها بامارة خراسان لم تبق حاجة لبقاء ملوكها ولم يعترضهم المسلمون في دينهم اوعاداتهم او شيء من احوالهم فنزح بعضهم الى قلب المملكة الاسلامية في العراق وتقربوا من بلاط الخلفاء وخدموهم واعتنقوا الاسلام وتولوا الاعمال واشهرهم الاخشيد طغج بن جف صاحب مصر وظل آخرون في بلادهم يتمتعون بالسكينة والعيش الهنيء تحت ظل المسلمين

الفصل الثاني

عيد النيروز

أصبح أهل فرغانة في صباح يوم من ايام سنة ٣٢١ للهجرة وهم يتاهبون للاحتفال بالنيروز (رأس السنة) وقد أخذوا باقامة معالم الزينة فنصبوا الاعلام الملونة فوق منازلهم وعلقوا طاقات الرياحين على ابوابهم . وتقاطروا الى الاسواق يبتاعون الالبسة الجديدة لاولادهم ويحملون اطباق الحلوى الى اهاليهم فيبتاعون من المآكل مقادير تكفي لكل ايام العيد وهي ستة . ولو دخلت المنازل لرأيت النساء قد اوقدن النيران لاعداد الاطعمة والحلوى واحمين الحمامات للاغتسال ورأيت الجواري يشتغلن بتحميم الاولاد والطبخ وعجن ارغفة العيد — وهي ارغفة كان يصنعها الفرس في ذلك اليوم من حنطة السنة الجديدة يحتفلون في

(١) معجم ياقوت ج ١

صباح العيد باقتسامها ويتفاءلون باكلها استبشارًا بخصب تلك السنة وكانوا يتعاملون في ذلك اليوم بالنقود الجديدة و يتهادون الحبوب الجديدة على اطباق من الفضة ونحوها و يترامون بالبيض او الاثمار. وكانت الاسواق في ذلك الصباح غاصة بالمارة من الرجال والاولاد هذا يحمل قفة وذاك ينقل سلة وذاك يسوق حمارًا او فرسًا يتسابقون الى المنازل او الى بيت النار يحملون الهدايا لاولادهم او للموبذان كهان المجوس وقد تصاكت مناكبهم وتصادمت اقدامهم

ولو صعدت الى القلعة الكبرى (القهندز) القائمة في وسط المدينة واشرفت من سطحها على اطراف فرغانة لرأيتها اشبه بخارطة مرسومة على ورق او صورة ملونة — يحدق بالقلعة بيوت الناس المبنية بالطين اكثرها طبقة واحدة الا ثلاثة ابنية : اولها القلعة في وسط المدينة والثاني بيت النار وهو الهيكل الذي يتعبد فيه المجوس وكانت المجوسية لا تزال متغلبة هناك . وفي فرغانة بيتٌ للنار اسمهُ « كارشان شاه »[1] رفيع العماد يناطح السحاب يظهر بارزًا بين ابنية المدينة كالنخلة بين الرياحين وقد نصبوا حول سطحهِ رايات من الديباج طول الواحدة منها عشرات من الاذرع مرسلة في الفضاء يلاعبها الهواء اكثرها خضراء اللون . والثالث بيتٌ لمرزبان سيأتي ذكرهُ (المرازبة حكام المقاطعات على ايام الاكاسرة) تكتنفه حديقة فيها من كل فاكهة زوجان . ولو اطلقت بصرك الى ما وراء سور المدينة على الارياض وما وراءها لرايت الاغراس والاعناب والرياحين تتخللها مجاري الماء وتتغنى على افنانها الاطيار

واهل المدينة في ذلك الاحتفال واذا بموكب جليل زاحمهم في الاسواق حتى شغلهم عما هم فيهِ لفخامتهِ وغرابته . وهو عبارة عن مركبة كبيرة اشبه بالغرفة منها بالعربة فوقها قبة من الفضة المموهة بالذهب قائمة على اعمدة من الخشب الملون بينها ستائر من الديباج الازرق يجرها فرسان مجللان باثواب الحرير المزركش وسائق العربة راكب على احد الفرسين وفي يده سوط يسوقها بهِ وعود كبير يصوبها بهِ اذا عاجا عن القصد . ويكتنف المركبة بضعة من الخصيان يركضون الى جانبيها وقد ارخيت الستائر على الراكبين فلا يراهم احدٌ . لكن ليس في فرغانة رجل او امرأة لا يعرف صاحب هذه المركبة اذ ليس هناك مركبة سواها . فهم يعلمون انها مركبة المرزبان جاءته هدية من بعض اهل امرأته في بلاد القوقاس . لان الرجل فارسي الاصل وامرأته جركسية من بلاد القوقاس واهل تلك البلاد يستخدمون هذه المركبات لحمل الخواتين في خروجهن او اسفارهن[2]

(١) المسعودي ١٦١ ج ١ (٢) ابن بطوطة

والمركبة عبارة عن غرفة كبيرة فيها كل ما تحتاج اليه الخاتون من الادوات حتى الطعام والشراب . فكان اهل فرغانة لا تمرُّ بهم هذه المركبة الا تشوفوا لرؤية من فيها لعلمهم انها تقلُّ فتاة هي بنت المرزبان كلهم يحبونها ويجلون قدرها و يعجبون بجمالها وتعقلها . وكثيراً ما رأوها تمرُّ بهم في مركبتها وقد ازاحت ستائرها فلا تحتجب عن احد . واذا وقع بصرها على احدهم ابتسمت له ابتساماً يزيده تهيباً منها

اما في ذلك اليوم فكانت قد ارخت ستائر المركبة واركض السائق الفرسين وظهر من تعجله انه يطلب الخروج من المدينة . وراوا وراء المركبة جوادين مسرجين لا يقودهما سائق ولا يركبهما راكب احدهما ادهم على سرجه جعبة مملوءة بالنبال فلم يخف على العارفين ان الجواد لصاحبة المركبة وقد تعودوا ان يروها خارجة عليه بالبسة الرجال للصيد او السباق . ووراء الجوادين خدمة الصيد وفيهم اصحاب الكلاب والفهود . ولم يعجب اهل فرغانة لمعدات الصيد لانهم يعلمون مهارة بنت المرزبان به ولكنهم عجبوا لخروجها في ذلك اليوم

وكان بين المارة رجلان احدهما تاجر من اهل فرغانة والآخر قريب له من اهل خوقند اتى لقضاء ايام النيروز عنده ولم يكن راى شيئاً من ذلك قبلاً فسأل رفيقه عن صاحب هذا الموكب فقال « هو موكب الخاتون جهان بنت المرزبان طهماز الا تعرفها »

قال « سمعت المرة الماضية عن مرزبان يقيم في هذه المدينة معتزلاً عن العمل وانه ذو ثروة طائلة وليس له الا ابنة سمعت الناس يتحدثون بجمالها فهل هي وحيدة له ؟ »

قال « لها اخ اجرد قبيح الخلق والخلق كأنه ليس اخاها »

قال « العل المرزبان من اهل هذه المدينة »

قال « كلاَّ انه غريب ولكنه جاءها وهو شاب منذ ثلاثين او اربعين سنة واتخذها وطناً له فراراً من المسلمين العرب وتعصبهم على المجوس . وكان حاكماً في بعض مقاطعات فارس فقاسى اضطهاداً ولم يشأ ان يبدل دينه بذلك الدين الجديد فاتى باموالهواقام هنا . . »

فقطع كلامه قائلاً « وهل هو غني يا صاحبي ؟ »

قال « له ثروة طائلة واكثر المغارس خارج فرغانة على ضفة نهر الشاش ملكه فضلاً المنازل والنقود والجواهر — ولكن مالنا وله دعنا من ذلك وامض بنا الى سوق اللحم نبتاع خروفاً نذبحه لاولادنا يعيدون به »

وكان رفيقه من محبي الاطلاع على اخبار الناس والاعتراض على اعمالهم فلم يصغ لرأي صاحبه بل قال « قل لي كيف تخرج هذه الخاتون من البيت في مثل هذا اليوم ؟ »

فضحك رفيقه وقال « كانك تريدها ان تبقى في البيت لتعجن العجين وتخبزه او لتطبخ الطبيخ كما تفعل نساؤنا ... انها يا صاحبي سيدة بيت ابيها لان والدتها توفيت منذ اعوام ولم يتزوج المرزبان بعدها اكراماً لجهان هذه فانه يحبها الى درجة العشق ويعاملها معاملة العاشق لمعشوقته وليس الوالد لولده ... »

قال « لست اعني ان تقيم في البيت للعجن او للطبخ بل تبقى فيه لاستقبال الزائرين الذين يتوافدون على بيت ابيها بالهدايا والتحف في يوم العيد »

فقطع الاخر كلامه قائلاً « دعنا من ذلك يا صديقي وسرينا الى السوق نفتش لنا عن خروف نشتريه »

الفصل الثالث

عروس فرغانة

وكان الموكب قد تجاوزها حتى خرج من المدينة الى الارباض ومنها الى البساتين فوقف عند مضرب لبعض اتباع المرزبان تعودوا استقبال هذا الموكب فحفوا بملاقاته فلما وقفت المركبة ترجل السائق ووقف بجانب الفرسين ليمنعهما من جر العربة في اثناء نزول الخاتون . وتقدم احد الخصيان لمساعدتها بالنزول وكانت قد قرّبته للطفه وخفة حركته واسمه مرجان فوقف بجانب المركبة ينتظر الامر ولم يتجرأ على ازاحة الستارة . فطال وقوفه ولم تفتح ولا اطلت الخاتون ولكنه كان يسمع حديثاً جارياً فمال بحب الاستطلاع الى معرفته وردّه التهيب عن الاصغاء لسماعه . وكان سائر رجال الموكب والاكرة في تلك المزرعة وقوفاً ينتظرون ترجل جهان فلما ابطأت اشتغلت خواطرهم . وكان اكثرهم قلقاً جوادها الادهم فانه كان واقفاً وهو يفحص الارض بقوائمه وسائسه لا يقوى على زجره . ثم صهل كانه ينادي صاحبته او يستعجلها فاذا بستارة المركبة قد ازيحت ونزلت منها امرأة كهلة في الخمسين من عمرها عليها سمات التعقل وقد زادها الانقباض رزانة . عليها ثوب واسع يغطي كل جسمها وقد تخمرت بخمار احمر يشمل راسها وعنقها فلا يظهر غير وجهها فعرف الواقفون انها القهرمانة خيزران مربية جهان ورفيقتها ومستودع اسرارها

ولما صارت القهرمانة في الخارج مدت يدها لاستقبال سيدتها فترجلت جهان وهي

لا تستعين باحد حتى وقفت بجانب المركبة والابصار شاخصة اليها للتمتع بذلك الجمال الجاذب الذى لم يسمع بمثله • وكانت قد لبست في ذلك اليوم ثوب الركوب للصيد وهو عبارة عن السراويل والقباء والدراعة وتزملت بشبه العباءة من الحرير المزركش ولفت رأسها بعمامة اشبه بالعصابة تغطي الجبين الى الحاجبين وارسلت منها ذؤابتين على قفا العنق تقيها حر الشمس • وادارت العباءة حول العنق حتى لا يبدو منها غير بعض وجهها



جهان - عروس فرغانة بثياب المنزل

وكانت طويلة القامة جليلة الطلعة في وجهها هيبة وصحة وجمال عيناها كبيرتان وفيهما نور وذكاء وجاذبية لا يعبر عنها بغير السحر يشعر من يبادلها النظر او الحديث بسلطة لها على قلبه وعقله فلا يقوى على محادثتها في موضوع ولا تطاوعه نفسه على مدافعتها في أمر كانها ملكت ارادته بالتنويم المغنطيسي فيصبح آلة بيدها • فكان الناس ينتظرون خروجها من منزلها للصيد او النزهة فيقفون في الطرق ليشاهدوا محياها ولم تكن تحتجب ترفعاً عن الحين او الذل بل كانت تبتسم للناظرين فيزدادون تعلقاً بها

اما في ذلك اليوم فخاب انتظارهم لانهم رأوا في وجهها قلقاً وفي عينيها دمعتان تحاول اخفاءهما بالابتسام والتلطف

ولو نظرتَ الى جهان عروس هذه الرواية في بيتها وقد ازاحت اللثام حتى ظهر عنقها وارخت شعرها كما تراها في هذا الرسم لرأيت قوة الجنان ورباطة الجأش ظاهرتين حول فمها وفي ذقنها . وتجلت لك القوة في تكل عنقها المندمج . وقد تعجبُ لاول وهلة من اختلاف ملامحها عن ملامح الفارسيين ووالدها منهم فاذا علمت ان والدتها جركسية زال تعجبك وعلمت انها ورثت تلك الملامح من والدتها وورثت معها كثيراً من سجايا الجراكسة كالقوة والشجاعة والانفة وتعودت ركوب الخيل والنزول في حلبة السباق والخروج للصيد . واخذت من ابيها ذكاء الفرس وتعقلهم ودقة احساسهم فانت آية من آيات الزمان وشغف بها اهل فرغانة وسموها عروسهم فكان يقال لها عروس فرغانة وان كان اسمها جهان بنت المرزبان

فلما نزلت من المركبة ورأت الناس وقوفاً لانتظارها وهم شاخصون بابصارهم نحوها حيّتهم على عجل خوفاً من ظهور اضطرابها وهي حريصة على كتمان ما بها فالتفتت الى القهرمانة وقالت بصوت يقع في الأذن وقوع النغم المطرب «اين الجواد يا اماه» وكانت تناديها بالاموتة تلطفاً وتحبباً لانها ربتها من صغرها وكانت ضنينة بها شفوقة عليها . وكانت جهان تستودعها اسرارها وتكشف لها عن مكنونات قلبها . ولم تبطىء في الخروج من المركبة الا لاشتغالها بمحادثتها في شأن يهمها

فاشارت القهرمانة الى السائس فاتى بالجواد وهو يختال في مشيته تيهاً حتى كاد يرقص فلما دنا من جهان نظرت اليه وابتسمت ثم حكت جبينه باناملها وكان عليها بقعة بيضاء من شعره تمثل اسداً رابضاً ولذلك سمته « شير » وهو الأسد بالفارسية . ولما احس الجواد باناملها استأنس واخذ يضرب الارض بيمينه والناس وقوف فالتفتت القهرمانة اليهم وقالت « ان مولاتنا ذاهبة للصيد فامكثوا مع المركبة هنا لاعداد الطعام وانما يتبعنا منكم رجلان يحسنان الركض حتى اذا وقع لنا صيد أتيا به » ونادت « فيروز » فتقدم السائس بالجواد الادهم فوثبت جهان اليه باسرع من البرق ثم قدم الفرس الآخر للقهرمانة خيزران واعانها على الركوب فركبت واشارت الى السائس ان يتقهقر ويمشي مع الرجلين الآخرين . وكان احدهما مرجان وساقت جوادها بجانب جواد سيدتها وسارا متزاملتين وقد تنكبت جهان القوس وكانت جعبة النبال معلقة بالقربوس والتمست عرض

البر والفرسان يمشيان زميلاً والارض سهلة واكثرها مزدرع ويتراءى لهما عن بعد جبل كثير الشعب

تعودت جهان الذهاب في الشعاب والاودية مع الفهادين واصحاب الكلاب لاصطياد الغزلان او حمر الوحش او الوعول . واما يومئذ فلم تصطحب احداً من اولئك لرغبتها في الانفراد وانما اتخذت الصيد حيلة للخروج

فلما امعنتا في الخلاء التفتت القهرمانة الى جهان لفتة حنو وانعطاف وقالت « والآن ياسيدتي الا تكشفين لي عن سبب انقباضك وانت تعلمين اني مستودع اسرارك واسرار والدتك من قبلك ؟ »

فتنهدت جهان وقالت « دعيني يااماه من هذا الحديث وانما جئت لاورح النفس بالصيد »

فضحكت القهرمانة وقالت « وهل تريدين ان اصدق انا ايضاً انك خرجت للصيد وانا اخترعت هذه الحيلة للخروج معاً أم تحسبين سرك خافياً عني يا ولدي ؟ »

فارادت مغالطتها فظهرت عدم المبالاة وقالت « استغربين انقباضي وانت ترين والدي مريضاً بالنقرس منذ اعوام وقد سمعت طبيبه يقول ماتعلمينه من ضعف الامل بالشفاء . ولا يخفى عليك ان المرزبان اذ أصيب بسوء اصبحت منقطعة اذ لا اهل لي هنا ولا اعرف اهل والدي في بلاد فارس ولا اهل والدتي في بلاد القوقاس ولا ادري مع ذلك كيف ... » وغصت بريقها

قالت القهرمانة « ان مرض سيدي المرزبان يا جهان لم يحدث بغتة وقد كنت تخافين على حياته من قبل ولم يبد عليك مثل هذا الانقباض .. وانما سبب الانقباض سرٌّ انت شديدة الحرص على كتمانه ولكنني اعرفه .. »

الفصل الرابع

ضرغام

فالتفتت اليها جهان لفتة الاستغراب وتفرست في عينيها ووجهها كأنها تقرأ ضميرها وكانت جهان شديدة الاقتدار على ذلك فتأثرت القهرمانة من نظرها وبما يتلألأ في عينيها من الماء وهي تغالب عواطفها وقالت « نعم ان سرك غير خافٍ عليَّ وان كنتِ تحاولين

اخفاءه ليس لضعف ثقتك بي ولكن حياءً مني . وارى هذا الحياء يبدو على وجهك الآن لمجرد الاشارة الى الموضوع . . »

وكانت جهان لما سمعت تعريض القهرمانة صعد الدم الى وجنتيها فتوردتا واشرق وجهها وأبرقت عيناها بريقاً ينمُّ عما يجيش في قلبها من لواعج الحب — واعتراف العينين حجة واذا انكر صاحبها و بالغ في التنصل فهو كاذب وهما صادقتان . اذا قالت العين قولاً وقال اللسان آخر فالصادق هي لا هو وخصوصاً من يكون مثل عروس روايتنا من حيث دقة الاحساس وقوة العاطفة . فقد كانت كبيرة القلب وكبيرة العقل معاً لكن الضعف النسائي غلب عليها في تلك اللحظة فاطرقت فابتدرتها خيزران قائلة « لا تعجبي يا سيدتي لاطلاعي على ذلك السر وليس انا وحدي المطلعة عليه فانه متداول بين اهل القصر لا يجهله احد غير والدك . ولولا تهيب اهل القصر منه لابلغوه اليه ولكنهم لا يستطيعون تبليغه ذلك الاَّ على يدي وانا لم افعل »

فبغتت جهان وقالت وهي تتشاغل باصلاح شعر جوادها عند قاعدة عنقه « واخي سامان ؟ هل هو عالم بهذا السرّ ؟ »

فابتسمت ابتسامة تشفُّ عن تألمها من ذكر ذلك الاسم وقالت « سامان ؟ ان سامان لا تخفى عليه خافية يا سيدتي وقد قلت لك مرارًا . . . »

فاحست جهان انها تريد الطعن باخلاص اخيها فأبت نفسها سماع الطعن فيه فقطعت كلامها قائلة « اني اتوسم في اخي سامان شيئاً لا يرتاح اليه قلبي لا ادري ما هو ولكنني لا اسمع الطعن عليه وهو اخي الوحيد كما تعلمين وارى منه انعطافاً نحوي وان كنت اشعر من خلال ذلك بشيء لا يعجبني . . . ولا يعجبني منه اشتغاله بالاسرار حتى يخيل لي انه جعبة خفايا وغوامض . . يغيب عن البيت يوماً فنبحث عنه في فرغانة بحثاً دقيقاً فلا نقف على خبره ثم يأتي ونساله عن سبب غيابه فلا يجيب او يجيب جواباً مبهماً . واخبرنا بعضهم انه كثير الخلوة بالموبذ كاهن كارشان شاه بيت النار في هذه المدينة ولا يخفى عليك حال هذا الكاهن من الدهاء والحيلة . . »

فقالت خيزران « اظن هذا الموبذ متحداً مع طائفة الخرمية الجمعية السرية التي يرأسها اليوم ويقود رجالها بابك الخرمي صاحب الصول والطول الذي اصبح خليفة المسلمين يخافه ولا يبعد ان يكون اخوك سامان عضواً من اعضاء هذه الجمعية ولا باس من ذلك لان غرض الخرمية اعادة السلطة للفرس ومحاربة المسلمين »

قالت « لا انكر ما في اخي سامان من اماكن الضعف ولكنه اخي .. ما لنا وله الآن »

فاطرقت القهرمانة وهي تستغرب حسن ظن الفتاة باخيها رغم ما يظهر من قبيح اعماله وما تعتقده هي من سوء قصده ولكنها اعرضت عن ذكره ورجعت الى الموضوع فقالت « والآن ألا تبوحين لي او تأذنين بان ابوح انا لك »

فاعظمت جهان ان يغلب عليها الضعف النسائي الى هذا الحد بين يدي قهرمانتها او مربيتها فتحركت فيها الانفة وقالت « لا تستضعفيني يا اماه وربما توهمتِ فيَّ غير الواقع فاذكري لي سبب انقباضي ان كنت تعلمين »

فقالت « ان موضوعه « ضرغام » هل اصبت المرمى ؟ »

فلما سمعت ذلك الاسم خفق قلبها وكان الدم قد تحول عن وجنتيها فعاد اليهما وابرقت عيناها فابتدرتها خيزران قائلة « لا سبيل الى الانكار يا حبيبتي وعيناك تشهدان على صحة قولي انك تحبين ضرغام .. »

فلبثت جهان تنظر الى ما يبدو من استحسانها ذلك الحب او استهجانه فقالت القهرمانة « ان ضرغاماً شاب جميل وشجاع باسل »

فقالت جهان « لم تقولي رايك فيه »

قالت « قلت لك انه شجاع وجميل لا مثيل له في فرغانة ولا غيرها من بلاد الهياطلة ولا بلاد فارس »

فقالت « فهمت انه شجاع وجميل ثم ماذا .. ؟ »

فهمت خيزران ان تصرح بفكرها فتهيبت وخافت على جهان فاطرقت وسكتت فقالت لها جهان بصوت هادىء وجاش رابط « قولي يا ماما بصراحة ولا تخافي من شيء »

فقالت « ليس في العالم احسن من ضرغام لولا نسبه ... اذ ليس في فرغانة من يعرف اصله او نسبه حتى هو فانه لا يعرف من هو ابوه »

فتجلدت جهان وقالت وهي تتشاغل باصلاح وضع القوس على كتفيها « وماذا يقول الناس عنه ؟ »

قالت « لا يقولون شيئاً عن شخصه فانه مثال الشجاعة وكرم الخلق فضلاً عن جماله وعلو همته وكبر نفسه لكنهم يتحدثون بغموض نسبه ... انا اعرف والدته منذ جاءت الى فرغانة وهي في ابان شبابها تحمل طفلها ضرغاماً وكانت جميلة الطلعة . ومع فقرها

وعوزها خطبها غير واحد من اهل فرغانة فابت ان تتزوج رغبة في تربية ابنها لانها كانت شديدة العناية به . وسمع سيدي المرزبان بخبرها فاستقدمها اليه وسالها عن حديثها فتكتمت في بادىء الرأي ثم قالت انها أخذت طفلة من حضن والدتها من بادية الترك وربيت في منزل بعض النخاسين بالعراق حتى انتهت الى رجل من اهل تلك البلاد فاعتقها وتزوجها ثم توفي قبل ان تضع حملها فلما وضعته احبت الانقطاع الى تربيته . فلم يصدق سيدي المرزبان قولها واحب ان يجربها فعرض عليها ان يزوجها ببعض رجاله فابت واعتذرت فازداد شكاً في حديثها فانزلها بجانب قصره وامر لها بما تحتاج اليه من لوازم الحياة وكانت تحسن الخياطة وتشتغل في جملة خدم القصر حتى اصيبت بالرمد وكف بصرها فكفت عن العمل وظلت في بيت ابيكِ كما تعلمين . ولما شبَّ ضرغام تعلم ركوب الخيل والرمي بالنشاب وظهرت فيه سجايا نبيلة فجعله مولاي المرزبان في جملة اعوانه وكان يحبه ويجلُّ مناقبه حتى بعث الخليفة المعتصم الى هذه البلاد لتجنيد الرجال من الاتراك والفراغنة والاشروسنية منذ بضعة اعوام فتطوع ضرغام في خدمته وكنت قد لحظت ما بينكما من الحب المتبادل الذي تحاولين الآن اخفاءه . ولكنني عجبت لذهابه وغيابه كأنه راى نفسه اقصر باعاً من ان ينالك للتباعد بينكما في المقام والنسب »

وكانت القهرمانة تتكلم وجهان مصغية تسمع كلامها بشوق ولهفة حتى اذا بلغت الى هنا اجابتها قائلة « انهُ تطوع في جند المعتصم لعلمهِ ان الرجال تظهر مواهبهم في مثل هذا التجنيد . وكان قد تغلب عليه الوهم الذي اراهُ متغلباً عليك فزعم انهُ لا يستحقني وانا أراهُ يفضلني بدرجات كثيرة . لان الانسان لا يقدَّر بمزارعه ومنازله وثيابه وانما يقدر بمواهبه ومناقبه . وانت تقولين والناس كلهم يقولون انه فريد بهذه المناقب . ومن جملة مناقبه الشريفة ايضاً انهُ رأى نفسه احط من ان ينالني فتطوع في الجندية عند المسلمين في بغداد التماساً للعلى بجدٍّ لثلاَّ يقال اني افضلهُ في شيء ولا ريب عندي انهُ سيبلغ ارقى مراتب الجند لاننا نسمع باناس من رفيق هذه البلاد ابتاعهم الخليفة بالمال وربّاهم وجندهم فنبغ بعضهم الى مراتب القواد فكيف بضرغام كما تعرفينهُ واعرفهُ ؟ ... » وكانت تقول ذلك ويكاد لسانها يتلعثم لخفقان قلبها وثورة عواطفها

فرأت القهرمانة تصريحها واسلوب كلامها يدلاَّن على تعلقها بضرغام وهي تعرف ثباتها في رايها فلم تستطع معارضتها رأساً لكنها قالت « لاشك عندي ان ضرغاما سينال رتبة عليا في جند المعتصم ولكن عروس فرغانة طبقة أخرى من البشر .. ان جهان يا سيدتي

ارقى من ان ينالها القواد فان الملوك يخطبون رضاها .. » قالت ذلك وفي صوتها نغمة تدلُّ على انها تعني ما تقول حقيقةً وليس على سبيل الاطراء او المجاملة . ولكيلا تترك لجهان وقتاً للتفكير والجواب اظهرت انها تعبت من الركوب والتفتت الى ما حولها فوجدت انها على مقربة من تل يشرف على اودية كانت تأتيها جهان للصيد فقالت « الا ترين ان نترجل للاستراحة هنا قليلاً ثم نعود الى الركوب اذا شئت لاني لا اصبر صبرك على هذه المشقة »

فاجابت جهان بهزّ راسها . وترجلتا فاسرع السائس الى الفرسين وتناولهما واقترش لبادتيهما على صخرة منبسطة فوق التل فقعدتا عليها واشتغل هو بعلف الفرسين . واشارت جهان الى الخادمين ان يتوغلا في تلك الاودية يستطلعان حال الصيد هناك و يرجعا

الفصل الخامس

الكتاب

فلما خلتا كانت القهرمانة قد ملكت روعها فقالت « كيف رأيت قولي يا سيدتي ؟ »

قالت « لا استغرب اطراءك اياي واعجابك بي فاني بمنزلة ابنتك والوالدة ترى ابنتها لا مثيل لها حتى تظن الملوك يقتتلون عليها ... »

فقالت « اني لم اقل ما قلته من قبيل الاطراء او المبالغة بل انا واثقة بما اقول ... انا على يقين ان اعظم ملوك الفرس يطلب رضاك و يتمنى الحصول عليك .. »

فهزّت جهان كتفيها هزّ الانكار والاستبعاد وقالت « ملوك الفرس ؟ وهل للفرس ملوك اليوم » فاستبشرت القهرمانة بقرب اقناعها بعلو مرتبتها لانها على ثقة مما تقوله فقالت « لا تهزي كتفيك يا سيدتي .. ان للفرس ملوكاً عظاماً لا يابثون ان يعيدوا سلطان الاكاسرة . الا تعرفين مازيار صاحب طبرستان .. ألا تعرفين بابك الخرمي صاحب اردبيل ؟ ان كل واحد من هذين ملكٌ عظيم تخضع لهُ الالوف من الابطال ولكنه يتمنى الحصول على عروس فرغانة .. »

فاطهرت جهان الاستخفاف وقالت وهي تنظر الى فرسها الادهم سارحاً يرعى العشب « دعينا من الملوك ... لا أرب لنا في غير ضرغام وما لنا وبابك ومازيار واين نحن من اردبيل وطبرستان ؟ »

قالت « اذا كنتِ لا تصدقيني اسالي اخاك سامان عن بابك الخرمي »

قالت وقد انتبهت لنفسها « اظنني سمعتهُ يذكر هذا الاسم بالاطراء ولكنني لا اثق باقواله كلها كما تعلمين ولا همَّني هذا الامر لان ضرغامًا ليس مثله احد على قلبي ولا رغبة لي في الملوك ولا الامراء »

فقالت « اذا كنت تستبعدين تلك البلاد فهذا الافشين صاحب مملكة اشروسنة على مقربة منا وهو الآن قائد جند المسلمين كافة في بغداد وعما قليل ياتي لزيارة ابيك لان سيدي كتب اليه منذ اشهر اذا جاء في عيد النيروز الى اشروسنة ان يزوره في فرغانة ... »

وكانت جهان تظهر قلة المبالاة كما رأيت فلما سمعت اسم الافشين اجفلت وتغير وجهها وانقبضت نفسها وصدَّت خيرزان عن الكلام بكفها كانها تقول « كفى لا تذكري هذا الاسم .. »

فأرادت ان تستانف الحديث فصاحت جهان « دعيني من ذكر هذا الرجل اني لا احتمل سماع اسمه .. وهو هو سبب انقباض نفسي الذي زعمتِ انك عرفتهِ . فان نفسي انقبضت منذ سمعت بقرب قدومه الى فرغانة وانهُ سيقضي بعض عيد النيروز عندنا ولو استطعت ان اقضي هذا العيد بعيدة عن البيت لفعلت »

فاستغربت كرهها للافشين وقالت « وهل اساءك الافشين في شيء ؟ »

قالت « كلاَّ لم يسؤني بشيء ولا كلمني كلمة ولكنني لا أزال منذ كنت أراه في قصرنا يأتي لزيارة والدي ونفسي تعافه وتكره النظر اليهِ ... ولا اذكر ان شعوري خانني في حكمه على الناس .. »

فقالت القهرمانة « يا للعجب ألا تعلمين ان الافشين رئيس ضرغام وان غاية ما يبلغ اليه ضرغام من الرقي في جند المسلمين ان يصير قائداً من قواد الافشين وتحت رايتهِ »

فقالت « بترفع وهدوء « كلاَّ يا اماه انهُ ليس تحت رايته بل هو رئيس حرس الخليفة »

قالت وقد ظهر الاستغراب في محياها « وهل انتِ على يقين من ذلك ؟ »

فنظرت اليها وقالت وهي تبتسم « اني على يقين اصح من يقينك برغبة الملوك في طلبي » ومدَّت يدها الى جيبها وهي تقول « وقد جاءني كتابه منذ بضعة أشهر يخبرني بذلك وينبئني بقرب قدومه الى فرغانة ولكنه الى الآن لم يأت » واستخرجت الكتاب ودفعته اليها لتقرأه وهو مكتوب بالبهلوية وهذا مفاده :

« من ضرغام في سامرا الى حبيبة قلبه جهان في فرغانة

« ياسيدتي . ولا ازال ادعوك سيدتي لانك سيدة العالمين وانت أيضاً حبيبتي لانك ملكت قلبي وكل جوارحي . تركتُ فرغانة منذ بضع سنوات ولم اكتب اليك حتى الآن لاني لم اكن اهلاً لمخاطبتك وكيف يتجاسر ضرغام الفقير اليتيم ان يخاطب جهان بنت المرزبان صاحبة السيادة المالكة للاموال والرقاب . وقد وعدتك يوم الوداع ان ابذل جهدي في طلب العلى فاذا بلغت درجة تقربني من مقامك اتيت اليك والتمست رضاك والاّ فاني اموت في سبيل طلبك . وقد انتظمتُ في الجندية وخضت المعامع باسمك واستقبلت النبال بصدري وانت فيه فوقاني من الأذى . وقضى الله ان ابقى حياً لعل لي ماراً بجهان . ارتقيت في مراتب الجند حتى صرت رئيس الحرس في قصر الخليفة فبادرت الى تبشيرك وكأنك تسألينني عن غاية ذلك الترقي . فاذا لم يكن هذا الارتقاء لاكتسب به رضاك فلا مآرب لي به لاني لا أرى للحياة قيمة ان لم تكن لك ومعك . وقد أخذت اسعى في الشخوص الى فرغانة لاقبل يدي سيدي المرزبان واحظى بمشاهدة حبيبتي جهان ولو لا بعض المشاكل التي تخاف عواقبها على الخلافة لجئت اليك منذ أشهر على اني ظفرت بطريقة تساعدني على الشخوص . وذلك ان امير المؤمنين بنى مدينة سامرا بالقرب من بغداد كما تعلمين ليجعلها مدينتهُ الخاصة ويقيم فيها جنده الاتراك الذين جندهم وانا واحد منهم . واراد ان ينتصر بهم على الاحزاب المختلفة التي نشأت في المملكة الاسلامية من الفرس وغيرهم ولكنه خاف على هؤلاء الجنود اذا اختلطوا بسكان المدن المجاورة ان تذهب شدتهم ونخوتهم فارتأى ان يزوجهم بجوار تركيات يستجلبهن من وراء النهر (١) وعين اناساً يرسل بهم الى ما وراء فرغانة يبتاعون الجواري والأماء ويعودون بهن . وقد شكوت اليه رغبتي في زيارة وطني وربما كان لي نفع اذا صحبت ذلك الوفد فوعدني بذلك فعسى ان آتيك قريباً . وقد عهدت بكتابي هذا الى رجل من خاصتي ارجو ان يوفق الى ايصاله .. والدتي المسكينة تهديك السلام »

فلما فرغت القهرمانة من تلاوة الكتاب ضمت بجهان وضمتها الى صدرها وقبلتها وهي تقول بورك فيكِ وفيه انه اهل لك .. صدقتِ ان الرجل باعماله لابماله واذا كان قد اصبح رئيس الحرس بجده وبسالته فكيف بعد اعوام والدولة الاسلامية لا تزال حروبها قائمة

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١٥٨ ج ٤

ومثل ضرغام لا يعدم وسيلة للارتقاء »

فسرّت جهان لموافقة القهرمانة على ما في خاطرها لكنها ما لبثت ان عادت الى هواجسها وقالت « ان هذا الكتاب جاءني منذ عدة اشهر ولم يات ضرغام ولا عرفت شيئاً عنه »

قالت « لاتجزعي انه آتٍ . ولكن . . » واطرقت كانها تفكر في أمر طرأ عليها

فقالت جهان « ولكن ماذا . . قولي ياامام »

قالت « ولكن والدك . . . هل خاطبته بشان هذا الامر وهل تحسبينه يرضى بضرغام »

قالت « لم افاتحه بشانه بعد ولكنني اعلم انه يحبه و يجل خصاله ولم يمنعني امراً اردته ومتى جاء ضرغام خاطب والدي بهذا الشان »

قالت « اعلم ان سيدي المرزبان يحب ضرغاماً و يجله . . . ولكن هناك أمراً آخر هل فكرتِ به ؟ » قالت « ما هو ؟ »

قالت « ان ضرغاماً مسلمٌ على ما اعلم فكيف يصح زواجه بك الاّ اذا اعتنقت الاسلام »

فقالت « وما الذي يمنعني من ذلك ؟ ان الاسلام ديانة الدولة »

فقالت « وتتركين ديانة ابيك وعشيرتك ؟ »

قالت « اذا كانت هذه الديانة تحول بيني و بين ضرغام اتركها لأني احب ان اكون حيث يكون هو في هذه الدنيا وفي الدنيا الآتية » قالت ذلك ودمعت عيناها وهي تبتسم

واحست القهرمانة ان الحديث طال وقد وصلتا منهُ الى نقطة حرجة فأحبت مشاغلة جهان عنه فنهضت وقالت « مضى قسم من النهار ولم تباشري الصيد . . . فاركبي فرسك وانا اتبعك والهو بما اشاهدهُ من مهارتك في مطاردة الغزلان »

الفصل السادس

الوعل

وكانت جهان قد ملت الحديث ايضاً فاعجبها الرأي فاشارت الى السائس ان يأتي بالجواد والقوس والنبال ونظرت الى الجبال بين يديها لتختار جهة تركب اليها فبصرت بوعل يركض على صخر قريب منها ولم تعهد مثله في تلك الجهة من قبل فبغتت وصاحت بالسائس « فيروز . . هات القوس »

فاسرع اليها بالقوس فاوترتها وسددت السهم واضمرت في باطن سرها انها اذا اصابت طريدتها كان ذلك فالاً على نيلها ضرغام وقرب مجيئهِ والاَّ فلا . ونظرت الى الوعل فرأته وقف على تلك الصخرة والتفت نحوهم فرمته بأسرع من لمح البصر وسمعت طنين النبل في الهواء وخيزرانة تنظر الى الوعل وتخاف ان يفرَّ قبل اطلاق السهم فما لبثت ان رأته سقط ثم انقلب الى شق بين صخرين فصاحت جهان « وقع وقع .. اليَّ به يا مرجان » فركض ورفيقه والسائس يركضان في اثره وظلت جهان واقفة وقلبها يكاد يطير من الفرح ثم تقدمت خيزرانة اليها وهي تضحك وتقول « لقد سرَّني ربي هذا الوعل ليس لانك اصبتهِ فقط ولكنني قبل ان ترميه اضمرت ان يكون فوزك في صيدك هذا رمزاً عن فوزك بضرغام »

فابتسمت جهان وقالت « وهذا ضميري ايضاً .. اتقولين بعد ذلك ان ضرغاماً لا يناسبني ؟ »

قالت « بسطت لك رأيي وانا بصراحة الآن اكثر منك رغبة فيه » وضحكت وهي تمازحها

فانبسطت نفس جهان لهذه المازحة وانفرجت كربتها بمكاشفة خيزران . ثم سمعت صياحاً فالتفتت فرأت الرجال يجرون الوعل جرًّا لثقله فاسرعت اليهم فرأت الوعل ميتاً لا يتخبط . فتعجبت من سرعة مصرعه بسهم واحد . فلما وصلت اليه رأت سهمها لا يزال مغروساً في خاصرتهِ ولاحت منها التفاتة فرأت سهماً آخر في لبته فصاحت « انه مصاب بسهمين وانا لم اطلق الاَّ سهماً واحداً ... هوذا السهم في صدره »

وامرت مرجان ان يستخرجه فاستخرجه بعد عنف شديد وهو يقول « يظهر ان الوعل مات من هذا السهم » ودفعه الى جهان فتناولته وقلبته بين انامليها فرأت على ريشه كتابة بالعربية وكانت تحسن قراءتها ولم تكد تتبين احرفها حتى صاحت « ضرغام .. ضرغام ! اني اقرأ اسم ضرغام على هذا السهم .. » فتقدم مرجان وكان يقرأ العربية ايضاً فقال « هو اسم ضرغام حقيقة »

فبهتت جهان واجفلت والتفتت الى خيزرانة وهي تتجلد خوفاً من ظهور بغتتها امام الرجلين ثم امرتهما ان يذهبا بالوعل الى مكان يذبحانه و يفعلان به ماشاءا واختلت بخيزران وقالت لها « ما قولك بهذه الصدفة ؟ اني توسمت منها خيراً »

قالت « يظهر ان ضرغاماً قريب من هذا المكان وهذا سهمه وقد رمى الوعل به فحمل الوعل جرحهُ مسافة طويلة لان هذه الوعول لا تسرح الاَّ عند ضفاف نهر الشاش على مسافة بعيدة من هذا المكان »

فاطرقت جهان وهي تحسب نفسها في حلم ثم قالت « انها صدفة غريبة ! .. على اني اخاف ان تكون قد اخطأنا الظن .. ولكن لا .. ان قلبي يحدثني بصدق ظني .. فاذا كنت مصيبة اين تظنين ضرغاماً الآن ؟ »

قالت « اظنه معسكراً على ماء للاستراحة قبل دخول فرغانة ولا اعرف ماء في هذه الجهة الا نهر الشاش فلعله معسكراً على ضفته الشرقية »

قالت « وهل هذه الضفة بعيدة عنا ؟ »

قالت « انها على فرسخ وبعض الفرسخ من هنا على ما اظن ... وما مرادك من هذا السؤال ؟ »

فخجلت جهان من التصريح بما يخالج ضميرها مخافة ان تستخف مربيتها بها فظلت ساكتة واطرقت وهي تتشاغل باصلاح وتر القوس بيدها . فادركت خيزران ما في نفسها فابتدرتها قائلة « اظنك تريدين الذهاب لملاقاته هناك »

فابتسمت والخجل يعارض ابتسامها وتفرست في عيني خيزران لتستطلع حقيقة غرضها من ذلك السؤال فرأتها تنظر اليها باهتمام فعلمت انها مشعرة معها فقالت « وهل تظنين في ذهابي اليه بأساً او محظوراً »

فأشفقت خيزران على عواطفها واحبت مسايرتها فقالت « لو علم القوم انك ذاهبة اليه عمداً ربما تحدثوا بذهابك ولكننا اذا لقيناه جعلنا لقاءنا على سبيل الصدفة .. أما المكان فبعيد لا يخلو الذهاب اليه من المشقة ... هل تصبرين على ذلك ؟ »

قالت « لا مشقة علينا ونحن راكبتان .. فبادري الى الذهاب » قالت ذلك والتفتت الى الرجلين فرأتهما مشتغلين بذبح الوعل بعيداً

فادركت خيزان انها تريد استقدامها فسبقتها الى ذلك وقالت « ارى ان نستقدم خادمك فيروز يسير في ركابك وان تأمري الآخر بالذهاب الى بقية الموكب بباب المدينة ينتظرنا مع سائر الخدم هناك »

فاستحسنت جهان رأيها فمشت خيزران نحو الرجلين ثم نادتهما واومأت الى فيروز ان يأتي فاسرع مهرولاً فامرته بما ذكرته جهان عن رفيقه وان يأتي بالفرسين ففعل وأتى بهما فركبتا ومشى هو في ركابهما لا يدري الى اين تسيران

اما جهان فادارت رأس جوادها نحو النهر وعيناها شائعتان في الافق لعلها ترى حبيبها قادماً . وكانت الشمس قد تكبدت السماء ونسيت جهان انها لم تذق طعاماً في ذلك

اليوم ولكنها أغضت عن كل شيء في سبيل ملاقاتها ضرغاماً — وقد يغلب الحب على خاطر صاحبه حتى ينسيه وجوده

الفصل السابع

الضيافة

سار الفارسان في ارض بعضها مزدرع وفيه الاكرة والمارة وكلهم يعرفون عروس فرغانة وان فاتهم النظر الى وجهها فانهم يعرفونها من فرسها او من خادمها . فكانوا اذا رأوها وقفوا احتراماً وابتسموا اعجاباً وهي قلما تبتسم لاشتغال خاطرها . وبينما هي غارقة في بلبالها صهل فرسها وفرس خيزران فانتبهت ونظرت الى امامها فرأت على مقربة منها مزرعة فيها خيام كروية السقف على شكل خيام التركمان — وهم يبنونها مستديرة وسقفها قبة . ورأت بين يدي الخيام بضعة افراس وغلامين يحلبان فرسين منها واهل بادية تركستان يقتدون بالبان الخيل كما يقتدي بدو العرب بالبان الابل



التركمان يحلبون الخيل

فلما رأت جهان اولئك الاكرت ارادت ان تجعل طريقها بعيداً عنهم حرصاً على الوقت فرأت خيزران تحول شكيمة جوادها نحوهم واشارت الى سيدتها ان تتبعها وقالت « الا

ترى مولاتي ان نسال هولاء القوم عن ضرغام لعلهم رأوه مارًا فيغنينا ذلك عن تكبد المشقة في الوصول الى النهر

فاستحسنت جهان رأيها وتحولت معها حتى دنتا من القوم ومعهما فيروز فرآهم احد الغلامين فنهض وقد علم من قيافة جهان انها اميرة كبيرة واسرع الى والده في احدى الخيم يدعوه لاستقبال الاضياف واذا بأكار (فلاح) شيخ خرج من الخيمة وهو يتوكأ على عكازه وحالما وقع بصره على الفارسين عرف جهان فامر اولاده ان يساعدوها في النزول فابت جهان النزول واثنت على الرجل والتفتت الى خيزران كانها تحرضها على السؤال فقالت « انزلي يا سيدتي للاستراحة هنيهة ثم نركب فاطاعتها مرغمة واستلم فيروز الفرسين وابعد بهما عن المكان لئلا يشوشا الوقف بالصهيل بين يدي الافراس الاخرى

ولما ترجلت افترش لها اولاد الشيخ حصيرًا جلستا عليه وخاطبهما الشيخ بلطف وسذاجة قائلاً « الا تشرفنا بنت المرزبان بجلوسها لحظة في هذا البيت الحقير » فخجلت من هذا اللطف وجلست على جلد افترشوه لها ولرفيقتها وقبل ان تبدأ خيزران بالسؤال جاء الغلام يحمل قدحًا من الخشب فيه سائل عرفت انه من لبن الافراس الذي احتلبوه في تلك الساعة . فأشارت اليه ان يقدمه الى سيدتها فاعتذرت انها لا تشعر بالجوع فقال الشيخ يخاطب غلامه « قدم لها قدحًا من القومز » (وهو لبن الخيل يخمرونه ويقدمونه شرابًا للزائرين كما يقدم العرب السويق وكما يقدم اهل هذا الزمان الليمونادة او الشاي) ونظر الى جهان وقال « وهذا القومز لا يستدعي جوعًا فانه يشرب كالماء ويزيل التعب »

فلم تستطع جهان ردّه فتناولته فاغتنمت خيزران تلك الفترة وخاطبت الشيخ قائلة « الم يمر بكم اضياف غيرنا في هذا اليوم »

قال « كلا يا سيدتي . ولذلك فاني سررت بقدومكم ... وقد تشرفت بمرور مولاتنا جهان واذا فاتنا مرور الضيفان فهي خير من الف ضيف »

فقالت « وهل العادة ان يمر بكم المسافرون دائمًا ؟ »

قال « نعم يا سيدتي لان القادم من اشروسنة اوخو كند اوبخارا يريد المشرق اذا قطع النهر مرينا . ثم يذهب الى فرغانة او الى غيرها . وكثيرًا ما تمرّ بنا قوافل التجار قادمة من الهند او التبت او الصين تقصد بلاد الروم او راجعة منها الى بلادها »

فنظرت الى جهان وخاطبتها بالفارسية — واكرة تلك البلاد يتكلمون الشاغطائية (التركية القديمة) وقالت لها الا ترين ان نمكث هنا ريثما يمر ضرغام اذا كان لا بدّ من

مروره ؟ اليس ذلك افضل من ان نطلبه هناك وقد نسير اليه من طريق ويأتي هو من طريق آخر فنختلف في المرور ولا نلتقي »

فلم تجب ولكن ظهر على ملامح وجهها انها رضيت فقالت خيزران عند ذلك «إذني الرجل في ان يقدم لنا شيئاً نأكله »

فقالت « وكيف نطلب الطعام بعد ان رفضناه ؟ »

قالت « انا اطلبه باسلوب معقول » والتفتت الى الرجل وقالت بلهجة « الا تبيعون خيلاً للذبح ؟ »

قال « كلا ياسيدتي لاننا تربي الافراس للبن ولا نذبحها الا متى عجزت وقلّ لبنها »

قالت « واذا اردتم ابتياع مهر للذبح كيف تفعلون »

قال « نترصد قطيعاً من الخيل مارًا من هنا فنشتري منه ما شئنا .. وقد مضت عليّ برهة وانا انظر الى هذه الجهة (واشار بيده نحو الشرق والتفتت خيزران فرأت في الافق البعيد غباراً كثيفاً محلقاً في الجو) — فقال انظر الى هذا الغبار وانوقع دنوه فلعله غبار قطيع من الخيل قادم الينا فابتاع منه فرساً او فرسين للذبح — واذا شاءت مولاتنا المكوث هنيهة اخرى وتنازلت ان تتناول الطعام عندنا ذبحت لها فرساً سميناً »

فاستحسنت جهان اريحية الرجل وخفة روحه فابتسمت له ففهم انها رضيت فامر احد ابنائه بملاقاة القطيع وتعجيله فاسرع الغلام يعدو واشتغل الشيخ باعداد المائدة ثم اتى ببطيخة وضعها بين يدي جهان وقال « هذه بطيخة من بطيخ بخارا المشهور بحلاوته سنذبحها لمولاتنا في جملة الذبائح ... »

فاستغربت جهان وجود هذا البطيخ عنده وهو مما يتفاخر باقتنائه الكبراء . ولم يفت الرجل ماجال في خاطرها فاستدرك قائلاً ان هذه البطيخة اهداني اياها شاب مغرم جاء يخطب اليّ احدى بناتي فاتى بهذه البطيخة في جملة الهدايا »

فلما سمعت جهان ذكر الغرام تذكرت لوعتها فتنهدت خفية واومأت الى الشيخ ان يحتفظ بالهدية وقالت « احفظ الهدية لصاحبتها »

الفصل الثامن

الراية

واراد الشيخ ان يجيبها فسمع صوتاً يناديه فالتفت فرأى ابنه راجعاً يعدو وهو يلهث من التعب و يقول : « ان رعاة القطيع لا يبيعون من قطيعهم شيئاً »

ونظرت جهان الى جهة الصوت فدلها الغبار على ذلك القطيع من الخيل وفي مقدمته رجل راكب على فرس مسرج ووراءه عشرات من الخيول عارية تتزاحم وتتزاكض وعلى بعضها رعاة من بدو الكرج وهم يعيشون في براري تركستان على رعاية الخيل والماشية. ورأت الفارس الاول لابساً لباس الجند و بيده راية على رمح لم تنتبه للاسم الذي طرز عليها ولو قرأته لارتعدت فرائصها

اما الشيخ فاسرع الى الفارس واستوقفه وقال « الا تبيعوننا فرساً من هذه الافراس؟»

فاجاب الفارس بانفة وعجرفة « كلا »

قال « انا في حاجة الى ذبيحة فنعطيكم الثمن الذي تريدونه »

فاشار برأسه نحو الوراء ولم يجب

فقال الشيخ « ولماذا لا تبيعون؟ »

فقال « لان هذا القطيع مشترى لاناس لا يبيعونه »

فقال « ومن هؤلاء ؟ اليسو تجاراً »

اجاب « كلاّ » ثم اوما الى الراية وهو يقول « اظنك لا تعرف القراءة ولو عرفتها لكفيتنا مؤونة السؤال والجواب »

فلما سمعت جهان قوله نظرت الى الراية فقرأت فيها « الافشين حيدر بين كاوس » باحرف عربية وحالما قرأتها تغير لونها ونظرت الى خيزران فرأتها في مثل بغتتها فتجلدتا. اما الشيخ فاجاب الفارس قائلا « صدقت اني لا اعرف القراءة .. لمن هذه الراية ؟ »

قال « هي للافشين حيدر بن كاوس قائد جند الخليفة المعتصم وصاحب مملكة اشروسنة »

ولم يكن احد في تركستان لا يعرف هذا الاسم لان الافشين كان ملكا على اشروسنة قبل دخوله في خدمة المعتصم فبغت الشيخ وتهيب وقال « ان مولانا الافشين مقيم في

بغداد على ما نعلم »

قال « كان في بغداد ولكنه جاء الى اشروسنة منذ ايام وبعثنا نبتاع الماشية لرجاله »

فقال « وانتم ذاهبون بهذا القطيع الى اشروسنة الآن ؟ »

قال « كان مولانا الافشين في اشروسنة ولكنه قادم الى فرغانة يقضي عيد النيروز فيها ورجاله معسكرون خارجها على ضفاف الشاش وهذه الخيول لهم ... فهل تحتاج الى زيادة ايضاح ؟ » قال ذلك وساق جواده وتبعه الرعاة بالخيول

فلم يعد الشيخ يتجاسر على السؤال وغلب عليه الخجل من جهان لانه عجز عن القيام بضيافتها واخذ يهيىء عبارة يعتذر بها اليها فاذا هو يراها قد وقفت واشارت الى خادمها ان يأتي بالجوادين واسرعت الى الشيخ وهي تتجاهل ما علمته من فشله « اني شاكرة حسن صنيعك ياعماه وقد طرأ عليّ امرٌ يدعو الى سرعة رجوعي وعسى ان اتمكن من زيارتك يوماً آخر »

فاكبر الشيخ ذلك التلطف وهمّ بتقبيل يد ابنة المرزبان شكرًا على تلطفها وتنازلها فاجتذبت يدها منه واشارت الى القهرمانة فدفعت اليه بضعة دنانير وقالت له « اعط هذه الدوانق الى الغلام يشتري بها قوساً ونشاباً يلهو بهما » فشكر الشيخ لهما فودعتاه وركبتا وتحولتا عن المكان وقد جاش في ذهن جهان خواطر زادتها قلقاً ولما خلت بخيزران التفتت اليها وقالت بعد تنهد يدل على غيظ تكتمه « والآن ماذا تقولين ؟ » هذا الافشين قد الى فرغانة ولا بد انه نازل عندنا او هو يزورنا غالباً ... »

قالت وما الذي يهمك من زيارته ؟ و... »

فقطعت كلامها قائلة « لا يهمني شيء من امره ولا هو نفسه يهمني ولا جنده يخيفني ولا انا اخشاه على شيء فيّ ... ولكنني اكره مجالسته و و ... » وبلعت ريقها تشاغلاً عن اتمام الحديث ولهت باصلاح عصابتها على راسها وسكتت

ففهمت خيزران موضوع تخوفها ولكنها تجاهلت وقالت « ان جهان العاقلة الحكيمة لايخشى عليها من احد .. وهل انت لا تزالين عازمة على المسير الى النهر ... »

فنظرت خيزران اليها شزرًا وابتسمت كانها تستغرب سؤالها ولسان حالها يقول « كيف اذن ؟ »

وساقتا الجوادين وهما تنظران الى قطيع الخيل حتى توارى وطريقه غير طريقهما وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل واثر الجوع في خيزران واما جهان فتلهفها للقيا

حبيبها شغلها عن كل عاطفة وقفت معظم الطريق ساكتة وهواجسها تتعاظم وتتلاطم وكلما تصورت لقاءها ضرغاماً يخلج قلبها وترى مع ذلك انها ارتكبت شططاً ما كانت لتأتيه لولا غلبة الحب على ارادتها — وكثيراً ما تتغالب الارادة والحب ويكون الفوز له لا لها . وقد تفوز الارادة ولكن الى اجل قريب واذا طالت غلبتها كان الحب ضعيفا سريع الزوال وقد يكون المحب كبير العقل مدبراً حكيماً ويرتكب في سبيل الحب اموراً لا يأتيها غير اهل الطيش وليس استغراب الناس عمله اكثر من استغرابه عمل نفسه لانه يأتي تلك الامور وعقله مشرف على عمله ينتقده ويقبحه وهو لا يرى له سلطاناً على رده والسبب في ذلك ان لذلك العاقل الحكيم قلباً فطر على الحب الشديد فاذا خالف هوى قلبه تألم المّاً لاطاقة له باحتماله وقد يجن او يصعق . وكم من عاشق ذهب ضحية النزاع بين العقل والقلب . فالعاقل اذا احب انتشبت بين ارادته وعواطفه حرب ولا حرب البسوس فاذا كان كبير النفس قوي الجنان جارى عواطفه اعتماداً على عزة نفسه وقوة جنانه فلا يخاف ان يغلب على امره — وكانت جهان كبيرة العقل قوية الارادة ولكنها كانت كبيرة القلب شديدة العواطف وكانت مع ذلك الوفة شديدة التعلق بما تألفه وان تكن لاتحبه على حد قول الشاعر :

خلقت الوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

فكيف اذا كانت تحبه وقد عاشرته اعواماً عديدة حتى تمكن حبه من قلبها . وكانت وبة الجنان ثابتة الرأي في حبه وزادها تعلقاً به تخوفها من الافشين ونفورها من رؤيته فلم ربأساً من السعي في ملاقاة حبيبها وخصوصاً انها ذاهبة بحجة الصيد

الفصل التاسع

ضفاف الشاش

سارتا برهة وهما تنظران الى الافق والجوادان يدلانهما على الطريق المؤدي الى ضفة النهر حتى اطلتا على الماء عن بعد ورأتا الشاطيء فلم تجدا عليه خياماً ولا رأتا جنداً ماشياً ولا راكباً . فاوقفت فرسها والتفتت الى القهرمانة وقالت « هل ترين احداً هناك ؟ »

قالت « كلا يا سيدتي ولكننا على مقربة من الشاطيء فهلم بنا اليه لعلنا نرى فيه اثرًا يفيدنا »

فعادتا الى المسير حتى بلغتا الشاطيء بقرب كوخ تحت شجرة فرأتا آثار اناس كانوا هناك وانصرفوا من برهة وجيزة ... راتا بقية نار لا تزال موقدة وبقايا طعام وفاكهة وعظام . واذا بصاحب الكوخ قد خرج للقائهما ورحب بهما يحسب انهما نازلتان عنده وكانت خيزران قد استدعت فيروز وامرته ان يسال اهل الكوخ عن القوم الذين كانوا هناك فتقدم وحيا الرجل وساله فقال « هم جند من المسلمين عبروا النهر عند الفجر واقاموا هنا الى الظهر فتغدوا وانصرفوا »

قال « وهل عرفت جهة مسيرهم ؟ »

قال « اظنهم يقصدون فرغانة ولعلهم يريدون قضاء النيروز فيها »

فلما سمعت جهان قوله ترجح عندها ان القوم ضرغام ورجاله وندمت على مجيئها الى هناك لاعتقادها ان ضرغامًا اذا أتى فرغانة يذهب توًا الى بيت والدها فلو عادت راسًا فيها ربما لقيته هناك . ومع ذلك اشارت الى خيزران بالرجوع العاجل قبل ان يدركهما الظلام وهم على ميلين من المدينة فحولتا الاعنة واستحثتا الخيل نحو المكان الذي تركوا الركب فيه بباب المدينة

وصلت جهان ذلك الباب واهل الموكب في قلق عظيم لغيابها وكان بعضهم قد خرج للبحث عنها في الجهة التي كانت تصطاد فيها . ولو لم يأتهم الخادم بالوعل المذبوح ويطمئنهم لزادوا قلقًا . فلما راوها مقبلة عرفوها عن بعد من قيافتها ولون فرسها . فلما وصلت رحبوا بها واخبروها ان الطعام مهيأ فاشارت عليها خيزران ان تتناول شيئًا منه فاطاعتها وجلست الى المائدة وتناولت شيئًا من اللحم والقومز والفاكهة على عجل لشدة بلبالها ولحظت وهي تأكل ان بعض الخدم يخاطب القهرمانة همسًا وتوسمت في وجهها تغيرًا فادركت انه يسارها في امر ذي بال فنادتها ونظرت في عينيها نظر الاستفهام فقالت خيزران « انه يخبرني عن مولاي سامان »

فقالت « وهل جاء سامان الى هنا ... واين هو ؟ »

قالت « يقولون انه جاء وسأل عنك ورحع »

فقالت « لابد لسرعة رجوعه من سبب ... وماذا قال ؟ .. »

قالت « لم يقل شيئًا .. » وتشاغلت بازدراد لقمة كانت تمضغها وكادت تغص بها

فتفرست جهان في وجه الخادم الذي كان يخاطب خيزران وقالت « انظه جاء بشأن والدي .. هل به بأس ؟ »

فلم تستغرب خيزران سرعة انتباهها لانها كثيرًا ما كانت تقرأ افكار المتكلمين من مجرد التفرس في عيونهم ولم يسعها الاَّ الاقرار ولكنها اظهرت قلة الاكتراث وقالت « لا بأس على سيدي المزربان بفضل اورمزد (اله الخير عند المجوس) ولكنه قال انه مشتاق الى رؤيتك وقد استبطأك ونحن في يوم النيروز كما تعلمين »

فنهضت جهان للحال واشارت الى خدم المركبة ان يعدادها للذهاب وقالت « لم يبعث والدي اليَّ الاَّ وهو يشكو من اشتداد المرض عليه .. هيا بنا »

وكانوا قد اعدوا المركبة فركبت فيها مع خيزران وسار الموكب توًّا الى القصر وهي تتوقع ان تجد ضرغامًا هناك .

الفصل العاشر

المزربان

اطلت على القصر نحو العشاء فرأت الحديقة تتلالا بما اوقد فيها من المشاعل والمصابيح وقد غصت بجماهير الناس وما يحملونه من الهدايا والتحف الى المزربان على عادتهم في مثل ذلك المهرجان . وكانوا اذا جاؤا في الاعياد السابقة رايت وجوههم تطفح سرورًا وبهجة يضحكون ويقرعون طبولهم ويضربون طنابيرهم اما اليوم فقد أتوا بآلات الطرب لكنهم لم يضربوا عليها تهيبًا لما علموه من اشتداد المرض على المزربان . فراتهم جهان متفرقين زرافات ووحدانًا في طرقات الحديقة وعلى السلم وعليهم البسة العيد من الخز والديباج وكلهم وقوف يتهامسون ويشيرون بعضهم الى بعض وعلامات الاسف بادية على وجوههم . وبباب الحديقة الدواب تحمل التحف من الثياب والاطياب والفاكهة والخدم يشتغلون بانزالها وحملها الى المطابخ

ولما وصلت مركبة جهان الى باب القصر تفرق الناس الى الجانبين واشتغلوا عن احمالهم وسائر احوالهم بمشاهدة بنت المزربان وكانوا يحبونها ويتبركون بطلعتها ويتوسمون برؤيتها خيرًا . فلما نزلت من المركبة هتفوا بالسلام عليها وحالما اطلت عليهم وراوا وجهها سري

عنهم ونسوا ما كانوا فيه من القلق كانهم يحسبون دخولها على ابيها يذهب مرضه و يعافيه

اما هي فحنت راسها للسلام تلطفاً ولم تبتسم كعادتها ولكنهم توهموا انها ابتسمت لهم لفرط ما في محياها من الوداعة واللطف وكانت خيزران قد سبقتها للنزول ومشت الى جانبها والناس يوسعون الطريق ويقفون وقفة الاحترام حتى دخلت الحديقة ماشية بجلال ورشاقة وصعدت السلم وهي بضع درجات تؤدي الى ايوان القصر وهي تتفرس بالوجوه خلسة لعلها تجد ضرغاماً وتخاف ان ترى الافشين هناك فلم تجد احدهما وكان اهل القصر في انتظارها على احر من الجمر فجاوها لاستقبالها . ولم تجد اخاها سامان بينهم فظنته عند ابيها في غرفته فحالما لفيت قيمة القصر سالتها عن ابيها فقالت « انه في خير فشكراً لرحمة اورمزد »

فاطمانت قليلاً ولكنها ظلت سائرة الى غرفة ابيها بين صفوف الجواري والخصيان والكل وقوف اجلالا لها . فمشت في دهليز مفروش بالسجاد حتى اتت غرفة ابيها وقد اشتدت لهفتها لرؤيته وقلبها يخفق خوفاً عليه . وكان بباب الغرفة حاجب من المماليك الخصيان قد اختص بباب المرزبان فلما راى جهان اسرع الى سيده وبشره بقدومها ثم عاد ورفع الستر ووسع لها فدخلت وهي لا تزال بالباس الذي خرجت به للصيد والعصابة على راسها ولكنها حسرت عن وجهها وعنقها فبان اشراقها وقد زادها القلق والتعب هيبة وجمالاً فاقبلت نحو سرير والدها وقلبها يطفح رونقاً وبهاء وعيناها تبرقان ذكاء واهتماماً

وكان المرزبان كهلا لم يتجاوز الستين من عمره ولكن المرض والضعف جعلاه شيخاً هرماً وكانت لحيته ملء صدره وقد ابيض شعرها وعيناه كبيرتان زادهما الضعف غوراً وبان الهزال في وجهه ولم يتمالك شيئاً من هيبته لبريق عينيه واشتد بريقهما لما علم بمجيء ابنته في ابان الحاجة اليها وكان سريره من خشب الابنوس قائماً على اربع قوائم نزل فيها العاج وكان مستلقياً وعلى راسه عمامة صغيرة كالطاقية وفوقه غطاء من الديباج المزركش بالقصب على نصفه الاعلى الذي يغطي الصدر مطرف من فرو السمور الثمين ويداه مرسلتان فوق المطرف وقد حسر عنهما كم القميص فبان هزالهما

فلما دخلت جهان من الباب تحولت اولا الى صنم مذهب قد نصب على عضادة بارزة من الحائط بجانب سرير والدها وبين يدي الصنم شمعة مضيئة غير المصباح المعلق بالسقف فانحنت للصنم تخشعاً على عادة المجوس واسرعت الى والدها حالاً وجثت بجانب السرير واكبت على يده تقبلها وقد اثر فيها ضعفه ولكنها تجلدت تشجيعاً له على جاري عادتها . فابتسمت وعيناها لا تبتسمان ولكنهما تنطقان باجلى بيان عن عظيم احترامها لابيها وشدة حبها

له . اما هو فحالما رآها ابتسم والدمع يتردد في مآقيه وفتح ذراعيه فعلمت انه يريد تقبيلها فالقت نفسها على صدره فقبلها واستنشق رائحة عنقها فاحست بحرارة نفسه وخشونة شعره فاستانست بتلك الخشونة لاطمئنانها على صحته لانها كانت تخاف ان لاتدركه حيًّا

وبعد التقبيل تجلد المزربان وتساعد على الجلوس حتى اتكأ على الوسادة واشار اليها ان تقعد على الفراش بجانبه فقعدت وسالته « كيف ترى نفسك يا سيدي ؟ »

قال « اني بفضل اورمزد الحنون في خير وكنت اخشى ان يتغلب اهريمان (واهريمان اله الشر عندهم) فلا اراك لشدة ماقاسيته من الالم وما كنت به من الضعف ولكنني شعرت بالراحة منذ علمت برجوعك الى القصر وانت تعلمين انك تعزيتي الوحيدة في هذا العالم فلا تفارقي القصر لاني ارتاح لرؤيتك »

فلم تتمالك جهان عن ارسال دمعات دلتا على حنوها وخفقتا لوعة الوالد المريض واثرتا في نفسه . وكانه تصور حال ابنته بعد موته فتغلب عليه الحنو فبكى وهو يحاول اخفاء عواطفه رفقًا بعواطفها فابتسمت هي وتجلدت ولم يفتها ماخالج خاطره فقالت « اشكر لاورمزد الشفوق فاني اراك في صحة وساصلي له والتوسل اليه (واشارت الى التمثال) ان يعافيك ويدفع عنك المرض ولا ريب انه يسمع صلاتي »

فقال « قد ارسلت اخاك سامان في طلب الموبذ (الكاهن) فاذا جاء صلينا معًا »

فاحست جهان براحة عند سماعها اتكل ابيها على الصلاة . وليس للانسان تعزية في مثل هذه الساعة غير الايمان — ان الايمان هو وحده تعزية في الانسان في شدائدهم بعد ان تعجز العقول وتغل الايدي عن درئها . ولولا الايمان لكان حظ الناس من دنياهم التعاسة والشقاء يدلك على ذلك ان الارض لم تخل من دين . وما من امة الا وهي تدين بشيء ترجع اليه في رد القوي عن الضعيف وتتعزى به في المصائب التي يضيع فيها الاجتهاد وتعجز عنها العقول ولاينجع في دفعها مال ولا سلطان ولا يفيد فيها جند ولا اعوان وتقصر عن معالجتها مهارة الاطباء وحكمة الفلاسفة وعلوم العلماء واقلام الكتباء — تلك الحال في الناس لاينجع فيها غير الايمان والاستسلام عن اعتقاد صحيح في الدين . فالمؤمن يتلقى المصائب بالشكر ويستقبل الموت ضاحكا مسرورًا . وليس اضر للبشرية ممن يضع الشكوك في اذهان العامة لانها تقتلهم وتذهب بسعادتهم . وهو نفسه مهما بلغ من شكوكه او انكاره اذا اصيب بضعف او خاف على حبيب نفدت حيلته في اسعافه لا يرى مندوحة عن الالتجاء الى غير الوسائل المعروفة فيستغيث بقوة لا يعرفها ويتوسل الى شخص لايراه ولا يعتقد بوجوده .

وقد اختلف الناس في تفاضل الايمان لكنهم اجمعوا على التدين بواحد منها

فلما سمعت جهان اتكال والدها على الصلاة سكن خاطرها واطمان بالها فقالت « وهل يأتي الموبذ الليلة ؟ »

فتنهد عن سر يضمره وقال « قد بعثت اخاك في طلبه ولا اظنه ياتي به لانه عودني ان لا يطاق عمله ما في نفسي » وكانه ندم على هذا التعريض فاستدرك وقال « ولاباس من تاجيل ذلك الى الغد .. »

وشعرت جهان عند تعريض ابيها باخيها انه غير راض عنه وكانت تلحظ مثل ذلك من قبل وهي لا تعلم سبباً لهذا الفتور وكان المرزبان يبالغ في كتمان ذلك لعلمه بذكاء جهان وسرعة انتباهها وانها اذا اطلعت على ما في خاطره من امر اخيها يتكدر عيشها . فسكتت وسكت والدها حيناً وكلاهما مطرق واخيراً انتبه هو فقال « اذهبي يا جهان يا حبيبتي الى غرفتك و بدلي ثيابك وتناولي عشاءك فاني اشعر براحة وميل الى الرقاد »

فنهضت وهي تقول « الا تحتاج الى شيء اقضيه لك يا ابتي قبل ذهابي ؟ »

قال لا احتاج الى شيء الآن واذا اصبح الصباح وجاء الموبذ علمت شيئاً جديداً ... اذهبي محفوظة محروسة »

الفصل الحادي عشر

سامان

اشتاقت نفسها للاطلاع على ما في خاطر والدها والى ما ستعلمه في الغد ... ولم تستحسن الالحاح عليه في كشفه مراعاة لضعفه وقد سرها انه لم يذكر الافشين ولكنها ودّت لو سنحت لها فرصة تذكر فيها ضرغاماً لعله يذكره بخير وتتطرق الى اطلاعه على رغبتها فيه ولم تكن تتهيب من ذلك التصريح وان خالف العادة المالوفة من سكوت البنات عن مثله لانها كانت لكبر عقلها قد تعودت التكلم بين يدي والدها كما يتكلم الرجال . لكنها اجلت ذلك حتى يأتي ضرغام ويدخل عليه فتتخذ دخوله حجة للكلام

وقبل ان تتحول للخروج دخل الخادم واخبر المرزبان «ان سامان بالباب » فلما سمع المرزبان اسمه انقبضت نفسه ولكنه تجاهل وقال « يدخل »

فدخل سامان ولا يصدق الناظر اليه والى جهان انهما اخوان على انه كان اخاهما من ابيهما فقط لان والدته كانت جارية سندية ماتت عنه وهو في الثامنة من عمره وسافر والده على اثر ذلك الى بلاد القوقاس فلقي هناك فتاة جركسية اعجبه جمالها فتزوجها وجاء بها الى فرغانة فولدت له توامتين هما جهان وطفلة اخرى . وماتت الوالدة والطفلتان صغيرتان فعهد بامرهما الى خيزران ولم يعد يتزوج بعد امهما لانه كان يحبها حبًا شديدًا لفرط جمالها وتعقلها واحب ابنتيها لشدة مشابهتهما لها . ولكنهما لم تبلغا الثالثة من العمر حتى فقدت احدهما وبقيت جهان وحدها فتحولت كل محبته اليها . والمشهور عن فقدان تلك الشقيقة ان فرسًا اختطفها لان في تركستان جماعة من اللصوص يدربون الخيل على اللصوصية فتختطف الاطفال والاحمال باسنانها وتعدو بها . واصبح اهل فرغانة من ذلك العهد يحاذرون التغافل عن اطفالهم خوفًا من اختطافهم . اما المرزبان فنظر في سبب ضياع ابنته نظرًا آخر وتولد البغض في قلبه لسامان من ذلك الحين لانه كتم السبب عن كل انسان

فكان سامان بعيدًا عن جهان خلقًا وخلقة . كان قصيرًا اجرد ليس في وجهه الا شعرات متفرقة في ذقنه . وكان منبسط الخدين يخامر بياض عينيه حمرة كانه مستيقظ من رقاد وهو مع ذلك مضطرب البصر لشدة الحول اذا نظر اليك حسبته ينظر الى السقف او الى الباب ولا يستقر نظره في نقطة . يخاطبك وهو مطرق او يحول بصره عنك واجفانه ترتجف . واذا تكلم اسرع بكلامه وشفتاه ترتعشان كانه في موقف يخاف فيه القضاء عليه بالموت ولكنه كان كثير الدهاء واسع الحيلة شديد الحب لذاته والكره لسواه فلا يحب من الدنيا غير نفسه و يغلب هذا الطبع في الاجرد والخصي

فلما اذن له في الدخول هرول الى سرير والده وعلى رأسه قلنسوة من الخز بلا عمامة وقد ارتدي جبة طويلة تغطي ثيابه واصبح اذا مشى يتعثر باردانها في اثناء مشيه فوقف بين يدي والده وقال « ذهبت الى بيت كرشان شاه (وهو هيكل المجوس بفرغانه) فلم اجد الموبذ هناك وقيل لي انه يعود في الصباح فهل ابحث عنه في منزله ؟ »

فهز المرزبان رأسه متضجرًا وقال « قد كان في امكانك ان تبحث عنه قبل رجوعك ولكن لا باس . . غدا نرسل اليه احد الخدم فانهم كثيرون عندنا . . اذهب الآن »

فرأت جهان في خطاب والدها جفاء زادها شكا في نيته على اخيها ولم تكن سمعته يخاطبه بهذه اللهجة من قبل . اما سامان فتجاهل مراد ابيه واظهر الاستغراب وقال « لم اكن احسبك تطلب حضوره الليلة من كل بد والا لما رجعت الا به . . هل اذهب للبحث عنه ؟ »

وكان المرزبان يسمع كلام ابنه وهو يتفرس في وجهه فلما فرغ من قوله حول وجهه عنه وقال « اذهب ... ولكن لا تبحث عنه فاني احتاج الى الراحة .. »

فاكب سامان على يدي والده يقبلهما فلم يكترث ابوه به ثم خرج وظلت جهان واقفة ونظرت الى ابيها وتفرست في عينيه فرأت فيهما دمعتين تكادان تتحدران وهو ينظر الى الشمعة المضيئة بين يدي التمثال وقرأت حول شفتيه معنى دلها على سر في خاطره يجب افشاءه فقعدت على السرير وتناولت يده فشعرت بعرق بارد ورعدة خفيفة فقالت « هل تريد مني شيئاً يا ابتاه ام اذهب ؟ »

فقال وهو يصلح متكأه « اذهبي يا حبيبتي ... لا ... لا تذهبي .. لا بل اذهبي واستريحي .. »

فقالت « ما بالك ... هل اغضبك اهمال اخي سامان .. سامحه .. انه لم يكن يعلم مرادك .. »

فهز رأسه وقال « انه لم يفهم مرادي ولكنني فهمت مراده .. وقد دنا وقت المحاسبة .... » قال ذلك واستلقى على الفراش وهو يرفع الغطاء الى كتفيه التماساً للرقاد فعلمت انه لا يريد الخوض في الموضوع فساعدته على التغطية وخرجت الى غرفتها وهي في شاغل جديد على اخيها فرأت خيزران في انتظارها فرحبت بها وسألتها عن ابيها فطمأنتها انه مرتاح فقالت بدلي ثيابك واذهبي الى فراشك »

فظلت واقفة ولم تجبها فادركت انها لا تزال عالقة الذهن بضرغام وبهيئه فابتدرتها قائلة « ان الناس قد انصرفوا واطفئت الانوار في الحديقة والايوان ولم يأت ضرغام فالظاهر انه يأتي في الغد .. »

فاقتنعت واخذت في تبديل ثيابها فساعدتها خيزران على ذلك ثم ودعتها وخرجت وارادت جهان ان تذهب الى فراشها واذا بخادمة دخلت وهي تقول « ان مولاي سامان يريد مشاهدة مولاتي .. »

فسرّت جهان لقدومه لانها كانت مشتغلة الخاطر به بعد خروجه من حضرة والده على تلك الصورة فدخل وعليه ملامح الاكتئاب والانكسار فما راته اشفقت عليه فرحبت به وابتسمت له وقالت « لا يسؤك ما سمعته من ابينا فانه قاله عن غضب من ضعفه وضيق صدره .. »

فقعد على وسادة في ارض الغرفة وهو يظهر الاسف والانكسار واطرق ولم يجب

فجلست الى جانبه وتفرست فيه فرات دموعه تتساقط بلا بكاء فاثر منظره في خاطرها وغلب حنوها وطيب عنصرها على قراستها وتعقلها وقالت « مابالك تبكي يا سامان يا اخي »

فرفع بصره اليها وقال وصوته يختنق « تسالينني عن امري وقد شاهدت بعينيك وسمعت باذنيك ... »

قالت « قلت لك ان ابانا فعل ذلك عن مرض لا غرض فانه يحبك وليس له ابن سواك فانت وريث اسمه وانت ... » فقطع كلامها قائلا « ربما كان يحبني ولكنني ارائي سيء الطالع .. لاني ابذل جهدي في طاعته ولم يكن هو كافني استدعاء الموبذ ولكنني رايته يسال عن خادم يرسله في طلبه فقدمت نفسي لهذه الخدمة .. ولا ارى منه غير الاعراض وانا يهمني ان يكون راضياً عني ..»

قالت « انه راض عنك والا فانه سيرضى ... كن مطمئناً »

قال « انا اعلم انك تحبينني وتسعين في استرضاء والدي ولكن يظهر ان آخرين يكيدون لي عنده ... وهو لسلامة نيته ينخدع باقوالهم » قال ذلك ووقف واظهر انه يريد الخروج لئلا يسوءها تمام حديثه فارقفته وقالت « من تعني باولئك الكائدين ؟ »

قال « اعني جماعة تعرفينهم وقد قبضوا على عقولنا وقلوبنا واموالنا باسم الدين »

فعلمت انه يعني الموبذان (الكهان) فقالت « فهمت مرادك واظنك تعمدت الرجوع وحدك الليلة ولم تأت معك بالموبذ ؟ »

فتنحنح وبلع ريقه ثم قال « لم اتعمد ذلك ولكنني لم اجده في بيت النار فلم ابحث عنه في مكان آخر لان دخول الموبذان الى بيتنا يفسده .. »

فقطعت كلامه قائلة « اني لا اوافقك على ذلك لان اولئك الموبذان يصلون لاجلنا وهم بركتنا وليس لنا تعزية بدونهم وارى والدنا يعتقد ذلك فلا يجب ان نخالفه »

فقال « لا أنكر ان بينهم اناساً صالحين ولكن بعضهم من اهل المطامع يريدون كل شيء لانفسهم .. مالنا ولهم الآن وانما يهمني ان لا يكون والدي نقمة عليّ »

فقالت اما هذا فانا ادبره فاذهب الى فراشك مطمئناً »

فخرج وهو مطاطيء راسه يظهر الانكسار وحالما خرج ذهبت هي الى فراشها ولما خلت بنفسها عادت اليها هواجسها ولم تنم تلك الليلة الا قليلاً

الفصل الثاني عشر

ضرغام

واصبحت باكرًا فالتفت بمطرفها وذهبت الى غرفة والدها بثوب البيت فراته جالسًا في سريره وهو احسن حالاً من الامس ففرحت بصحته وسألته عن حاله فقال « قد نمت براحة شكرًا لاورمزد واشعر اليوم بنشاط ... الم يبلغك قدوم الافشين الى فرغانة . فقد كنت على موعد من مجيئه في هذا العيد »

فلما سمعت اسمه اجفلت وقالت « لم اعلم ياسيدي ولعله جاء ولم يات الينا بعد ... »

فقال « من لي بمن يبحث عنه »

فقالت « اذا امرت ان نبعث من يطلبه فعلنا ولكنه لو اتى فرغانة لجاءنا بلا دعوة »

قال « صدقت ... وهل ذهب اخوك ليستدعي لنا الموبذ اليوم »

قالت « انه خرج في الفجر باكرًا للبحث عنه لانه تأسف البارحة لتغيرك .. »

فقال « ننتظر رجوعه ... اسقني شربة ماء من يدك »

فسرها انه يرتاح الى ذلك فاسرعت بنفسها فاتته بكاس فيه ماء وقدمته اليه فشرب وانتعش ودفع الكاس اليها فدفعته الى الخادم وعادت واذا بالحاجب دخل وهو يقول « ان ضيفًا قادمًا من العراق يريد مقابلة المزربان »

فصاح المزربان « هذا هو الافشين » وظهر الارتياح في جبينه ولم يسأل عمن هو قبل ادخاله على جاري العادة فقال « ليدخل » واسفت جهان لوجودها هناك ولو استطاعت ان تشق الحائط وتخرج منه لفعلت ولكنها تجلدت مراعاة لخاطر ابيها فوقفت وقد انقبضت نفسها فتماسكت لئلاً يبدو ذلك عليها

اما الحاجب فوسع الستر فدخل القادم فلما اطل اجفلت جهان وبدت الدهشة على وجهها وانقلب انقباضها الى انبساط وتحول امتقاع لونها الى تورد لان القادم لم يكن الافشين وانما هو ضرغام . فلما رآه المزربان ابتسم له ورحب به وصاح « ضرغام ! اهلا بولدنا ضرغام ظننتك صديقنا الافشين .. هل انت قادم من العراق ؟ »

قال « نعم يا مولاي .. »

قال « وهل اتى الافشين معك »

قال « لم يأت معي ولكنني علمت يوم خروجي من العراق انه عازم على المجيء الى اشروسنة وأظنه أتى »

وكان ضرغام شاباً في نحو الثلاثين من العمر قد كمله الله خلقاً وخلقاً . فكان ربع القامة ممتلئ الجسم عريض المنكبين واسع الجبهة كبير العارضين كث اللحية تلوح البسالة وعلو الهمة في عينيه وتتجلى المروأة وصدق اللهجة حول شفتيه . على رأسه قلنسوة قرمزية حولها عمامة سوداء وقد لبس قباء سماوي اللون تمنطق حوله بمنطقة علق بها سيفاً قبضته مذهبة وتحت القباء سراويل من الخز الارجواني . وفوق القباء جبة سوداء وقامته قامة الابطال اذا وقف حسبته جبلاً راسخاً

دخل على المرزبان في ذلك الصباح وهو لا يعلم ان جهان هناك فلم تكن دهشته اقل من دهشتها

اما هي فلما وقع بصرها عليه لم تعد تعلم كيف تخفي بغتتها واذا استطاعت اخفاء خفقان قلبها وارتعاش اعضائها فكيف تستطيع اخفاء ما ظهر من التورد في وجنتيها او الاشراق في عينيها — وقد نسيت حال والدها من المرض واصبح همها ان تلاحظ ما يبدو منه نحو حبيبها من ترحاب او انعطاف . فلما رأته يرحب به فرحت وكانت بجانب الصنم فاستندت على العضادة وتشاغلت بمسح ما على الصنم من الغبار مخافة ان يبدو ارتعاشها . ولم تغط وجهها لان نساء تلك البلاد لا يعرفن الحجاب يومئذ ولا سيما جهان فقد كانت تستنكف من تغطية وجهها وتعد الحجاب جبناً وضعفاً

اما ضرغام فلا تسل عن سروره بتلك الصدفة . وساعده في اخفاء عواطفه السلام على المرزبان فاكب على يديه يقبلهما . فامر له بوسادة جلس عليها وجلست جهان على وسادة أخرى واخذ المرزبان يسأله عن حاله فقال ضرغام « قد أسرعت في الزيارة باكراً لاكون اول من يهنئك بهذا المهرجان المبارك ولم اكن اعلم أنك منحرف المزاج فارجو ان تكون احسن حالا »

فقال المرزبان « اصبحت مرتاحاً اليوم وقد زاد سروري برؤيتك وانت تعلم حبي لك »

فانحنى ضرغام شاكراً وقد سره هذا الانعطاف ولكن سروره لم يكن شيئاً يذكر بالنظر الى سرور جهان فكانت تسمع كلمات ابيها وقلبها يرقص فرحا فاجابه ضرغام « اني

اشكر لسيدي المرزبان التفاته الى ضيفه وقد تأكدت فضله علي من قبل وانا غرس نعمته »

فتغافل المرزبان على سماع ذلك الاطراء قائلاً « هل انت قادم تواً من العراق ؟ »

قال « نعم يا سيدي وقد وصلت الى فرغانة مساء الامس »

قال « وكيف فارقت القوم هناك ؟ »

قال « فارقتهم في شاغل من المشاكل وكل واحد يخاف صاحبه ويحذره . ويستعين عليه بجند من غير جنسه ... وانما الغلبة اليوم للجند التركي »

فقال « قد علمت ان الخليفة الجديد المعتصم بالله .. لما افضت الخلافة اليه استعان في تأييدها باخواله الاتراك فاعانوه وفي جملتهم الافشين ملك اشروسنة وانت »

فاعجبه إقران اسمه باسم الافشين ولكنه اراد التواضع فقال « ان الافشين عون كبير للخلافة واما انا فلا استحق الذكر »

فقطع المرزبان كلامه قائلاً « ان لك مستقبلاً مجيداً لما اعلمه من بسالتك وعلو همتك .. انك لنعم القائد البطل ولا بد انك ارتقيت في جند الخليفة »

قال « نعم قد اصبحت بفضل مولاي رئيساً للحرس »

قال « رئيساً لحرس الخليفة ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

فبان السرور بوجه المرزبان والتفت الى جهان وهو يظهر الاعجاب بذلك التقدم السريع على عادة المعجب بامرٍ يسمعه ان يطلب مشاركة الحضور في اعجابه فراى جهان شاخصة الى ضرغام تسمع حديثه وتكاد تلتقفه ببصرها . ولو ادنى المرزبان اذنيه من صدرها لسمع خفقان قلبها . اما هي فانتبهت للفتته فحولت بصرها اليه وسايرته بابتسامة اظهرت بها انها مشاركة له بمجاملته وسكتت وعيناها تتكلمان كلاماً لم يفهمه والدها وانما فهمه ضرغام وكان يجيبها بنظرات يوجهها نحوها في اثناء الحديث

اما المرزبان فعاد للكلام عن الجند فقال « اظن في العراق الآن جمعاً كبيراً من الاتراك المجندين »

قال « انهم يزيدون على عشرين الفاً من هذه البلاد وفي جملتهم ابناء ملوك فرغانة الاخاشيد وغيرهم » (١)

---

(١) اليعقوبي

فقال « اظنه رغب في تجنيدهم لعصبية والدته فيهم »

قال « لا يخلو ان يكون ذلك بعض السبب ولكن السبب الاهم ان دولة المسلمين هذه عربية الاصل كما تعلم ولما نهض المسلمون للفتح كان الجند كلهم عرباً ففتحوا الامصار وأسسوا الدولة وظلت الجنود معظمها عربية كل ايام بني امية . ثم قام الفرس بنصرة العباسيين وشاركوهم في تاسيس دولتهم فاشتد ساعد الفرس وضعف امر العرب . وما زال الفرس يتقوون الى ايام المأمون الخليفة السابق فاصبحوا هم اهل الدولة وفي ايديهم الحل والعقد . ولا يخفى عليك انهم ما زالوا من اول الاسلام وهم ينوون رد السلطة الى الملوك الاكاسرة »

الفصل الثالث عشر

سامرّا

فلما وصل الى هنا تنهد المرزبان تنهداً عميقاً فادرك ضرغام انه يأسف لضياع دولة الفرس فتجاهل وسار في حديثه فقال « فلما افضت الخلافة الى المعتصم منذ بضع سنين اصبح خائفاً من الفرس وخصوصا لانهم قتلوا اخاه الامين وسلموا الدولة الى اخيه وابن اختهم المامون على نية ردها الى الفرس بعد موته . فلم ير المعتصم خيراً من ان يستعين عليهم بقوم اشداء لم تذلهم الحضارة فعمد الى تجنيد الاتراك كما علمت .. »

فقال « وهل هم يقيمون في بغداد ؟ »

قال « كانوا يقيمون هناك الى عهد غير بعيد فتضايق البغداديون من جوارهم لانهم كانوا يؤذون العوام في الشوارع . وربما رأوا الواحد بعد الواحد قتيلاً في الاسواق[1] فابتنى لهم المعتصم مدينة سماها « سر من راي » او سامرّا واختط فيها الخطط واقطع القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم . وافرد اهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه وتسامع الناس ان دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها وجهزوا اليها من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس فكثر العيش واتسع الرزق »

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١٥٦ ج ٤

فاعجب المرزبان لهذا التدبير فقال « فهي اذا مدينة كبيرة ... وهل بقي الاتراك على دينهم أم غيروه »

قال « لايخفى على مولاي ان معظمهم يدينون الزرادشتية ولكنهم اصبحوا الآن مسلمين . ومن اغرب التدابير التي دبرها هذا الخليفة لاستبقاء هذا الجند قوياً كما هو الآن انه ابعده عن اهل البلاد ومنع رجاله ان يتزوجوا منهم . ورأى ان يزوجهم ببنات تركيات يستجلبهن بالشراء من تركستان وقد ارسل وفداً لابتياع هؤلاء الجواري فاغتنمت هذه الفرصة واستأذنت في مرافقة هذا الوفد فاتيت الى فرغانة بهذا السبب . »

فقال المرزبان « قد سرَّني قدومك ياولداه وفرحت برؤيتك وكأن اورمزد قد دبر ذلك حتى اراك قبل .... » قال ذلك وتغيرت سحنتهُ وبان الانقباض في وجهه لكنه تشاغل بالسعال ومسح شاربيه وعينيه حتى لا يظهر اجهاشه للبكاء . فاختلست جهان في اثناء ذلك ابتسامة تبادلتها مع ضرغام وقد سرَّها تودد والدها اليه ولكنها تأثرت من يأس ابيها . وهي ارغب في بقائه بعد ما عاينته من رضاه على حبيبها وتأكد عندها انهُ لا يمانع با قترانها به وعزمت على مخاطبته بذلك في أول فرصة

اما المرزبان فاراد ان يشغل ضرغام عما بدا منه فقال « وكيف والدتك المسكينة ؟ »

قال « هي في خير الحمد لله لاتفتر لحظة عن ذكر مولاي وافضاله علينا وتذكر على الخصوص مولاتنا جهان لانها شديدة التعلق بها .. »

فرأت جهان سبيلاً لمخاطبته فقالت « مسكينة آفتاب ... اني احبها محبة الابنة لوالدتها ولم ألق امرأة اطيب قلباً منها وقد كنت كثيرة الاستئناس بها »

وهبَّ المرزبان بغتة كان شيئاً نبههُ فقال « اين سامان ؟ .. هل اتى الموبذ ...؟ ادعوه لي حالاً .. ان سامان لايعول عليه » قال ذلك وهز رأسه هزة كلها معانٍ

فنهض ضرغام وقال « انا اذهب لاستدعائه فاني اعرفه واعرف مكانه »

فقال المرزبان « لاتكلف نفسك الذهاب وفي قصرنا عشرات من الخدم والخصيان ... ولو لم يتصد سامان للذهاب بنفسه لكان لنا غنى بواحد منهم »

فقال « قد احسن سامان بتصديه اجلالاً لامرايه واذا اذن مولاي ان اتولى ذلك انا فعلت »

فقطع المرزبان حديثه قائلاً « كلاَّ لا تذهب انت »

فقال « تأذن لي ان ابعث خادمي بل رفيقي وردان فاني لم اكل اليه امرًا الاَّ انفذه

ولو ركب اليهِ على رؤوس الاسنة » قال ذلك وخرج وصاح « وردان »

فاتاه رجل في نحو الاربعين من العمر خفيف العضل خفيف اللحية يظهر من بروز انفه وسائر ملامحه انه ارمني . وكان قد دخل في خدمة ضرغام بسامرًا من عهد قريب ولكنه اكتسب ثقته سريعاً لما آنسه ضرغام من علو همته ونشاطه وشدة حبه له فكان يعامله معاملة الرفيق وابى ان يسميه خادماً لانه آنس فيه من عزة النفس والانفة ما لا يعهده بالخدم فاتخذه رفيقاً لهُ واصبح يصطحبهُ باسفاره — فلما جاء وردان وقف بين يديه وعليه عمامة مستديرة وسراويل قصيرة وفروة من جلد الغنم فقال له « هل عرفت بيتَ النار الذي مررنا به مساء الامس وعليه الانوار والرايات ؟ »

قال « نعم »

قال « اذهب الى هنـاك واسأل عن الموبذ وقل لهُ ان المرزبان يطلب حضورك في هذه الساعة ولا ترجع الاَّ وهو معك »

فأشار مطيعاً وخرج

اما جهان فأصبحت شديدة الرغبة بخلوة تحادث فيها ضرغاماً وتشاكيه الغرام وكانت تشعر ان رأسها مملوء بالاخبار التي يلذ لها كشفها لهُ على عادة المحب اذا فارق حبيبه فانه لا يرى شيئاً او يسمع خبرًا او يخطر له خاطر الاَّ ويشعر بميل لملاقاة حبيبه ليشركه في ما رآه او سمعه او خطر له وقد يكون ذلك سبباً في زيادة الشوق فيسرع في اللقاء واذا التقيا وفرغا من التشاكي والتعاتب عمـدا الى مبادلة الاحاديث وقص الاخبار وبث الاسرار كأن الحب امتزاج الارواح فيستلزم امتزاج الشعائر والافكار

فلا عجب اذا اشتاقت جهان لمجالسة ضرغام بعد ذلك الفراق الطويل ولا حاجة الى القول انهُ في مثل شوقها ولهفتها . وكانا في حيرة كيف يتسنى لهما ذلك . فاذا بالمرزبان ينادي جهان قائلاً « مري المهتر — وهو قيم الدار — ان ينزل حبيبنا ضرغاماً في القصر ويهيء لهُ ما يحتاج اليهِ ومتى فرغ من ذلك مر به بالمجيء اليَّ فاني احتاج الى الاختلاء به حيناً بينما يأتي الموبذ »

فسرَّها هـذا الطلب وخرجت لاجراء ما امر به والدها وقد سبقها ضرغام الى قاعة خصوصية تعوَّد ان يراها جالسة فيها

الفصل الرابع عشر

بيت النار

اما وردان فانهُ خرج باسرع من لمح البصر ولم يكن فيه شيء من طبائع الخدم الاَّ الطاعة العمياء لضرغام واما ما خلا ذلك فقد كان فيهِ مناقب كبار الرجال وشعر ضرغام بذلك فعامله معاملة الصديق



بيت النار — كاران شاه

وما خرج وردان من قصر المرزبان حتى رأى الناس يتزاحمون ببابه بافراسهم وهداياهم وعليهم اثواب العيد وهم ينتظرون الاذن بالدخول فلما راوه خارجاً بلهفة وعجلة جعلوا يتساءلون عن سبب عجلته وتجاسر بعضهم فسالهُ عن حال المرزبان فلم يجبه وظل سائرًا حتى تجاوز القصر الى الشوارع وقد تزاحمت فيها الاقدام وتصادمت المناكب والناس فى شاغل من امر العيد بين راكب وماش زرافات ووحدانًا يحملون الفاكهة والحلوى ويتبادلون عبارات المعايدة . فلم يهمه شيءٌ من ذلك وظل سائرا حتى اطل على كاران شاه (بيت النار) والاعلام تخفق على سورهِ وحولهُ مقاصير تعدُّ بالعشرات تقيم بها السدنة والخدم والقوَّام

وقد تزاحم الناس ببابه وهو مزيّن بالريحان . فتظاهر وردان انه واحد من عبدة النار وقد جاء لاداء فريضة الزيارة فدخل الى صحن ذلك المعبد فرآه مفروشاً بالديباج والحرير يحيط به اروقة مستديرة قد علقت فيها الستائر المطرزة وبعضها مرصع بالحجارة الكريمة

واتصل من ذلك الصحن الى باحة المعبد حيث يقيمون الصلاة فاذا هي بقعة مربعة في وسطها بناء معقود شكلهُ مربع مستطيل في وسطه شبه الباب يصعد اليه بخمس درجات (انظر الشكل) . وحول الباحة احواض ملتصقة بالجدران قد اوقدوا فيها النيران واحرقوا البخور فتصاعد دخانها في الفضاء وعلى زوايا القبة اجران تصاعد دخانها كما تصاعد عن مثلث من امثالها على اعلى السور . وفي بعض جوانب الباحة نحو اليسار وعاء مستدير مملوء بالنفط قد اشعلوه من فوهة فيه فتصاعد اللهيب كالمزراق واصطف الناس حولهُ بين جلوس ووقوف وهم يتخشعون او يصلون . ورأى رجلاً واقفاً على الدرج ظنهُ الموبذ فهمّ بالذهاب اليه فاعترضهُ رجلٌ على رأسه قلنسوة مستطيلة هرمية الشكل عرف من منظرهِ انهُ احد السدنة فلما رآه السادن اعترض سبيله فوقف وردان فقال السادن « ماذا تريد ياسيدي ؟ »

قال « اريد مولانا الموبذ .. اليس هذا هو ؟ »

قال « كلاّ . ان الموبذ في شاغل الآن »

قال « واين هو ؟ »

قال « مالك ولهُ ؟ . اذا شئت الصلاة او البركة فهذه النار في الاجران »

قال « بل انا اريد الموبذ »

فحول الرجل وجهه عنه وهو يقول « انك لن تظفر برؤيته الا بعد الصلاة »

فاستمهله قائلاً « لا تغضب يا سيدي فاني غريب وقد أتيت من خوكند بالامس وعهدي بكم تكرمون الغرباء »

فخجل السادن ووقف له وقال « الم تأت للصلاة او الاقتباس ؟ فهذه النار المقدسة فاقتبس ما شئت »

قال « بل انا اريد الموبذ »

فتقدم السادن وهو يدني فاه من اذنه ويقول همساً « ان الموبذ في خلوة مع بعض الكبراء في هذه الحجرة (وأشار الى حجرة نحو اليمين) فانتظر خروجه او افعل ما شئت »

فمد وردان يده الى جيبه واخرج دنانير دفعها اليه وهو يبتسم ويقول « الا

تأذن لي ان ادنو من الحجرة اصلي بجانبها استئناساً بمولانا الموبذ »

فتناول السادن الدنانير وقال « افعل ولكن احذر ان يشعر بك احد »

فقال « طبعاً » وهرول نحو الحجرة على نية ان يدخل على الموبذ بحيلة و يبلغه امر المرزبان فلما وصل الى بابها وقع نظره على الموبذ ومعه رجلان بلباس فاخر عرف احدهما وهو الافشين اما الاخر فحالما وقع بصره عليه اختلج قلبه في صدره لانه يشبه رجلاً في نفسه منه امرٌ عظيم فتفرس فيه فاذا هو الرجل بعينه فاستغرب وجوده هناك وهو اصبهبذ (نائب) بابك الخرمي وعهده انه في اردبيل بارمينيا فما الذي جاء به الى فرغانة و بين البلدين سفر طويل . فبعد ان كان وردان مسرعاً لمقابلة الموبذ تراجع ثم وقف وهو يتظاهر بالصلاة والدعاء واعمل فكرته في سبب هذه الخلوة في بيت نار المجوس بين الافشين قائد جند المسلمين ونائب بابك الخرمي المجوسي الدٌ اعداء المسلمين . فحدثته نفسه ان يستطلع ذلك السبب بالحيلة فتحول الى فرجة تؤدي الى مستتر وراء الحجرة فيه نافذة تشرف على داخلها بحيث يرى الجلوس فيها وهم لا يرونه . فتربص واخذ يتفرس في الجماعة فرآهم جالسين على بساط من الديباج — الموبذ بقلنسوته وقبائه الارجواني و بين يديه الافشين بعمامته حول القلونسة والاصبهبذ بالقلنسوة بلا عمامة . وكان يعهد الافشين يلبس الجبة السوداء شعار العباسيين فاذا هو بقباء ارجواني يلبسه كبار المجوس في ذلك العيد و يعرف الافشين مسلماً رآه يصلي بالمسجد في سامرّا غير مرة فما الذي جعله يصلي في بيت النار ولم يستغرب مجوسية الاصبهبذ لعلمه انه لم يعتنق الاسلام . فقعد واظهر انه يتلو دعاء او صلاة واصاخ بسمعه الى ما يقولون فسمع الموبذ يقول « لا بدٌ لنا من الفوز بعون اورمزد وانما يجب علينا ان نصبر »

فقال الاصبهبذ « اننا صابرون ولا اظن اصطبارنا يطول على شرط » وقطع كلامه وهو يبلع ريقه

فقال الافشين « لا باس من الصبر وان طال ولكن لا ينبغي لصاحبك بابك ان لا يغير اعتقاده فيّ »

فقال الاصبهبذ « انه لم يغير اعتقاده فيك ولكنه رآك اطلت التقرب من اولئك اليهود الذين يسمون انفسهم مسلمين (١) اوعربًا وقد ارسلني اليك للاجتماع بك في هذا المهرجان على جاري العادة لاذكرك بعهدك بين يدي حضرة الموبذ »

فضحك الافشين وقال « ربما ظن صاحبك انني غافل عن العهد الذي عقدناه هنا

(١) ان المجوس المعادين للمسلمين كانوا يسمونهم يهودًا (ابن الاثير)

منذ بضع سنين [١] ومعنا المازيار صاحب طبرستان اما انا فاسأل حضرة الموبذ هل اقمت بعهدي ؟ »

فاشار الموبذ براسه ان « نعم »

فاستطرد الافشين كلامهُ قائلاً « ان هذه النار تشهد على عهدنا .. قل لاخي بابك انني لا ادخر وسيلة في جمع المال وارساله ولا اخطو خطوة في حرب او سلم لدى المعتصم الا اقتضيت عليها مالاً ارسله الى خزينتنا في اشروسنة . واما المازيار فانهُ مقيم على العهد ولم يحضر معنا هذا العام لاسباب خصوصية لكنهُ كتب اليَّ يستحثني على الثبات وانه اذا تحركنا كان هو وطبرستان كلها معنا فانهُ اشد غيرة منا على التخلص من هذه الدولة الظالمة والرجوع الى دولة الفرس المجيدة »

فقال الاصبهذ « ذلك هو عهد مولاي فيك ولكنه رآك اطلت الرضوخ لحكم اولئك اليهود كانك اصبحت واحداً منهم حتى تصديت لحربنا غير مرة »

فقهقه الافشين وهزَّ رأسه قائلاً « المثلي يقال ذلك ؟ وهل يخفى قصدي على اخي بابك ؟ ألا يعلم اني اذا خرجت لحربه انما افعل ذلك اخفاء لغرضي ولكنني اترقب الفرص فاذا سنحت فرصة مناسبة انبأته بها وقمنا جميعاً قومة رجل واحد فننال امنية قصَّر عن نيلها ابو مسلم الخراساني وجعفر البرمكي والفضل بن سهل وغيرهم من دعاة الفرس .. الا تعلم ان هؤلاء انما افسدوا تدبيرهم بالعجلة ؟ ومثل هذا الامر يتطلب التؤدة والصبر واغتنام الفرص »

فالتفت الموبذ الى الاصبهذ وقال « صدق الملك بما يقول انهُ رجل محنك فقل لولدنا بابك ان يتربص معنا واورمزد يساعدنا فقد نبئت بحلم رأيته بالامس ان وقت الفوز قد دنا فلا ينبغي ان تتغير نياتكم فيضيع سعينا سدى »

وكان وردان يسمع ذلك الحديث وهو يرتعد من الدهشة لما شاهده وسمعهُ فقد رأى قائد جند الخليفة يكتم المجوسية ويمالىء عدو المسلمين على الايقاع بالدولة عند سنوح الفرصة . واحسَّ مع دهشته انهُ اكتسب سلاحاً قوياً يجردهُ عند الحاجة . ثم راى الموبذ يتحفز للنهوض ونهض الافشين ورفيقه وتلثما اخفاء لحقيقة حالهما فتحول وردان باسرع من لمح البصر حتى وقف في مكان من صحن الهيكل يلتقي فيه بالموبذان عند خروجه

(١) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار

وكان الناس مشتغلين بالاقتباس والدعاء فانبأهم السادن بخروج الموبذ فتهيأوا للتبرك بطلعته ووقف وردان بجملتهم بقلدهم بحركاتهم فاذا بالموبذ يخطر بثوب يبهر البصر بالوانه وتطريزه وفي عنقه عقد من الجوهر وبيده صولجان قبضته مذهبة وهو قابض عليها يضرب الارض بعصاه ويمشي مشية الخيلاء والناس يطأطئون له رؤوسهم

فلما رآه وردان يقترب منه تقدم نحوه واكب على يده يقبلها وهو يقول « ان مولانا المرزبان يدعوك اليه الساعة لامر ضروري »

فعلم انه يعني والد جهان لانه وحيد هناك فقال « هل اشتد المرض عليه ؟ »

قال « لا ادري ولكنه الحّ علي ان تتفضل بزيارته حالاً وامرني ان لا اعود الا وانت معي »

قال « اني ذاهب انتظرني خارجاً »

فخرج وردان وهو يحاذر ان يراه الافشين لئلا يدرك انه اطلع على شيء من سره . ولما صار بالباب رأى مركبة قد شدّ اليها فرسان عليهما العدة المذهبة فعلم انها معدة للافشين والناس قد وقفوا ينظرون اليها وهم يتساءلون عن الضيفين اللذين احتفل بهما الموبذ هذا الاحتفال

وبعد هنيهة خرج الموبذ فركب في العربة وركب الافشين الى جانبه وهو ملثم واشار الى وردان فركب على احد الفرسين وساروا يطلبون قصر المرزبان

الفصل الخامس عشر

التشاكي

تركنا ضرغاماً في انتظار جهان بغرفتها واهل القصر لا يرون باساً من اجتماعهما نظراً لما يعلمونه من منزلة ضرغام عند مولاهم ولأن جهان لا تحتجب عن الرجال . جلس ضرغام على كرسي في بعض جوانب الغرفة ولبث في انتظار حبيبته وهو على مثل الجمر وقد همّه ما شاهده من مرض ابيها وتشاءم من ذلك لكن اشتغاله بالشوق لجهان وشدة رغبته في مقابلتها انسياه كل شاغل

وما عتم ان سمع صوتها بجانب باب الغرفة تكلم المهتر وتوصيه بما امر به ابوها فخفق قلبه

ثم دخلت فلما اقبلت عليه خف للقائها وكلاهما يبتسم وقلبهُ يخفق وقد نسيا الدنيا ومصائبها كانهما انتقلا من عالم الشقاء الى عالم الحب مقرّ السعادة والهناء — واذا اعجز الفلاسفة تمثيل الفردوس بما يدنيهِ من ادراك البشر فلا يمثل حال المقيمين فيه مثل سعادة حبيبين تصافيا وصفا لهما الزمان وخلا لهما الجو فاجتمعا وطفقا يتشاكيان لا يزعجهما رقيب ولا يخامر قلبيهما شك او غيرة — تلك هي الجنة لو لا ما ينتابها من القصر او يعرض لاصحابها من طوارق الحدثان

فلما رأت جهان حبيبها واقفاً لاستقبالها هشت لهُ ومدت يدها لمصافحته فمد يده وقبض على كفها وقلبه يضحك وعيناه تبرقان . واذا كان وهو الشجاع الباسل الذي لا يهاب مواقف القتال لم يتمالك عن الرعدة فكيف هي مهما بلغ من رباطة جاشها وتعقلها فانها لا تخرج عن طبيعة المرأة الحساسة . وفي مثل هذا الموقف عذرٌ للمحب على ما يتولاه من لواعج الغرام عند ذلك اللقاء بما يجري في عروقه من المجاري الكهربائية — وابتدأ ضرغام بالكلام قائلاً « لقد اطلت الغيبة عليك يا سيدتي »

فاجتذبت يدها من يده ونظرت في عينيه نظرة المحب العاتب وقالت « لا تقل سيدتي بل ... » وتشاغلت عن اتمام الكلام بالقعود وهي تدعوه اليهِ فقعد كل منهما على كرمي وادرك هو مرادها فقال « كيف لا ادعوكِ سيدتي وانت جهان عروس فرغانة وبنت المرزبان وانا ضرغام اليتيم ابن آفتاب الارملة المسكينة »

فقطعت كلامهُ قائلة « بل انت سيدي ومولاي ... ليس لانك رئيس حرس الملك او قائد جند الخليفة ... ولكنك سيدي لانك شهم باسل ... لا ... ولا هذا ايضاً يزيدك رفعة في عيني ... اني اشعر بشيء آخر يعجزني التعبير عنه . اشعر بسلطة لك عليَّ ... اذا لم تسعفني بالتعبير عنها كنت حزينة بائسة » قالت ذلك وتوردت وجنتاها وغلب عليها الحياء فعلم انها تعني الحب وان الحياء يمنعها من التصريح فقال « ان العامل الذي تحسبين ضرغاماً المسكين اصبح به سيداً فلا عجب اذا جعل الاميرة جهان الهاً .. فانا اذاً عبدك يا جهان . »

فقالت « قلت لك اني عاجزة عن اداء ما في خاطري او بيان اسبابه وانما اعلم ان منزلتك عندي لا تعلوها منزلة أحد على وجه هذه البسيطة ... ويهمني الآن ان لا نضيع الوقت سدًى اذ اخشى ان ياتي الموبذ فيدعوني ابي اليه ...» ولما ذكرت والدها تذكرت حالهُ فتنهدت ثم استدركت فقالت « ان وقتنا ثمين يا حبيبي ... يا حبيبي ... سامحني

اذا دعوتك بهذا اللقب قبل ان تدعوني انت به ... آه من سلطان الحب »

فقال وقد هاجت اشجانه « لا يحق لاحد ان يبدأ بهذا التصريح سواك وقد فعلتِ حتى يكون لك الفضل في كل حال ... وهل اجسر انا ان ادعوك به قبل ان اسمعه من فيك ؟ .. فاحمد الله على ذلك ... حقّ لي الآن ان اسميك حبيبتي .. آه ما اشهى هذا اللفظ في فمي وما اسوغهُ على قلبي .. وكم كررته في خلواتي وكم تمنيت ان اسمعه من فيك ... وقد سمعتهُ .. فهل في العالم رجل اسعد مني ؟ .. »

فتشاغلت باصلاح شعرها واطرقت وهو لا يحوّل نظره عنها وكانهُ يهمّ ان يضمها بجفنيه تهيباً من ان يقبض عليها بذراعيه فلما رآها مطرقة وقد بدا الاهتمام في محياها اختلج قلبهُ في صدره وتوهم انها ستخطف من بين يديه فقال « ما بالك مطرقة يا حبيبتي ... جهان ما بالك ؟ »

فرفعت بصرها اليه وابتسمت وقد فهمت ما خالج خاطره وقالت « لا تذهب بك الخاوف الى مكان بعيد .. اني لم اسمك بذلك الاسم وانا اخاف احدًا او اخشى باساً ولا سيما بعد ان آنستُ من والدي ما آنستهُ من الارتياح لك والتعلق بك ... ولولا مرضه .. آه لولا مرضهُ ... » وسكتت

فقال « ارجو ان يشفى قريباً » ومكث وعيناه تتفرسان في عينيها وكل منهما يقرأ فكر صاحبه ولعلها قرأت اكثر مما قرأ هو فقالت « ضرغام ... لا ينبغي ان يغلب الضعف على جهان حتى تخفي احساسها عن حبيبها وتحمله على الشك في شيء من امرها . قد تعاشرنا اعواماً وعرف كل منا صاحبه حتى امتزجت روحانا فما في الارض قوة تستطيع التفريق بيننا واراني غير قادرة على الاستقلال بفكري او حياتي عنك . فانا اشعر انك مني وانا منك . فاذا فكرت في شيء رأيت فكري يمرّ قبل بروزه على تذكارات انت قوامها واذا تخيلتُ حادثة كان خيالك نصب عينيّ يحول بيني وبينها ولا ترتسم في عقلي صورة الا وفيها شيء من صورتك . فهل بعد ذلك يستطيع البشر ان يفصلوا بيننا واذا استطاعوا التفريق بين هذين النوعين الباليين فهم عاجزون عن الفصل بين روحينا وفكرينا .... ولكننا مقبلون على أمر عظيم .. فاذا تجاوزناه .. » وسكتت وحولت وجهها عنه خشية ان يبدو له ما يتردد في ما قيها

اما هو فاسكره تعبيرها واعجزه ما رآها فيه على انه لم يفهم مرادها فقال « وما الذي يخيفك ؟ ... لا اعهدك تخافين ولك من تعقلك وثبات جأشك حصن حصين . وهذه

روحي بين يديك ارمي بها من تشائين »

قالت وهي تبدي الاهتمام « سلمتْ روحك يا ضرغام .. اني لا أخاف شيئاً اذ ليس في الارض قوة تستطيع ان تبعدني عنك ... وكنت أحاذر ان أؤانس من والدي تغيراً او فتوراً فذهب حذري اليوم ولكنه مريض . فعساه ان يشفى قريباً »

قال « يشفى باذن الله .. وهل تخافين شيئاً آخر .. »

قالت « اتوقع اموراً كثيرة تخيف غيري ولكنني لا أخافها لاني اعدها اعراضاً وانت الجوهر فاذا كنت لي فقد ملكت الدنيا وما فيها ... اعذرني على هذا التصريح وخاطبني بمثله فاني لا احب التكتم والتردد .. »

فقال بلهفة وعزم ثابت « تريدين ان اصرح باني احبك او اني اترك الدنيا لاجلك فهذا لا حاجة بي الى ذكره والظمآن لايُطلب منه الاعتراف بحاجته الى الماء والتعس لا يسأل هل يتمنى السعادة . وانا بدونك ظمآن بلا ماء وحيّ بلا سعادة وانت سعادتي وحياتي وانت كل شيء .. »

فابرقت عيناها وسرّي عنها وقالت « اذا كان هذا عزمك فهو كل ما ابغيه ... اني اسمع صوت سامان في الدار ... وربما دخل علينا فيقطع حديثنا .. فنحن على هذا العهد وسأغتنم ابلال والدي فاخاطبه بهذا الشان ثم اخبرك بما يكون » قالت ذلك وتحفزت للوقوف واذا بخيزران قد دخلت وفي وجهها انقباض ولهفة فنهضت جهان لملاقاتها فابتدرتها خيزران قائلة « ان سامان داخل على مولاي المرزبان »

قالت « وهل أتى الموبذ معه ؟ »

قالت « كلاّ .. »

فهزت رأسها وحرقت اسنانها ثم قالت لها وهي تشير الى ضرغام « هل رأيت ضرغاماً »

قالت وقد علاها الخجل « لم اره يا سيدتي ... اعذريني لدخولي بهذه اللهفة فقد شغلت بامر سامان لعلمي ان والدك يستاء من دخوله عليه وقد اوصى ان لا يدخل عليه احد ... » وتحولت الى ضرغام فحيته باحترام واكبت كانها تهمّ بتقبيل يده »

فردّ التحية وابتسم لها وكأن يستانس بها لعلمه بحبها لجهان وقال « مالي اراكم تخافون دخول سامان على والده »

قالت جهان « لان والدي تغير عليه امس لاهماله امر الموبذ بعد ان انفذه في استقدامه

غير مرة فلم يستقدمه » قالت ذلك وخرجت وهي تقول « استأذنك في الذهاب الى والدي لحظة ثم اعود »

الفصل السادس عشر

الخلوة

فلبث ضرغام في مكانه وسارت جهان حتى اتت غرفة والدها فرأت سامان واقفاً بالباب والحاجب يمنعه من الدخول وهو يحاجه بغضب فحالت بينهما وقالت « ما بالك يا اخي ؟ »

قال « ان هذا الرجل يمنعني من الدخول على والدي »

قالت « لا تغضب فان والدنا في فراشه وقد امرني بالخروج وادخل المهتر يخاطبه ببعض الشؤون .. هل رايت الموبذ ؟ »

قال « لا .. لم اجده »

قالت « الا تعلم ان رجوعك بدونه يغضب والدنا »

وبينما هما يتحاجان سمعا المرزبان يقول من الداخل « لا تدخلوا عليّ سامان .. ادخلي يا جهان »

فالتفتت الى اخيها وابتسمت وقالت له بصوت خافت « اذهب يا اخي الى الايوان ولا تكدر والدنا وسأعود اليك حالاً فلم يسعه الا الطاعة فتحول ودخلت هي فوجدت القيم جاثياً بين يدي والدها وامامه اوراق ودفاتر وقلم ودواة ورأت والدها جالساً في السرير وقد تغير وجهه وبدا الاهتمام في عينيه فلما دخلت رفع بصره اليها وابتسم لها رغم ما يعلوه من الغضب فبشت له ودنت منه فقبلت يده وقالت « كيف تشعر الآن يا ابتاه ؟ ارجو ان تكون مرتاحاً »

فضمها اليه وقبلها وشمها واطال معانقتها حتى احست بدمعة حارة سقطت على عنقها فاقشعر بدنها وما صدقت انه اطلقها من بين يديه حتى نظرت في وجهه فرأت الدمع في عينيه فأثر منظره فيها وكانه خاف على عواطفها فقال وهو يتكلف الابتسام « انتي في خير ... لا تخافي ... ساعمل كل شيء في سبيل راحتك .. اجلسي » واشار الى القيم

فخرج واغلق الباب فاعادت نظرها الى ما بين يدي والدها من الاوراق والدفاتر ولم تستحسن ان تساله عنها

اما هو فتثاءب واشار اليها ان تساعده على التوسد فاعانه فاستلقى واتكأ على الوسادة وقال « قد علمت ان اخاك سامان عاد هذه المرة ايضاً وحده .. فانه لا يرى له مصلحة باستقدام الموبذ ... لا باس من ذلك . »

فقالت « ان ضرغاماً انفذ خادمه في استقدامه ولا يلبث ان ياتي كن مطمئنا . » وقد ذكرت ضرغاماً عمداً لترى ما يبدو من والدها

قال « ان ضرغاماً رجل كريم النفس وقد سررت بلقياه وهو جدير ان يكون اخاً لك وليس سامان الشرير »

فسرها اطناب والده بحبيبها وهمت ان تفاتحه بشانه واذا بالحاجب قد دخل وهو يقول « ان الموبذ بالباب ومعه الافشين »

فلما سمع اسم الافشين اشرق وجهه وبغت وقال « والافشين ايضا ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

اما جهان فلما سمعت اسم الافشين انقلب فرحها الى انقباض ووقفت عن غير عمد منها كانها تحاول الفرار من رؤية ذلك الرجل ولكنها تجلدت ووقفت تنتظر امر والدها فاذا هو يقول لها « لا باس من بقائك هنا اذا شئت والا فلك الخيار »

قالت « اذن لي في الخروج »

قال « اخرجي وكوني مطمئنة » فخرجت من باب سري في تلك الغرفة ثم التفت المرزبان الى الحاجب وقال « يدخل الموبذ والافشين »

فدخل الموبذ والافشين وراءه وتحول الموبذ أولا الى الصنم فوقف بازائه وتمتم وانحنى وفعل الافشين نحو ذلك

فاشار المرزبان اليهما بالجلوس فجلسا والمرزبان يرحب بهما ووجه كلامه الى الافشين قائلاً « لقد ابطات عليّ حتى اشتد شوقي اليك »

فقال وهو يحكّ ذقنه وقد شاب معظمها لانه كان في نحو سن المرزبان « وقد كنت في شاغل خصوصي ولم اصل الى فرغانة الا اليوم وفي حال وصولي اتيت اليك . كيف انت . »

قال « اني كما ترى . وقد جئتَ في ابان الحاجة اليك » ثم التفت الى الموبذ وقال

مع الاحترام « ارسلت في طلبك غير مرة فلم تأت »

قال « لم يأتني احد قبل الآن »

قال « ارسلت اليك ابني سامان امس واليوم فقال انه لم يجدك في كاران تشاء »

فاستغرب الموبذ كلامه وقال « اني لم افارق المعبد منذ ثلاثة ايام بسبب المهرجان وتقاطر الناس الى فرغانة للاقتباس وايفاء النذور .. وكيف تدعونني اليك ولا احضر ؟ بل كيف يسأل عني في المعبد ولا يخبرونني .. لا شك ان ولدنا سامان لم يسال عني او لعله سال غير العارفين »

فحرق المرزبان اسنانه غيظاً وقال « بل هو لم يسأل عنك .. ولا ادري غرضه من ذلك او لعلي ادري ولا اقول .. وفي كل حال فقد آن وقت المكافأة . وهذا اخي الافشين شاهدٌ » ثم صفق فدخل الحاجب فقال له « لا تأذن لاحد من الناس اياً كان ان يدخل علينا واذا سألك احد الاستئذان .. فلا تستاذن اغلق الباب وراءك »

فاشار الحاجب مطيعاً وخرج واغلق عليهم الباب

الفصل السابع عشر

الوداع

اما جهان فغادرت الغرفة ورجلاها تصطكان انفعالاً من رؤية الافشين بعد ان رأت اهتمام والدها باعداد الورق والدواة والقلم وسارت توًّا الى ضرغام فرأته واقفاً بالايوان وحده فحالما وقع بصرها عليه سري عنها ونسيت هواجسها وكانت تفكر باخيها وتنوي الاستفهام عنهُ فانساها ضرغام كل شيء

اما هو فحالما رآها مقبلة تحوَّل نحوها وسألها عن حال ابيها

فقالت « انهُ احسن حالاً من الصباح وقد ذكرك ذكرًا حسناً وقال انهُ كان يتمنى ان تكون انت في مكان اخي سامان ... ولكنك ستكون فوق مكانهِ » قالت ذلك ونظرت اليه نظرة اغنتهُ عن شرح كثير

فقال لها وعيناه تضحكان « اشكرك على حسن ظنك يا جهان .. وكيف تركت والدك الآن ؟ »

فتنهدت ثم قالت « الم تعلم بمجيء الافشين والموبذ ؟ »

قال « هل اتيا ... ؟ والافشين ايضاً ؟ اني لم اشاهد وردان بعد »

قالت « نعم اتيا معاً .. هذا الذي كنت اتخوفه .. ولكن لا بأس الآن . طالما كان ابي احسن حالاً »

قال « واين هما ؟ »

قالت « هما عنـد والدي وقد طلب الخلوة بهما وخيرني بين البقاء معهـم والخروج ففضلت الخروج للتخلص من رؤيتهما ولكي اشاهد حبيبي ضرغاماً »

قال « هما اذاً في خلوة معه واظن هذه الخلوة ستطول فهل تأذنين بانصرافي ثم اعود اليك بعد هنيهة ؟ »

قالت « الى اين تنصرف وتتركني ؟ »

قال « اذا شئت بقيتُ طوع ارادتك ولكنني اذا ذهبت لا أطيل الغياب »

قالت « اذهب بحراسة اورمزد ولا تبطيء »

فلما سمعها تذكر اورمزد قال « لقد اذكرتني شيئاً لا بأس من سؤالك عنه فهل اقول؟ »

فتفرست في عينيه فقرأت فكره وقالت « اظنك ستسألني عن اورمزد وانت تدين بسواه اليس كذلك ؟ »

فدهش لفراستها وقال « نعم .. هذا سؤالي »

قالت « اني اكون طوع ارادتك ادين بما تدين به لاني لا احب فراقك في الدنيا ولا في الآخرة »

فاعجب لتعلقها به فابتسم ثم قال « ولي سؤال آخر »

قالت « قل ما بدالك »

قال « انت تعلمين تعلق والدتي بالاقامة في العراق لسرّ لا اعلمه »

فقطعت كلامه وقالت « اني اكون حيث تشاء انت فان الدنيا كلها حيث تقيم ولا يهمني شيء مما لنا في فرغانة او غيرها »

فقال « قد نلت الآن ما اتمناه وقبضت على السعادة بيـدي فهل تأذنين بانصرافي لأرى الوفد الذين صحبتهم فادبر سبيلاً للتخلص من صحبتهم ثم آتي اليك ؟ »

قالت « اذهب بحراسة الله .. ها اني قد جاريتك منذ الآن » فضحك وودعها وخرج بعد ان بعث من يستقدم وردان

الفصل الثامن عشر

الاحتضار

فلما رأته خارجاً تخيلت قلبها يخفز للذهاب في اثره فتماسكت واسترجعت رشدها وفكرت في ما هي فيه من اسباب القلق والاضطراب لمرض ابيها واذا مات اصبحت يتيمة ليس لها الا اخوها وهي لا تستخلصه ولا تعوّل عليه . ولما ذكرت والدها تذكرت خلوته بالموبذ والافشين فخفق قلبها خوفاً من تلك الخلوة وقام في ذهنها هواجس كثيرة ومخاوف شتى لما تعلمه من مطامع الموبذان ودسائسهم وقد اصبحوا بعد ذهاب دهشة الدين وتحوّل الكهانة الى مرتزق لاهمّ لهم الا جمع الاموال باية وسيلة كانت ويسهل عليهم ذلك بما تعودوه من غسل السيئات بالصلوات . والعقائد اذا تقادم عهدها وتولاها اهل المطامع تطرق اليها الفساد واصبحت شرًّا على الناس من الكفر حتى يقوم من يقومها وينقيها . ولم تكن جهان شديدة التعلق باذيال الكهنوت لما كانت تكشفه بفراستها من نواياهم وخفاياهم وانما كانت تدين بالزردشتية مذهب ابيها على غير تفهم او نقد لانها ولدت فيها فشبت عليها كما شبت على سائر عاداتها واخلاقها — شأن السواد الاعظم من العامة فانهم يدينون بما يألفونه من صغرهم واذا كبروا وتثقفوا ودلهم العلم على مظنة للنقد فيه اغتفروها في جانب ما غرس في قلوبهم وعقولهم من مباديه فاصبح الدين كالجنس يغضب له المرء وينصره غيرة وحمية كما ينصر عرضه ويذب على حياضه ولو لم يعتقد صيانته

على انها كانت تنظر الى الموبذان وامثالهم نظر المستخف بما يقولونه ويزعمونه فلم تكن تحذرهم لاعتقادها عجزهم عن غير ما تتوق اليه نفوسهم من الكسب المالي . فلم يكن احتلاء الموبذ بابيها يهمها لو لم يكن الافشين معه وهي تكرهه عفواً بلا سبب ظاهر . وتخافه لانه ملك ذو اعوان وجند . وكان ابوها يحترمه ويعول عليه على انها وهي في تلك الهواجس وقع نظرها على بساط في تلك الغرفة رأت في جملة ما عليه من الرسوم المزركشة صورة اسد رابض عيناه شرارتان فتحمست وتذكرت حبيبها لان اسمه من اسماء الاسد . فلما تذكرته ذهبت مخاوفها وهان عليها كل شيء تحذره او تخشاه اذا كان حبيبها بقربها

وهي غارقة في هذه الهواجس سمعت وقع اقدام عرفت انها خطوات خيزران القهرمانة فخفق قلبها توقعاً لخبر تسمعه فلما اقبلت عليها حيتها وقالت « ان سيدي المرزبان

يدعوك اليه ... لكن تجلدي يا جهان مثل عهدي بك .. »

فلما سمعت تحذيرها اوجست خيفة ولم تسألها عن سبب ذلك التحذير اعتمادًا على قدرتها في تحمل الصدمات . واكبرت ان تبدي لهفتها فمشت مسرعة وقبل وصولها الغرفة تذكرت انها سترى فيها الموبذ والافشين فانقبضت نفسها ولكنها ظلت سائرة حتى وصلت باب الغرفة فوسع لها الحاجب فدخلت وعيناها متجهتان نحو سرير والدها . فرأته مستلقيًا وعيناه شاخصتان نحو الباب وقد غشيهما الدمع وتكسرت اهدابهما من كثرة البكاء . وحالما وقع بصره عليها ابتسم ابتسامة لا حياة فيها ولولا بريق تينك العينين وما يتجلى فيهما من الحنو والمحبة لظنته ميتًا . فتمالكت ودنت من السرير لا تلتفت الى ما بين يديه كانها تراه في خلوة . اما هو فلما رآها احسّ بنشاط جديد فبسط ذراعيه وفتح فاه ليخاطبها او يرحب بها فامتنع عليه النطق فاكتفى بحركة شفتيه وترامت على صدره ولولا ثبات جأشها لاغمي عليها لانها تحققت في تلك اللحظة انها لا تلبث ان تصير يتيمة وحيدة ومع ذلك فانها غلبت على تعقلها لانها امسكت بذراعي ذلك المحتضر ونظرت في وجهه نظرة الاستعطاف كانها تتوسل اليه ان لا يتركها فسبقتها العبرات وبكت وهي تمسك انفاسها لئلا يسمع شهيقها واطرقت لئلا تظهر دموعها

اما هو فلم يفتهُ ما خامر قلبها من الحزن والخوف واراد تعزيتها فعصاهُ النطق ولم يزد عن ان حرك شفتيه واخرج صوتًا يشبه الهينمة وحوّل نظره واشار بيده نحو الافشين والموبذ . فالتفتت فرأت الافشين جالسًا وفي يده لفافة من الورق فلما رآها تنظر اليه بعد اشارة والدها أراها اللفافة وابتسم لها ابتسامة التعزية وكان الموبذ واقفًا بجانب التمثال يصلي ويتضرع فالتفت اليهما وهو يظهر الاسف والحزن على حال المرزبان . ففهمت جهان خلاصة ما تمّ في تلك الخلوة وهو ما كانت تخوفه وتحذر الوقوع فيهِ . على ان اشتغال خاطرها بحال والدها شغلها عن التفكير بسواه . واعادت النظر الى ذلك المريض وصاحت « ابي كيف انت ؟ انك في خير ... »

فاراد ان يجيبها ويطمئنها والحشرجة تمنعهُ من الكلام فاحسّت ان استلقاءها على صدره يضائقهُ فجلست بجانبهِ وقبضت على يده واذا هي مكسوة بعرق بارد فكادت تصيح وتولول لانها تحققت ان والدها في آخر ساعات الدنيا وتجلدت لكنها لم تستطع امساك دموعها فاطرقت والدمع يتساقط على خديها وقد زادها احتباس العواطف تورّدًا وزاد عينيها بريقًا . واما والدها فان مرعة تنفسه وخرير صدره ودنو اجله لم تفقده شيئًا من

رشده ولا انسته ابنته الحبيبة وودّ لو يطلق لسانه ليقول كلمة او كلمات تطمئنها وتعزيها ولكنهُ غلب على امره مع ما ظهر من مجاهدته في محاولة الكلام والضعف يمنعه . فلما تحقق عجزه عن تعزيتها اشار اليها ان تخرج وتظاهر انه يريد الرقاد فوقفت وهي ترتعد وركبتاها تصطكان لاتدري اتطيع والدها ام تبقى بين يديهِ تتودع من رؤيته

ثم راته يزداد حشرجة وملالاً ويدير راسه ويتلفت كأنه يحاول النهوض ولا يقوى عليه واخيراً وجه نظره الى جهان وشخص يبصره فيها فتفرست في عينيه فرات ماءها جف وذهب منها بصيص الحياة وكأنه يهمّ ان يبسط يديه نحوها فلم ترتفعا الاّ قليلاً ثم شهق شهقة اجفل لها الحضور وهي آخر انفاسه وارخي يديه وقد سكن صدره وهمد جسمه واظلمت عيناه وتراخت اجفانه وبرز انفه ووجنتاه واصفرّت اصفرار الموت وقد تنبش شعر لحيته وراسه حتى اصبح منظره مريعاً . فلم تعد جهان تحاذر شيئاً فصاحت « ووالداه » وحلت شعرها ولطمت وجهها وتسامع اهل القصر صوتها وبلغ الخبر الى القهرمانة فركضت واخذت بيد جهان وجعلت تخفف عنها وهي تبكي وتندب لا يعزيها كلام ولا يخفى عليها ما يقال في مثل هذه الحال من عبارات التعزية وهي لا تشفي غليلاً

الفصل التاسع عشر

المأتم

ولما قضي الامر اخذ اهل القصر في اعداد المأتم على جاري العادة عند المجوس فغسلوا الجثة والبسوها ثوباً ابيض ووضعوها على دكة في غرفة كبيرة افرغوها من الاثاث وجلس الاخصاء يندبون والموبذ يصلي ويدعو وهم يؤمّنون ويستغفرون . وبعد هنيهة جاء سامان وكان غائباً عن البيت واخذ يندب والده ويعدد فضائله والناس يخففون عنه . واما جهان فبعد ان أطاعت قلبها ساعة الوفاة رجعت الى تعقلها فغلب عليها السكوت واعمال الفكرة ـ وما الذي كانت تفكر فيه ساعتئذ ؟ انها كانت تفكر في مصدر تعزيتها الوحيد وهو ضرغام اذ لا ترجو تعزية من غير طريق القلب . فكانت وهي في تلك الحال تسترق اللحظ لعلها تجد ضرغاماً قادماً فتتعزى برؤيته اذا لم يؤذن لها بحديثه

واذا هي بالموبذ يشير اليها بالخروج الى غرفة اخرى ومشى فتبعتهُ وهي مطأطئة

الرأس من الحزن وتبعها سامان فلما خلا الموبذ بهما قال « لا ينبغي لكما ان تبالغا بالحزن على اخينا الراحل فان اورمزد معه لانه كان رجلاً تقياً محسناً وسنوقد النيران على اسمه ثلاثة ايام ونجعل وقودها الند والصندل . ولا يخفى عليكما ان روح والدكما لم تفارق هذا المكان بعد ولا تفارقه الا بعد ثلاثة ايام فلا تحزناها بالبكاء والنوح . وقد اوصى والدكما بتفريق الحسنات والمبرات وهو لا ريب عندي من اهل النعيم . ولذلك فان روحه بعد ان تقضي ثلاث ليالٍ حول الجثة تصعد الى الاماكن المباركة فتلاقي ضميره بشكل حورية تقص عليه اعماله الحسنة وتقوده الى النور الابدي . ومع ذلك فاننا سنوالي الصلاة عن نفسه طول السنة فلا تجزعا . . . ولكن لا بد لي من ابلاغكما وصيته عن دفنه »

وكانت جهان تسمع وهي مطرقة تتلقى دموعها بمنديلها فلما قال ذلك رفعت بصرها اليه وفي عينيها ملامح الاستفهام فقال « قد اوصى ان ندفنه في برج السكوت »



برج السكوت

فلما قال ذلك بانت البغتة على وجه الفتاة واخيها وقالت « كيف ذلك ؟ وانما يدفن في برج السكوت عامة الناس والفقراء ومثل والدي يدفن في حجرة خاصة »

قال « نعم ولكنه اوصى بدفنه هناك واسرَّ اليَّ السبب الذي بعثه على ذلك ولا اقدر ان ابوح به »

فاكتفت بقوله وسكتت اما سامان فلم يسكت فقال « كيف ندفن ابانا المرزبان في

برج السكوت وانت تعلم انه مدفن الادنياء توضع فيه الاجساد على احجار تعرض للهواء وتذهب طعاماً للنسور والكواسر لا يبقى منها ولا العظام لولا انهم يشدونها الى الحجر بالحبال او السلاسل . ثم تطرح تلك البقايا في البئر العميقة بوسط البرج فتختلط بعظام الطغام والمجرمين و . . . اننا نريد حفظ آثار والدنا في حجرة خاصة . . »

فاستغرب الموبذ اعتراضه ولم يعره التفاتاً وانما قال له « هذه وصية الفقيد بحضور مولانا الافشين وقد دونها بوصيته التي ستتلى عليكم بعد بضعة ايام » قال ذلك وتحول الى قيم القصر فاوصاه بما ينبغي اعداده للدفن مما يطول شرحه . اما سامان فغضب لاحتقار الموبذ اعتراضه واصبح في شوق للاطلاع على الوصية التي اشار اليها

قضى القوم بضعة ايام في المأتم وتوابعه من رسوم وتعازٍ ومحرقات واحسانات وصلوات وجهان تتوقع رجوع ضرغام وهو تعزيتها الوحيدة فتشغل بالها ابطاؤه وزادها حزناً مع علمها انه في شاغل قد يعيقه عنها عدة اسابيع — ولكن المحب كثير القلق سريع التخوف . على انها آنست من اخيها سامان تقرباً وتلطفاً لم تعهدهما فيه قبلاً . فلم يعد يفارقها لحظة وكلما رآها تتضجر خفف عنها . ولم يكن غافلاً عن تعلقها بضرغام وان لم يفاتحها بشأنه من قبل فاكثر من ذكره في تلك الاثناء و بالغ في الثناء عليه مع انه كثيراً ما كان يحسن لها القبول بسواه ولا سيما بابك الخرمي فقد ذكره لها ورأى تمنعها فلامها . اما يومئذ فاخذ يجاريها في هوى نفسها ومع كونه اجروداً لا يعرف الحب ولا يشعر بجواذب المحبين فقد ساعده ذكاؤه ودهاؤه على معرفة تلك النقطة الضعيفة فيهم

واما جهان مع فراستها وسوء ظنها باخيها فانها كانت تلتذ بحديثه ويسرها انه يحب حبيبها ويعجب بمناقبه وبسالته وخصوصاً لان اخاها اقرب من تستشيره بامره بعد موت ابيها وان كانت لا تهتم برأيه لو خالفها . ولكنها استأنست به واخذت تتنامى ما كانت تعهده من نقائصه او تخافه من مطامعه — ذلك هو سلطان الحب فانه يعمي و يصم وصاحبه مهما أوتي من الحكمة والتعقل اذا وقع في شراكه قد يبقى حكيماً في كل شيء وقد يعد من كبار اهل الدهاء والسياسة او من كبار العلماء او الشعراء او الفلاسفة و يبقى داهية في كل أمر الا من حيث حبيبه او ما يتعلق به فانه يكون كالطفل يقاد بخيط وقد يغلب عليه الوهم في بعض الاحوال حتى يصدق المستحيل و يعتقد الخرافات اذا كان في ذلك التصديق وهذا الاعتقاد ما يسهل عليه امنية او يطمئن له خاطراً — كالوالد الحنون مهما بلغ من انكاره المعجزات وتكذيبه الخرافات اذا مرض ابنه ونفدت فيه حيل الاطباء قادته رغبته في شفائه

الى تصديق وصفات الدجالين او تعزيم المنجمين . اذا وصفوا له تعويذة يزعمون ان تعليقها بعنق الغلام او شرب مائها او غير ذلك يشفيه عمل بتدجيلهم وتناسي علمه وحكمته

الفصل العشرون

الوصية

وكان الموبذ والافشين يتردادان على قصر المرزبان في اثناء المأتم للقيام بالواجبات وسامان في شوق شديد الى الاطلاع على وصية والده فبعد انقضاء الماتم جاء الموبذ وطلب الاختلاء بجهان واخيها فلما اختلوا اخرج من جيبه اسطوانة من فضة فتحها واستخرج منها



الموبذ وبيده الدرج الملفوف

درجاً ملفوفاً وهو يقول «هذه هي وصية الوالد التي عهد بها الى مولانا الافشين بحضوري» والتفت الى جهان وهو يقول « والحق يقال ان والدك قد احسن الاختيار بالقاء مقاليد

الوصاية الى صديقه الافشين »

فاصاخت جهان لسمعها وسامان جامد لا يتحرك . ففتح الموبذ الدرج وقال « وقد اوصاني مولانا الافشين ان ابلغكما الوصية ثم ادفعها اليهِ فاسمعاها وتفهماها » واخذ يتلو :

« هذا ما عهد به المرزبان طهماز في فرغانة وهو في آخر يوم من ايام الحياة الى الملك الافشين حيدر بن كاووس صاحب اشروسنة وقائد جند المعتصم بحضور الموبذ صاحب بيت كاران شاه وبمعونة اورمزد العظيم . في اليوم العاشر من شهر خرداد ماه من السنة ... للاسكندر . فالمرزبان طهماز يعهد الى الافشين حيدر بن كاووس ملك أشروسنة وقائد جند المعتصم ان يكون وصياً على اهله من بعده يتصرف بما خلفه من مال وعقار تصرف الوصي المطلق بما يعود على الورثة بالخير بمقتضى نص هذه الوصية . ولم يخلف المرزبان طهماز من الورثة الشرعيين الاّ ولدين شاباً هو سامان وشابة هي جهان . وقد اوصى بما يملكه جميعه لابنته جهان وحدها فهي الوريثة للقصر بما فيه والعقارات واهلها وما معهم من ماشية ودواب ولها كل ما خلفه من جارية ورقيق واثاث ومصاغ وآنية ونقد . يكون ذلك كله ملكها بشرط إشراف صديقنا الافشين عليه وتدبيره بما يلهمه اورمزد اليه من اسباب النفع لها . اما ولدنا سامان فانه محروم من هذا الميراث كله لايصير اليه منه مال ولا عقار الا ما يكفي لمعيشته على ما يقدره الوصي . واما سبب حرماني اياه فيؤلمني تدوينه بهذه الوصية ولكن حتى لا يبقى مجهولاً ويذهب معي الى القبر فقد قصصته على الوصي بحضور الموبذ ويبقى مكتوماً عندهما الى حين الحاجة . هذه وصيتي كتبت امامي وقد صدرتها وختمتها بتوقيعي . وشهد فيها الموبذ ومن اخلّ بحرف منها كان ملعوناً خمسين لعنة . وقد فعلت كل ذلك باختياري وانا في سلامة العقل وأوصيت ايضاً ان ادفن بعد موتي في برج السكوت في ضاحية فرغانة وتترك جثتي طعاماً للكواسر . واورمزد يتولى القيام بهذه الوصية ويعين صديقي الافشين على العمل بها »

(التوقيع)

وكان الموبذ يقرأ والاثنان صامتان حتى بلغ الى حرمان سامان من الارث فتغير وجه الشاب وامتقع لونه ولكنه تجلد وكظم حتى فرغ الموبذ من تلاوة الوصية فقال له « كيف احرمني والدي من حقي وانا ابنه الوحيد؟ . هذا لا يكون ابداً . انا وارث اسم ابي ولقبه واما العقار فلي ولاختي جهان .. »

فقال الموبذ « قد قرأت عليكما الوصية ولا سبيل الى غير ما فيها والرأي في كل

حال عائد الى الافشين .. وقد فرغت من رسالتي فأذنا لي بالانصراف وسباتي الافشين فيتولى العمل بالوصية والدولة تساعده على تنفيذها بالقوة . فانصح لك يا ولدي سامان ان تصبر على ما نالك من امر والدك » قال ذلك وخرج مسرعاً وخرج سامان لتشييعه الى سلم الايوان . فلما ودعه ونزل الحديقة وقف سامان ينظر اليه ويحرق اسنانه ويقول في نفسه « هذا ما كنت اخافه من مجيئك يا موبذ النحس كم ارسلني والدي بطلبك وانا اماطله واحتال في تاخير قدومك خوفاً من مثل هذه الوصية لاني كنت شاعراً بما في نفس والدي عليّ ... نعم انا اعرف سبب غضبه وكنت اظنه لا يعلم بهِ ولكن ذلك لا يحرمني من حقي في الميراث .. صدقت يا موبذ ان الامر راجع الى الافشين اللعين وهذا اطمع من فلحس ولعلهُ سعى في الوصاية ليستولي على التركة لنفسهِ ويحرمنا منها جميعاً .. آه لو كانت جهان تطاوعني لكنا نكيد لهُ كيداً عظيماً ولكنها شديدة التمسك بما يسمونه شرف النفس والاريحية و .. لكنني ساكيد لكم جميعاً » وكان يناجي نفسه بهذه الخواطر وهو ينظر الى الموبذ وقد خرج من الحديقة وركب فرسه وسار في سبيله فرجع سامان الى اخته

اما جهان فقد شق عليها اولاً ان يكون الافشين وصيًّا عليها ولكنها عوّلت على استخدام تعقلها في ذلك .. ثم شق عليها حرمان اخيها من حصته بالارث واشفقت عليه فلما عاد من وداع الموبذ ابتسمت لهُ وهي تقول « طب نفساً يا اخي انك لا تلاقي ضيماً وانا في قيد الحياة . وهب ان والدي حرمك من الاستيلاء على الاموال والعقار فانا اعوض عليك ذلك وانت اخي الوحيد فلا ادعك الاَّ راضياً »

وكان يسمع كلامها وهو مطرق وقد لوى عنقه تذللاً ومسكنة فلما فرغت من قولها رفع بصره والدمع في عينيهِ وقال « لم يسئني حرماني من الارث بقدر ما ساءني سببه فاي ذنب ارتكبتهُ حتى اعامل هذه المعاملة ؟ »

قالت « لا اعلم السبب ولا يعلمه احد الا الافشين والموبذ وربما عرفناه في فرصة اخرى كن مطمئناً ان الافشين لا يلبث ان يسافر الى بغداد ونبقى نحن هنا والمال بين ايدينا نتصرف به كما نشاء »

فاثنى على حبّها وكظم ما في نفسه وشق عليه ان يطلع الافشين والموبذ على سبب حرمانه فسكت وهو يبلع ريقه ويحك ذقنهُ ولا شعر فيها . وقعد وهو غارق في بحار الوساوس والهواجس وفكره يشتغل بتدبير المكائد ونصب الحبائل وخاف ان تنتبه اخته لما في خاطره

فشغلها بذكر ضرغام قائلاً « لقد ابطأ علينا البطل ضرغام . ولا بد لتغيبه من سبب قهري »

فانساها ذكره ما كانت فيه وقالت « يظهر انه بعيد عن فرغانة ولو كان فيها او قريباً منها لما فاته خبر المصيبة التي اصابتنا ولا يلبث ان يعود »

فقال « لو كان هنا لخفت المصيبة علينا .. اني استأنس بطلعته .. لقد سموه ضرغاماً وهو كالضرغام ... وكم فيه من خصال ومناقب تندر في سواه . »

فوقع ذلك الاطراء في نفس جهان وقوع الماء من الظمآن ومع علمها ان اخاها يقول ذلك مجاملة ومسايرة فقد انشرح صدرها لسماعه واخذت تغالط نفسها وتبرهن في سرّها ان سامان يحب ضرغاماً وانها كانت مخطئة في زعمها الاول . وافاضت بالحديث ثم انتقلت منه الى سواه تنزيهاً له عن الابتذال ولنفسها عن مظنة الخفة

الفصل الحادي والعشرون

الوداع

وبينما هما في الحديث اتت القهرمانة تنبيء سيدتها بمجيء ضرغام فخفق قلبها ونسيت حزنها لكنها ما لبثت ان وقع بصرها عليه حتى تذكرت اعجاب والدها به وما كانت تتوقعه من السعادة لو بقي حياً فبكت ولم تستطع مع ذلك غير الابتسام لحبيبها فاثر منظرها فيه فحياها واخذ في تعزيتها فعادت الى حزنها فبكت . وتحوّل نحو سامان وعزاه فقال سامان « ان لنا بيقائك تعزية كبرى وهذا هو حال الدنيا »

وتحولت جهان الى الغرفة فتبعها ضرغام وهو بلباس السفر فدعته الى الجلوس فجلسوا وهي تقول « لقد كانت مصيبتنا مضاعفة لغيابك يا ضرغام »

قال « كنت في مكان بعيد اضطررت للذهاب اليه تعجيلاً للفراغ من المهمة التي جئت من اجلها لأتفرغ لك ولكن ... »

قالت « وما ذا جرى ؟ »

قال « لم يجرِ مي ولكنني تناولت امرًا من الخليفة يستعجلني بالرجوع »

فاطرقت ثم قالت « ان سفرك يسوءني كثيرًا ولكنني .. »

فقطع كلامها قائلاً « ولكنني سابق في فرغانة لان فيها قلبي وعقلي وكل جوارحي »

بالقهرمانة انت مسرعة وهي تقول « سيدتي ..انت هنا ؟ »

قالت « ما وراءك ؟ »

قالت « جاء .. جاء الافشين يا سيدتي وهو يطلب مقابلتك »

لم تستغرب جهان ذلك الخبر لانها كانت تنتظره بل هي فرحت بقدومه لتستطلع غرضه وتدبر وسيلة للنجاة من وصايته . فنهضت وهي تقول « اين هو ؟ »

قالت « هو في الايوان ينتظر قدومك »

فمشت مشية الوقار والجلال كانها ملك تحف به الاعوان لا تبالي بما ستسمعه او تقوله لاعتمادها على قوة جنانها وعزة نفسها . حتى اتت القصر وصعدت الدرجات المؤدية الى الايوان وهي تتشاغل بمخاطبة القهرمانة في شؤون لا اهمية لها مبالغة بعدم المبالاة حتى اطلت على باب الايوان فرأت الافشين جالساً بصدره . فلما رآها خفّ لاستقبالها ومشى لملاقاتها وهو يومئذ في نحو الستين من عمره وقد شابت لحيته ولكنه كان يخضبها حرصاً على مظاهر الشباب . وكان طويل القامة كبير العينين مستطيل الوجه والعنق وقد تجعد جبينه وبرزت وجنتاه وعلى راسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة من الخز الموشى وقد لبس قباءً بني اللون تظهر السراويل من تحته ترف على قدميه وفوق القباء جبة سوداء وقد تمنطق تحتها بمنطقة مرصعة علق بها سيفاً قبضتهُ مرصعة ومشى لملاقاتها مشية معجب بمنصبه عارف بمقامه يحسب الترحيب بجهان تلطفاً او تنازلاً . فلما دنا منها ابتسم وقال « مرحباً بعروس فرغانة . كيف تجدين نفسك اليوم » ومدّ يدهُ لمصافحتها فمدت يدها فقبض عليها وتباطأ في الافراج عنها فاقشعر بدنها واحست بنفور دلها عليه قلبها ولكنها اجابتهُ على سؤاله قائلة « اني في خير تفضل اجلس »

فتثاقل في الجلوس ريثما جلست هي على كرسي وجلس هو على كرسي امامها وعيناه لا تتحولان عن وجهها وتوسمت في عينيه معاني زادتها نفوراً منهُ فاطرقت حياءً وترفعاً فحمل ذلك منها محمل الحزن فقال لها « ان المصيبة التي اصابتك كبيرة ياعزيزتي لان موت والدك رحمه الله خسارة لا تعوض وانت تعلمين ما كان بيننا من صلات المودة ويؤكد لك ذلك انهُ قد وكل اليَّ الاهتمام بشؤونك بعده ... ولم يفعل ذلك طبعاً الاَّ لعلمه بمنزلتك عندي .. الم تسمعي ذلك منهُ في حياته ..؟ الم يقل لك كم انا معجب بتعقلك وذكائك »

فاستغربت دخوله في الحديث على هذه الصورة ولكنها سايرته فقالت « كثيراً ما سمعت والدي يذكر مودتك ورفعة مقامك ... والافشين صاحب اشروسنة مشهور ليس في فرغانة

ولا اشروسنة من لا يعرف باسهُ ويسمع باعماله »

فاعجبه اطراؤها وجرأهُ على التقدم خطوة اخرى نحو الغرض الذي طالما كتمهُ فقال « لم اسألك هذا السؤال لاسمع اطراءك ومدحك وانما اردت سماع الجواب على سؤالي .. الم تسمعي من والدك عما لك من المنزلة عندي ؟ .. »

فلم يفتها ما يعنيه او ما يضمره ولكنها ظلت على تجاهلها فقالت « لا اذكر اني سمعت شيئاً من ذلك .. ولا اظنك احسنت الظن بي الا لانك تعدني من بعض اولادك كما تعدهُ والدي اخاً لك فاشكرك على هذا الاحساس .. واذا كنت حسن الاعتقاد بي اتقدم اليك بطلب ارجو ان تجيبني اليهِ .. »

قال « وما هو »

قالت « رأيتك تعتقد تعقلي وذكائي وان كنت لا استحق هذا الاعتقاد فاذا كنت ترى فيَّ تعقلاً فما معنى الوصاية علي ؟ »

فضحك وقال « ان الوصاية ياعزيزتي لاتسلبك شيئاً من هذه الخلال .. »

فقالت « انك ملك وقائد ولك من المهام والاعمال ما يشغلك عن الاهتمام بمثلي وانت مقيم في العراق وانا في فرغانة فهل توافقني على القاء اثقال الوصاية عنك ؟ .. »

فاجاب مسرعاً بلا تردد « كلاَّ .. كلا . اني لا استطيع ان اخالف وصية والدك ولو معها جرَّت من المشاغل عليَّ .. ولا ثقلة عندي بخدمتك وهي امنية طالما تمنيتها . كوني مطمئنة من هذا القبيل . واما البعد بين العراق وفرغانة فملافاته سهلة عليَّ فاما ان تنتقلي الى العراق او انتقل انا الى فرغانة . ولابد من ان نكون معاً في كل حال .. »

فتحققت غرضه ولكنها لم تشأ ان تفهم مراده فقالت « لا ارى باعثاً على هذا الارتباط يا مولاي »

فقال وهو يستعطفها « لا تقولي مولاي ... »

فقالت « يا ابتي او ياعماه كما تشاء . اني لا ارى داعياً لهذا الارتباط »

فاقطب حاجبيه وهو يبتسم وقرب كرسيه من كرسيها كانه يداعبها وقال « ان قولك يا عماه يسوءني اكثر كثيراً من قولك يامولاي .. لماذا لا تخاطبينني كما اخاطبك » قال ذلك واخرج من جيبه عقداً من الجوهر يساوي مالاً كثيراً ومد يده نحوها والعقد يتلألأ في كفه وهو يقول « مالي اناديك عزيزتي فتنادينني عمي ؟ .. »

فحوّلت جهان وجهها عنهُ وهي تنظر اليهِ شزرًا وتباعد كرسيها وقد ارسلت يديها الى وراء ظهرها وقالت « لا يا سيدي .. لا حاجة لي بالجوهر فاني حزينة ولا ارى مع ذلك مسوغًا لهذا الخطاب .. »

فاظهر استغرابه تفورها وقال « اهكذا تعاملين رجلاً اقامه ابوك وصيا عليك ؟ هبي اني من عامة الناس فاحترمي وصية والدك على الاقل »

فقالت بصوت هادي، كله وقار وترفع « كان الاولى ان تبدأ انت باحترام تلك الوصية ايها الملك والقائد . »

فقال بنغمة الفائز الظافر « اتظنين اباك لم يوصني الا بما في تلك الصحيفة ؟ .. انه أوصاني وصية شفاهية لا بدّ لي من تنفيذها »

فقالت والازدراء بادٍ في شفتيها وعينيها « ان والدي لو كان حياً ما قبل منك بذلك .. »

فابتسم وابرقت عيناه بريقاً ازعجها وقال بلحن الهائم الولهان « هبي انه لم يقل شيئاً من ذلك الا يكفي ان أقوله انا ... يظهر ان ما ظننته من تعقلك وذكائك في غير محله .. ايخاطبك ملك اشروسنة بعبارات التقرب والتودد وتجيبينه بالخشونة والنفور؟ »

الفصل الثالث والعشرون

ليس الحب للشباب فقط

فنظرت فيه نظرة الاستغراب والدهشة وقالت وفي كلامها تهديد وقد أقطبت حاجبيها « قف عند هذا الحد من التلميح واحذر ان تنزع الى التصريح ان ملكك وان ضخم لا يساوي عندي شيئاً .. »

قال « يظهر انكِ لم تفهمي مرادي ... ألم تفهمي بعد ؟ اني احبك يا جهان . نعم اني احبك اني عاشق لك » قال ذلك وقد زادت عيناه بريقاً وبدا فيهما الاحمرار

فلما سمعت تصريحه ورأت منه ذلك « نهضت عن كرسيها ونفرت نفور الظبي من الاسد او نفور الابي من الوقح وقالت « قلت لك نف عند حد التلميح .. فلم تصغِ . اما وقد تجرأت على التصريح فاعلم اني لا اسمح لك بمثل هذا الخطاب . وهل يليق بك

وقد كان لك الشيب ان تخطب محبة فتاة اصغر من بعض ابنائك ؟ »

فتنهد الافشين تنهداً حاراً وقال وهو يتذلل ويتلطف « آه يا جهان .. اتحسبين الحب محرماً على غير الشبان ؟ . اني ارى الكهولة أولى به واقدر عليه من الشباب .. ان الناس مخطئون بما يتوهمونه لان الحب لا علاقة له بالسن »

ثم اعتدل بمجلسه واشار الى صدره وقال « ان في هـذا القلب من لواعج الغرام ما لا يتسع له صدور الشبان .. كنت شاباً وانا اليوم كهل واقسم لك بما تعبدين اني اشد كلفاً واعرق في الحب من قبل .. يدلك على ذلك اني وانا الملك السيد والقائد الباسل ارامي عند قدميك لاخطب مودتك والتمس رضاك متذللاً متصاغراً (وترامى عند قدميها) فاذا اطمعتني علمت اني عاشق استهلك في سبيل سعادتك وكنت الملكة النافذة الكلمة في العراقين وفارس وخراسان واشروسنة وفرغانة .. وان ابيت وظللت على خصامك .. »

فقصمت كلامه وهي تنظر في وجهه نظر الاستخفاف وقالت « انهض يا حيدر ... انهض يا ابن كاووس .. انهض يا ملك اشروسنة وارجع الى رشدك ودع ما تقول وانا اصفح عنك واغفي عما فرط منك واكتم جسارتك .. انهض .. لا ينبغي ان تكون هذه الفتاة اربط منك جاشاً واكثر تعقلاً »

فوقع كلامها وقوع سهم في قلبه فنهض وهو يحرق اسنانه وقال « لقد قتلتني بثبات جنانك وجسارتك .. اتحسبيني عاجزاً عن ارغامك ؟ . ولكن قلبي لا يطاوعني على اذيتك فارجعي الى صوابك وفكري في ما عرضته عليك من اسباب السعادة ولا تعملي عمل اهل الجهالة .. واعلمي انك وما تملكين في قبضة يدي فاذا اطمعتني كنتُ انا وما املك في قبضة يدك »

فهاج غضبها ودبت الحمية في عروقها وحدثتها نفسها ان تزيده توبيخاً ولكنها تماسكت لعلمها انها لا تقوى على مناوأته وهو ملك عنده الجند والاعوان وبيده خط والدها بالوصاية المطلقة عليها فلا ينصرها عليه حاكم ولا ينجيها منه سلطان . الا اذا كانت في دار الملك فربما استعانت عليه بالخليفة فينصفها ... فرات من باب الحكمة ان تستعين عليه بالتعقل والتدبير فتمالكت بما فطرت عليه من قوة الارادة وقالت بصوت خافت « سمعتك تستمهلني ريثما افكر في ما عرضته عليّ وانا امهلك لتفكر في ما قلته لك وترى بعد ذلك ما يكون .. ولكنني كما قلت لك سأكتم ما بدا منك وابذل جهدي في نسيانه حتى

يكون مكتوماً عني ايضاً لاني اظن بصديق والدي ووصيه ان يقال عنه ما قد يقال عنك لو اطاع الناس على اقوالك ... هل قبلت بما اقوله لك ؟ واذا أبيتَ الا الطيش فانا اولى بالطيش منك ولا تحسبني فتاة ضعيفة »

فاحسّ الافشين بعظمة تلك الفتاة ولم يعد يقوى على التفرس في عينيها كأن الغضب زاد كهربائيتهما فتطاير منهما الشرر . ووقع كلامها على رأسه كالصاعقة وقال « ما انت فتاة ضعيفة ولا انا اقول ما اقوله عن طيش لكنك تعتقدين كما يعتقد سائر الناس ان الحب لا يليق بغير الشبان وانا اريك راي العين ان الكهول اشدّ هياماً .. ان بين جنبيّ قلباً يضحي الملك والحياة في رضى محبوبه . فهل يفعل الشبان ذلك ؟ وهم انما يحبون عن خفة وجهالة لا يثبتون في الحب ولا يرعون ذمام المحبوب . اما وقد قبلتِ استهالتي فها انا صار لك حتى ترجعي الى رشدك . وطبعاً انتا لا نزال في ايام الحزن على صديقي والدك لا نقطع امراً قبل انقضاء الايام المفروضة ونحن الآن في اوائلها . لكنني لم اتمالك عن ان ابثك ما في قلبي وانا احسب ذلك يسرك ويعزيك فارجو ان لا يخيب ظني بعد انقضاء مدة الحزن ولا سيما بعد ان ترجعي الى رشدك وتحققي صدق نيتي في ما ارجوه لك من الخير في دنياك .. لا باس يا عزيزتي اني صابر فاعملي فكرك على مهل .. »

فاغضت عن تطويله في بث جوارحه وتعليق اماله وقالت بصوت هادئ وجاش رابط « فاقعد قعود الوصي لاخاطبك مخاطبة الفتاة لوصيها الامين » فقعد وقعدت وهو يعجب بثبات جاشها لانه قعد وهو يرتعد من شدة التأثر وهي لا تبالي فقالت له « هل قمت بحق الوصية هل دبرت شؤون القصر واهله ؟ »

قال « قد فعلتِ كل شيء فالمزارعون عاملون في الحقول والقيم يدير شؤون القصر واعلمي اني احرص على مالك منك » ومد يده والعقد لا يزال فيها وقال « والعقد الا تقبلينه مني ؟ . خذيه اذا شئت »

فحولت وجهها واومأت ايماء الاشمئزاز وقالت « لا . لا اريد قبول شيء يذكرني هذا الاجتماع ولو استطعت ان اجرد هذا القاعة من فرشها واثاثها لفعلت حتى لا ارى شيئاً شهد هذا الموقف او سمع هذا الكلام .. والآن اسمح لي ان اشكر لك عنايتك بشؤون التركة ذلك هو عهدي بالافشين صديق والدي والامين على اهله .. واخي سامان ؟ لماذا حرمتموه من ارثه ؟ »

فاحسّ الافشين عند سماع اقوالها انه يتصاغر في عيني نفسه وهي تعظم وتعلو حتى كاد

يتلعثم لسانه ويغلق عليه .. وانما غلبته على بسالته وسلطانه بالعفة وادب النفس فتجلد الافشين وقال « انك تسألينني سؤال القاصر لولي امره وانا مامور بكتمان السبب كما تعلمين فلو سالتني سؤال الحبيب لمحبه لاطلعتك على كل شيء »

قالت « اعمل بالوصية ودع الحب والمحبين »

فدهش الافشين لتعقلها ولم يزدد الا هياماً بها ولكنه احسن بتهيب من الرجوع الى مداعبتها فسكت ولم ير خيراً من ختم الحديث فنهض واستأذنها بالانصراف وخرج وقد غُلب على امره وعلم انه لن ينال رضاها وانما اطاعها وقبل التأجيل فراراً من الخروج فشلاً

الفصل الرابع والعشرون

المناجاة

اما هي فظلت واقفة في مكانها وعيناها تتبعان الافشين حتى خرج من الغرفة . ولما تحققت خروجه من القصر رفعت بصرها الى صورة مطرزة على ستارة بالحائط تمثل وجه والدها وتنهدت تنهداً عميقاً والقت نفسها على الكرسي وقد احست بضعف في مفاصلها كانها خارجة من عمل شاق . والتفتت حولها فلما تحققت انفرادها اعادت تنهدها وناجت نفسها قائلة « آه يا جهان .. اواه يا عروس فرغانة .. ما الذي دهاني في هذين اليومين . مات والدي وسافر حبيبي .. والذنب لي في ذهابه .. ولكن .. لا بأس من ذهابه وذلك اولى من بقائه فلا يعلم بما يضمره ذلك الشيخ الجاهل .. قبحك الله من ملك صعلوك وتباً لك من قائد مغرور .. اتطمع بجهان وهي ابعد عنك من الثريا .. ما لي لا اقول لهُ ان قلبي لضرغام ؟ .. لا . لو قلت لهُ ذلك لعرضت حبيبي للخطر .. حبيبي ضرغام . اين انت ؟ » ولما ذكرت اسمهُ وتذكرت بعده احست بانقباض نفسها ولم تر فرجاً الا بالبكاء فاطلقت لدموعها العنان وهي تحاذر ان يسمع صوت بكائها احد . فلما استغرقت في البكاء نسيت موقفها ولم تعد تحاذر الشهيق ولولا رباطة جأشها وقوة ارادتها لاغمي عليها . وهي في ذلك نبهها وقع خطوات مسرعة بباب الغرفة فالتفتت واذا بالقهرمانة دخلت مسرعة والبغتة بادية في عينيها وقد فتحت ذراعيها كانها تهمُّ ان تضمَّ جهان بينهما كما تضم الوالدة طفلها اذا بكى

اما جهان فلما رأت لهفة خيزران وحنوها على تلك الصورة فاضت شعائرها فتحولت لاستقبالها وهي تبتسم ابتسام المتجلد والدمع يغشى عينيها . ولما وصلت خيزران اليها ترامت جهان بين ذراعيها وقد اخذها الخجل لما بدا من ضعفها فابتدرتها خيزران قائلة « ما بالك تبكين يا سيدتي ؟ ماذا اصابك ؟ »

فقالت وهي تتجلد وتمسح دموعها بمنديلها « اتستغربين بكائي يا اماه وقد فقدت والدي بالامس ؟ . آه ان مصيبتي بفقده مضاعفة .. »

ولم تكن خيزران غافلة عما دار بينها وبين الافشين وان لم تسمعه ولكنها ظنت شيئاً ولما رأت وجه الافشين عند خروجه ممتقعاً تحققت ظنها فقالت « صدقت ان وفاة سيدي المرزبان تدعو الى البكاء والعويل وخصوصاً اذا خلفه مثل هذا الوصي .. » وغصت بريقها ولكنها تجلدت وضمت جهان وقبلتها وقالت «لا بأس عليك ياسيدتي لاتخافي احداً »

فلما سمعت قولها لم يشق عليها اطلاعها على ذلك السر لانها مستودع اسرارها ولكنها تذكرت قوة جنانها فاسترجعت رشدها وقالت « وهل تعلمين اني اخاف شيئاً ؟ . ولكنني .. »

قالت « انا اعلم سبب بكائك فلا تهتمي واعلمي اني اضحي حياتي في خدمتك وليس انا فقط .. ان اهل هذا القصر بل اهل فرغانة جميعاً يفدونك بانفسهم »

فتخلصت جهان من بين ذراعي خيزران بلطف واشارت اليها ان تقعد الى جانبها فجلست وهي ترمق جهان وترعاها بعينيها فرأت سحنتها تغيرت من الحزن والقنوط الى الاهتمام والجد وقد اطرقت وبدا الذكاء واعمال الفكرة في عينيها وجبينها . فعلمت خيزران انها ستقول قولاً مفيداً فبالغت في الاصغاء وقلبها يخفق حتى كادت تسمع دقاته .. وطال سكوت جهان وخيزران مصغية تنظر الى ما يبدو في عينيها من علامات الاهتمام واخيراً وقفت جهان فجأة ونظرت الى خيزران نظراً حاداً وقالت وهي تهز رأسها « لا مقام لي في هذه الديار بعد الآن .. »

فوقع قولها من خيزران وقوع النار على رأسها فما تمالكت ان وقفت وصاحت قائلة « ماذا تقولين ؟ »

قالت « ينبغي ان اسافر من هذا القصر .. يجب ان اتركه حالاً »

قالت « والى اين ؟ كيف تتركينه وفيه كل مالك وقد ربيت فيه .. لمن تتركينه ؟ »

قالت « اتركه للطامعين فيه ... اتركه للافشين والموبذ .. »

قالت وقد اصفر وجهها وجلاً « كيف نتركينهُ وفيه ثروتك وانت صاحبة الامر والنهي فيهِ .. »

قالت والحزم بادٍ في محياها « لا تهمني الثروة ولا انا اعيش بالامر والنهي .. وما الفائدة من الجدران والاشجار والاحجار .. ؟ ليست السعادة بامتال هذه الحطام . نعم اتركه واترك الدنيا معهُ .. اني ارى السعادة قد غادرته منذ غادره والدي .. »

فادركت انها تشير الى ما يهددها من مطامع الاقشين وهي بعيدة عن ضرغام فقالت « اذا كان ذلك الرجل قد اساءك فانبذيه ولا تهتمي بشأنه ... انك ملكة في قصرك وهل تطنينه يجرأ على اخراجك منهُ »

فنظرت اليها شزرًا والاستخفاف حول شفتيها « انهُ لا يخرجني منه بل هو يريد ان أبقى هنا . واما انا فلا .. »

قالت « كيف تمضين يا سيدتي والى اين .. »

فاطرقت ثم قالت « اني ذاهبة نعم ذاهبة ... لامحالة واما انت فامكثي هنا .. »

فقطعت خيزران كلامها وقالت وهي تشرق بدموعها « انا ابقى ؟ وماذا افعل هنا انك تجرحين قلبي بتوبيخك ... اني بين يديك حيثما تذهبين . وانما اردت ان اعلم الجهة التي تطلبينها . »

قالت « اني ذاهبة الى العراق .. »

فلما سمعت قولها دهشت والتفتت اليها قائلة « انك تقولين قولاً يسهل لفظهُ ويصعب فعلهُ .. أتعلمين المسافة بيننا وبين العراق ؟ »

قالت « وان كنت لا اعلم ؟ »

قالت « انك حكيمة لا تعملين عملاً الاَّ بعد التبصر .. اتعلمين ان بيننا وبين العراق بضعة اشهر ينبغي ان نقطع معظمها في البوادي الخطرة التي لا يستطيع سلوكها الاَّ القوافل او الجماعات من الجند المسلح لكثرة اللصوص وقاطعي الطرق ؟ »

قالت « مهما يكن من الامر اني خارجة الى العراق »

قالت « تبصري ياسيدتي او باولدي او ياحبيبتي واشفقي على شبابك ان تعرضي بحياتك لهذا السفر المحفوف بالاخطار ... ان السائر الى العراق ينبغي لهُ ان يقطع صحاري فاحلة فيها اللصوص من التركمان وغيرهم وكثيرًا ما يعترضون قوافل التجارة الذاهبة الى خراسان او فارس فيقتلون اصحابها ويقبضون اموالها فكيف تسافرين انتِ فيها ؟ »

قالت « اسافر كما يسافر سائر الناس .. اني مسافرة وسندبر طريقة السفر »

فلما لم ترحيلة في ارجاعها عن عزمها بهذا السبيل قالت « اذا كنت تطلبين الذهاب الى العراق فراراً من الافشين فالعراق مقرّهُ وهو صاحب النفوذ فيهِ »

قالت « ليكن معها شاء فانا لا اخافهُ هناك لان يد الخليفة فوق يده . وهناك ضرغام ايضاً ... » قالت ذلك وتراجعت لحظة ثم استأنفت الكلام قائلة « لا اعني ان استعين بضرغام عليهِ ولكنني القى هذا الشيخ الجاهل في بلد يسمع فيه صوت الحق ... وقد يغلبني هناك بنفوذه كما اخاف ان يغلبني هنا بجنوده ولكنني لا اغلب هناك الاّ بعد ان اريه كيف اعمال الرجال . اني مسافرة لا ترجعيني عن عزمي » وتحولت نحو الباب فتبعتها خيزران وقد اخذتها الدهشة من ذلك العزم الفجائي ولم تتمالك عن البكاء سرًّا

اما جهان فمشت مسرعة نحو غرفتها لا تلتفت يميناً ولا شمالاً وقد تمثلت بها الشجاعة والحزم وثبات الجنان وخيزران تتبعها ولا تجسر ان تعترضها وحاذرت الدخول في اثرها فتباطأت في مشيتها . واذا بجهان تناديها من الداخل فاسرعت اليها فرأتها جالسة على سريرها والحيرة تتجلى في عينها رغم ما في جبينها من دلائل العزم الصادق فلما دخلت ابتدرتها جهان قائلة « الم يعد سامان بعد ؟ »

قالت « كلاّ يا سيدتي .. لم اشاهده في هذا الصباح .. »

فهزت رأسها وحرقت اسنانها ثم قالت « يا اماه .. تعالي اجلسي الى جانبي .. »

فجلست خيزران وهي تتهيب من رؤيتها فقالت جهان « اني مسافرة كما قلت لكِ ولكن لا ينبغي ان يعلم احد بسبب سفري فعليك ان توصي المهتر (قيم القصر) ان يتعهد اموالنا ومغارسنا كالعادة على اننا خارجون الى بلد قريب .. »

قالت « سأفعل ذلك يا مولاتي . وهل يكون سفرك قريباً . ؟ »

قالت « في اقرب وقت .. قبل انقضاء مدة الحداد وهي لا تزال طويلة وساُعين الوقت .. انما ارجو ان تساعديني في اعداد ما ينبغي اخذه من الامتعة فاننا على سفر طويل .. فهمتِ ؟ . »

فاشارت برأسها مطيعة وسكتت تنتظر ما يأتي بهِ الغد وان كانت لا تتوقع رجوع جهان عن عزمها لما خبرتهُ من ثباتها وحزمها ثم تركتها في الغرفة وحدها وخرجت

قضت جهان بقية ذلك اليوم وهي كالضائعة وغلب عليها التفكير في اخيها سامان لاحتياجها الى صحبتهِ في ذلك السفر الطويل وهي تعلم انهُ لا يقلّ عنها رغبة فيهِ واصبحت

في اليوم التالي وسامان يقرع باب غرفتها ولما دخل ابتدرته بالعتاب على غيابه فقال « اذا كان غيابي عنك يوماً واحداً قد افلقك فكيف اذا غبت عنك اشهراً ؟ »

قالت « العلك عازم على السفر ؟ »

قال « وما الاقامة في بلد حرمتُ من خيراته فانا غريب بين اهلي اما انت فانك وريثة القصر والمال فامكثي ودعيني اضرب في الارض » قال ذلك واظهر الكآبة فلم يفتها قصدهُ ولكنها رأت سفرهُ يوافقها فقالت « وما قولك اذا سافرنا معاً ؟ »

قال « وهل انت عازمة على السفر ايضاً ؟ »

قالت « نعم »

قال « لا ارى باعثاً لسفركِ الاَّ اذا كنتِ تريدين العراق وهناك ضرغام حبيبك »

قالت « اني عازمة الى العراق . فهل انت عازم الى هناك »

قال « اسير برفقتك .. ولكن مثل هذا السفر لا يتأتى لنا الاَّ بعد الاستعداد الكافي ولا بد لنا من اصطحاب جندٍ او قافلة لان الطريق وعر وطويل »

قالت « دبر ما تراهُ اني مسافرة في القريب العاجل »

فابرقت اسرة سامان وهو انما بدأ بتلك المقدمة ليسمع هذه النتيجة لغرض في نفسهِ طالما سعى فيهِ ولولا رغبة جهان في السفر للنجاة من الافشين لا نكشف لها غرض اخيها ولكنها تعامت وتجاهلت رغبة في النجاة والانسان كثيراً ما يغطي غرضهُ على تعقله فعهدت الى سامان بتدبير امر السفر واخذت هي في الاستعداد سرًّا بواسطة خيزران

الفصل الخامس والعشرون

المعتصم واتراكه

بنى المعتصم سامرًّا كما ذكرنا في مكان آخر ليقيم فيها رجاله الاتراك وغيرهم وهي المدينة الثانية من مدن بني العباس على ٥٠ ميلاً من بغداد شمالاً على شاطيء دجلة الشرقي وقسمها الى قطائع اقطعها لرجاله وهم فرق تنسب كل فرقة الى موطنها التي حملت منه فقد حمل بعضهم من سمرقند وهم الاتراك والبعض الآخر من فرغانة وهم الفرغانيون والبعض من اشروسنة ومن غيرها وجعل على كل جماعة قائداً . واشهر قواده الافشين

واصله من ملوك اشروسنة وهو قائد الاشروسنية . واشناس وكان في الاصل مملوكاً لبعض قواد المعتصم فابتاعه ورقاه وايتاخ كان مملوكاً لقائد آخر وكذلك سيما وغيره

ولما استقر رأيه على بناء سامرّا احضر المهندسين والفعلة والبنائين وأصحاب المهن من النجارين والحدادين وامر بحمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما والاها من بغداد وسائر السواد ومن انطاكية وسائر سواحل الشام واستحضر الرخام من اللاذقية وغيرها

وابتنى قصره في اواسط المدينة وبجانبه المسجد الجامع واختط الاسواق حول المسجد وجعل كل تجارة منفردة في سوق على نحو ما فعل المنصور في بناء بغداد وافرد لقواده قطائع ابعدها عن قصره وعن منازل الناس واهل الاسواق فاقام اشناس في محلة بطرف سامرّا في الشمال على بضعة اميال من قصره سماها الكرخ على اسم كرخ بغداد وأقام الافشين في طرفها الجنوبي في مكان يسمى المطيرة على نحو ذلك البعد من قصره وانشأ للفراغنة قطائع اقرب اليه من سواهم وكذلك الاتراك والخراسانية والمغاربة وامر قواده ان يبنوا المساجد والاسواق في قطائعهم لرجالهم . وجعل لسامرّا شوارع موازية لمجرى دجلة تقطعها دروب وازقة اكبرها الشارع الاعظم يمتد من المطيرة شمالاً على موازاة دجلة الى الكرخ وتمتد قطائع الناس يمنة ويسرة على هذا الشارع وتتصل اليه بدروب وازقة تنفذ الى دجلة . وفي هذا الشارع كان ديوان الخراج وقصر المعتصم والمسجد الجامع وسوق الرقيق . ويلي الشارع الاعظم شارع آخر يعرف بشارع ابي احمد على موازاته وشوارع اخر لا محل لذكرها

وبنى على دجلة جسراً يوصل الشاطىء الشرقي بالغربي واقام في هذا الجانب العمارات وغرس البساتين وحفر الآبار واستقدم من كل بلد اصحاب الاعمال اللازمة للعمارة كمهندسي الماء وصناع القراطيس استقدمهم من مصر وصناع الزجاج والخزف من البصرة وانزل اهل كل مهنة وصناعة مع اهاليهم وعيالهم وجعل الابنية قصوراً حولها البساتين وبينها الميادين[1] ولما تسامع الناس ببناء هذه المدينة تقاطروا اليها للبيع والشراء وزاد فيها الواثق والمتوكل وغيرهما ممن خلف المعتصم كثيراً من الابنية الفخيمة

وكان في جملة ابنية الفراغنة بقرب قصر المعتصم بيت متوسط الحجم قائم في حديقة حولها سور له باب مطلّ على دجلة عنده نخلتان . ولم يكن اهل سامرّا يعرفون شيئاً عن

١ كتاب البلدان لليعقوبي ٣٩

اهل ذلك القصر اذ قلما كانوا يرون فيه احداً غير الخدم الذين يخرجون الى السوق في حوائجه على ان القواد كانوا يعرفون انه منزل الناذ ضرغام وكانوا يعجبون برغبته عن زخارف الحياة خلافاً لسائر القواد او الامراء الذين كانوا يستكثرون من الحاشية والموالي والمماليك. وكان اكثرهم يظنونه وحيداً فيه وربما زاره بعضهم في اثناء اقامته في سامرّا اما بعد سفره الاخير فانهم انقطعوا عنه اذ لم يبق في البيت احد الا امرأة كفيفة البصر هي والدته ومعها جارية عجوز تخدمها اسمها مسعودة

الفصل السادس والعشرون

آفتاب

وكانت والدة ضرغام تسمى آفتاب كفّ بصرها وهي في عنفوان الشباب قبل ذهابها الى فرغانة ولم يكن اهل ذلك البلد اكثر معرفة عن سابق حياتها من اهل سامرّا حتى المرزبان واهل قصره مع طول اقامتها بينهم . وقد علمت مما تقدم انها كانت تكتم اصلها حتى عن ابنها ضرغام فكان اذا سألها عن ابيه زعمت انه كان من جند المسلمين وقتل في بعض الوقائع وانها نذرت لبس السواد عليه كل حياتها. ولم يصدق ضرغام قولها لما آنسه من تسترها واختصارها في ذكره فالح عليها مرة واستحلفها ان تخبره عن الحقيقة فوعدته انها ستطلعه عليها في وقت آخر وكان كلما ذكرها بوعدها استمهلته الى فرصة أخرى . وقضى شبابه في فرغانة وهو يطلب الخروج الى العراق للخدمة في الجندية او لمعاطاة عمل يرتزق به كما كان امتثاله من اهل النشاط والذكاء يعملون وهي لا تطاوعه الا في الاعوام الاخيرة فاذنت له بخدمة المعتصم فجاء معها وأقام في سامرّا فظهرت مواهبه وارتقى في الجندية حتى صار رئيس الحرس وهو في كل فرصة يسألها عن ابيه فتؤجل الجواب

ولما استأذنها في الذهاب الى فرغانة في مهمته الاخيرة اذنت له وألحت عليه ان يسرع في الرجوع وبقيت في ذلك القصر ليس معها غير جاريتها مسعودة وكانت تقضي نهارها قاعدة في البيت لا تخرج الى البستان الا نادرًا والجارية تبذل جهدها في تسليتها وقد قضت في خدمتها اعواماً عديدة لم ترها ضاحكة قط فلم تكن اقل استغراباً لحالها من الآخرين على

انها كانت تحترمها وتحبها حباً شديداً لما توانس من لطفها وطيب عنصرها مع سكوتها لانها لم تكن تتكلم الاَّ ما لابدَّ منهُ

وكانت آفتاب مع كهولتها وابتلائها بالعمى جميلة الخلقة خفيفة الروح تدلُّ ملامح وجهها على ما كانت عليه في شبابها من الجمال المفرط . وكانت رشيقة القوام ممتلئة البدن . ومع ما مرَّ بها من الضيقات لا يزال جمالها محفوظاً وكانت جاريتها مسعودة منقطعة الى تسليتها بما في امكانها وكان يسوؤها ميلها الى السكوت فتبذل جهدها في جمع الاخبار مما تسمعهُ من الخدم فتقصه عليها فتلاحظ منها اصغاء لسماع اخبار الخليفة المعتصم ولا سيما بعد ان صار ابنها رئيساً للحرس وخصوصاً بعد سفره فكانت مع رغبتها في سماع اقوالها قلما تسمع منها جواباً غير قولها وهي تتنهد « متى يعود ضرغام لقد طال غيابهُ »

حتى اذا جاء البشير بقدومه كان اوَّل من علم بذلك مسعودة اخبرها بهِ رسول خاص انفذه ضرغام قبل وصوله لعلمهِ ان والدته تتلهف لرجوعه . فدخلت مسعودة على سيدتها مهرولة ولو تيسر لآفتاب ان ترى وجهها لقرأت فيه دلائل البشر . ولكنها حرمت من نعمة النظر لا لذنبٍ او مرض وانما قضت عليها بتلك المصيبة مظالم ذلك العصر وقضت تلك المظالم ايضاً ان تكتم سبب عماها وتخفي حقيقة حالها عن كل انسان — فلما دخلت مسعودة شعرت آفتاب بسرعة حركتها وحدَّثها قلبها بخبر تحملهُ اليها فبدت في وجهها ملامح الاهتمام وحركت عينيها المظلمتين حركة متفرسٍ كانها تنظر في وجه القادم عليها لتستفهمهُ عما في نفسهِ . ولم تمهل خادمتها ان تشرع بالكلام فابتدرتها قائلة « ما وراءكِ يا مسعودة .. هل اتى ضرغام ؟ »

فصاحت « نعم يا سيدتي انهُ اتى .. من انبأك بذلك ؟ »

قالت « انبأني قلبي . اذ ليس له شغل سواه . اين هو ؟ »

قالت « انهُ على مقربة منا »

فما تمالكت آفتاب عن النهوض فجأةً وبدت في محياها علامات البشر وتقطَّر من بياض عينها دمعتان تدحرجتا على خديها فتلقتهما بطرف نقابها الاسود وصاحت وهي تبتسم « اتى ضرغام ! . الحمد لله . متى يصل الينا ؟ »

قالت « يصل في هذا المساء ان شاء الله .. »

فقالت « اعددي العشاء » ومشت نحو غرفتها مشية البصير لا تعثر بشيء ولا يوقفها شيء على عادة العميان النبهاء فانهم يستعيضون عن ابصارهم بارتقاء سائر حواسهم ويتنبه

اذهانهم . فدخلت غرفتها غسلت وجهها وبدلت ثيابها وتشاغلت ببعض المهام حتى لا تستطيل الانتظار

وكان من فرط نباهتها ورقة شعورها انها وهي جالسة في ايوان القصر ساكتة تعرف مكان كل واحد من خدمها في الغرف او الحديقة . فبعد ان فرغت من اصلاح شأنها جلست في الايوان ومسعودة في المطبخ تصلح الطعام وهي تفكر في قدوم مولاها وقلبها مسرور لعلمها ان ذلك يفرح مولاتها واذا هي تسمعها تنادي « مسعودة . . مسعودة »

فهرولت الجارية مسرعة وهي تقول « نعم يامولاتي ماذا تأمرين ؟ »

قالت « ان ضرغاماً اتى . . مري الخدم بالخروج لاستقباله »

فاستغربت مسعودة قولها لانها لم تكن ترى شيئاً يدلُّ على ذلك فخرجت الى الحديقة فلم تجد احداً فعادت وهي تقول « لم يأتِ بعد ولكنهُ آتٍ قريباً »

قالت « اني اسمع وقع حوافر جواده . . . مري الخدم كما قلت لك »

وقد تعوَّدت منها مسعودة كثيراً من ادلة النباهة والشعور البعيد فعادت الى البستان وامرت الخدم وهي لا ترى احداً قادماً ولكنها لم تبلغ باب البستان حتى رأت الغبار وسمعت وقع حوافر الخيل وتحققت قول سيدتها ولم تمضِ هنيهة حتى رأت ضرغاماً قادماً على جواده وهو لا يزال بلباس السفر وليس وراءه الاَّ مولاه وردان على جواد آخر . فرجعت لتبشر سيدتها فرأتها قد سبقتها الى باب الدار وعيناها شائعتان نحو الجهة التي تسمع الصوت منها وهما تجولان بين الاجفان كانهما تريان شيئاً — وانما حركهما محرك البصيرة النقادة ولهفة الوالدة المشتاقة . ولم تمهلها ان تقول شيئاً فسبقتها الى الكلام قائلة « الم اقل لك انهُ جاء . . . اني اشعر بحوافر جواده تمشي في مفاصلي وكأني احس بحرارة انفاسهِ . . حرسهُ الله وابقاه » قالت ذلك وكأنها تنطق بعينيها وحاجبيها ويديها وبكل جارحة من جوارحها فاثر منظرها في مسعودة وخفق قلب الجارية شفقة عليها وودت لو انها تعيرها عينيها لترى بهما ابنها وتفرح بمنظره

الفصل السابع والعشرون

اللقاء

اما ضرغام فما عتم ان وصل الى باب البستان وترجل فاستلم الخدم جواده وتحول هو الى الدار لتقبيل يدي والدته وكانت لا تزال واقفة وعيناها وكل جوارحها متجهة نحوهُ وهي تراعي اقترابه كانها تراه رأي العين . فلما صعد درجات الدار واصبح بين يديها ضمته الى صدرها وقبلته فاكب على يديها يقبلها ومشت الى الايوان وهي ترحب بهِ وتكرر تقبيله وتستنشقهُ وتتفحص كتفيه وذراعيه وصدره وعنقه بيديها وتجس وجهه باصابعها فتمرها على لحيته وشاربيه وعينيه كانها تتفرس فيه باناملها ... حتى اذا دخلا الايوان جلست على وسادة واجلسته بجانبها وهي تضمه وتشمهُ كانها تخاف ان يختطفهُ احدٌ من بين يديها وتجيل بصرها فيه والدمع يتساقط منها وهو لا يعترضها بشيء مما تعملهُ لعلمهِ انهُ يسرُّها

ولما فرغت من التقبيل والشم اخذت تسأله عن صحتهِ فطمأنها وشرح لها شوقه اليها وانها لم تبرح من خاطره في اثناء ذلك السفر الطويل . ثم تذكرت انهُ يحتاج الى الراحة فأمرت مسعودة ان تهيء المائدة فاستأذنها ضرغام في تبديل ثيابه قبل الطعام فأذنت لهُ وبعد التبديل قاموا الى المائدة ففرغوا من الطعام نحو العشاء وقد انير البيت بالشموع . وهي اول ليلة أنير بها منذ سافر ضرغام لان افتاب في غنى عن الضوء ولم يكن يزورها احدٌ فلم تكن تنار الشموع في غياب ضرغام الاَّ نادرًا

وبعد الفراغ من العشاء خرجت مسعودة الى غرفتها لتخلو آفتاب بابنها لعلها تريد محادثته في شأن خاص فاتكأ ضرغام على وسادة ووالدته قاعدة بجانبه وهي قابضة بيديها على يده كأنها تعتاض عن المشاهدة بالملامسة واخذت تسألهُ عن سفرهِ وهو يقص عليها ماشاهده في طريقه من الغرائب والاخطار حتى وصل الى سامرَّا في ذلك المساء فقالت « وهل اقمت في فرغانة طويلاً »

فلما سمع ذكر فرغانة تذكر اشياء كثيرة فاجابها « نعم اقمت بها بضعة ايام ... » وسكت وهو يتردد في هل يخبرها بموت المرزبان فادركت والدته ترددهُ من غنة صوته فقالت « قص عليَّ ما رأيتهُ هناك .. ماذا جرى ؟ »

قال « ماذا اقص عليك ان القوم يذكرون جيرتك ويتحدثون بك كثيرًا »

قالت « وكيف المرزبان واهله »

قال « انهم في خير الاَّ المرزبان فانهُ مريض مرضاً ثقيلاً عجز الطب والاطباء عن علاجه ... »

قالت « اظنهُ مات ... اليس كذلك ؟ »

قال « اذا لم يكن مات فانهُ يموت قريباً لطول مرضه .. والحق يقال انهُ رجل محبٌّ ولو تعلمين مقدار احترامه لك »

قالت « اراك تتلطف في ابلاغي خبر موته .. رحمه الله . كيف فارقت اهلهُ . »

فلم يستغرب ضرغام شعورها بذلك الخبر لما تعوَّده من امثاله فيها واحب الاستطراق الى التحدث عن جهان فقال « ان اهلهُ في خير لانهُ خلف لهم مالاً كثيراً »

قالت « وقد آل هذا الميراث الى جهان على ما اظن »

فاستغرب نسيانها سامان فقال « وهل نسيت سامان أخاها ؟ »

فادركت انها فرطت بسرٍّ كانت تكتمه وبان الارتباك في وجهها فاطرقت وعيناها ترقصان في وجهها من الحيرة ثم قالت « لا لم انس سامان ولكنني كنت أحسب والده يحرمه من الميراث »

فزاد استغرابه وهو يعلم انها لا تلقي الكلام جزافاً فقال « احسبك تقولين ذلك عن ظن ولا بد من سبب تكتمينه »

فقالت « ربما كان ذلك .. وهب اني اكتم سبباً فلو جاز لي ان اقوله لك لفلته . دعنا الآن من سامان واخبرني عن جهان عروس فرغانة كيف هي اني احبها واعجب بذكائها ولطفها »

فلما سمع اطراءها جهان شغل بها عن رغبته في استطلاع خبر سامان وطاب له التحدث عن حبيبته فقال « ان جهان اهل لاعجابك وهي موضوع اعجاب الفرغانيين عن بكرة ابيهم . اني لم أر مثلها بين النساء ولا مثل جمالها وتعقلها . وكم تمنيت ان يمن الله عليك بالبصر لتشاهديها »

فلما سمعت اعجابه بها توسمت فيه ميلاً شديداً اليها فقالت « أراك كثير الاطراء لسجاياها ولا الومك على ذلك اذ لم يفتني من مشتهيات المبصرين في هذه الدنيا الاَّ رؤيتك ورؤيتها » وتنهدت ثم قالت « ولكن ذلك هو نصيبي من دنياي واحمد الله انه انار بصيرتي ومنَّ عليَّ ببقائك . واذا فاتني ان أراك بعيني فلم تفتني رؤيتك بقلبي . اما جهان فلم أحب

فتاة مثل حبي لها وهي ايضاً مرسومة في قلبي .. » قالت ذلك ومدت يدها الى صدر ضرغام وهي تظهر انها تحاول ضمه فاحست بخفقان قلبه فتحققت حبه جهان وهو لا يفقه مرادها ثم قالت « انى احب جهان يا ضرغام فهل انت تحبها ؟ » قالت ذلك وكفها لا تزال على قلبه

فقال « نعم يا أماه . اني احبها ولا اظنك ترين بأساً من ذلك لانك وضعتها هي في قلبك كما تقولين »

قالت « لا ارى باساً . ولكنني لا اعلم اذا كانت هي تحبك ايضاً لانها بنت المرزبان وقد كنا اضيافاً في قصر ابيها ... فربما حسبت نفسها ارفع منك مقاماً على عادة اهل اليسار .. ولا لوم عليها اذا فعلت ذلك لانها لا تعرف اباك .. » ولم تكد تقول ذلك حتى تصاعد الدم الى وجهها وتشاغلت ببلع ريقها كانها ندمت على ما فرط منها

اما هو فاجابها « كوني مطمئنة يا اماه ان جهان تحبني حباً شديداً لانها ليست من اهل الكبرياء ويسرني ان اخبرك باننا قد تعاقدنا على الزواج وهي لا تعرف نسبي .. والآن اذ قد جرنا الحديث الى ذلك الا ترين انه آن لك ان تبرّي بوعودك ؟ »

فعلمت انهُ يستنجزها وعدها باطلاعهِ على حقيقة ابيهِ فقالت « لم يأتِ الوقت يا ولداه وسيأتي قريباً ... عد بي الى حديث جهان فان خبر تعاقدكما يسرني وطالما كنت اتمنى ذلك وانا احسبهُ بعيداً ... فهل حدث ذلك العهد على يد والدها ؟ »

فقال « اعترف لك اننا تعاقدنا سرًّا قبل خروجي معك الى سامرّا ولم اخبرك بهِ لاني لم اكن احسب نفسي اهلاً لها وانا يومئذ لا شأن لي فلما وفقني الله الى المنصب الذي نلتهُ عند امير المؤمنين احتلت في الذهاب الى فرغانة لاخبرها بهِ واتم امر الزواج على يد والدها فذهبت وقد صدق ظني بشباتها وكدت اكتب الكتاب فثقل المرض على ابيها وتوفي فاجلت ذلك الى فرصة أخرى »

قالت « وهل تنوي اذا تزوجتها ان تقيم معها في فرغانة أم تأتي بها الى هنا ؟ »

قال « ان ذلك راجع الى رايك وهي لا تخالف لنا راياً وكنت عازماً على المكوث هناك حتى تنقضي مدة الحداد واكتب كتابي وآتي بها الى هنا فجاءني امر الخليفة بسرعة الرجوع فرجعت ولقيتها قبل سفري وهي حرضتني على الاسراع في طاعة الخليفة ووعدت ان تعمل بما تراه بعد ذلك »

فابرقت اسرة آفتاب وابتسمت وقالت « احمد الله على هذا التوفيق واطلب اليه ان

يتم فضله بما في خاطري فانت حينئذ اسعد الناس »

فعلم انها تشير الى خبر والده فقال « اني اسعد الناس بوجودك .. ولكن ... »

فخافت ان يستأنف سؤالها عن والده فقطعت كلامهُ قائلة « وهل علمت السبب الذي استعجلك الخليفة من اجلهِ ؟ »

قال « كلاَّ .. ولعلهُ يريد انفاذي في مهمة عسكرية . هل تعرفين شيئاً عن ذلك ؟»

قالت « لم اسمع خبراً في غيابك لاني لم اكن اكلم احداً غير مسعودة »

فقال « هل تراه يعث في طلب الافشين ايضاً »

قالت « لا ادري .. اين هو الافشين ؟ اليس في سامرَّا »

قال « كلاَّ اني لقيتهُ في فرغانة . »

فاطرقت وحكت جبينها كانها تفكر في أمر خطر لها ثم قالت « ان الافشين صديق المرزبان كثيراً .. هل شهد موتهُ »

قال نعم « شهده وقد عينه المرزبان وصياً على اهلهِ بعدهُ »

فابتسمت ابتسام مطلع على امور سابقة تؤيد ما سمعهُ فلحظ ضرغام ابتسامها فقال « ما بالك تبتسمين هل تعرفين شيئاً عن هذا الامر من سواي »

قالت « كلا ولكنني تذكرت اشياء كنت اسمعها من صديقتي والدة جهان رحمها الله فقد كانت تسرُّ اليَّ كل ما يهمها وانا أيضاً كنت ارتاح لمسارتها . فكانت كثيراً ما تشكو اليَّ ثقة زوجها بالافشين وهي لا تثق بهِ لما تعلمهُ من جشعهِ وطمعهِ ولكنها لم تكن تجسر على اعتراض المرزبان في اعمالهِ »

فلما سمع ذكر الجشع والطمع شغل خاطره لان الرجل اصبح وصياً على تركة كبيرة ربما تلاعب باموالها ولكن سبق الى خاطره حسن الظن بالناس لانهُ كان سليم القلب طيب السريرة فاكبر ان يرتكب ذلك القائد العظيم طمعاً بمالٍ اقيم وصياً عليهِ فقال « هل تظنين الافشين يمدُّ يده الى مال التركة ؟ »

فالت « لا أدري . ولكنني ذكرت لك ما كانت تسرُّه اليَّ تلك المسكينة وهي ايضاً اسرت اليَّ ما علمتهُ عن سامان وسبب حرمانه من الارث . »

فانتبه ضرغام لشيء لحظهُ من سامان فقال لها « لاشك ان سامان نفسهُ كان عالماً بعزم والده ولذلك كان يبذل جهده في منع الوصية فكان يبعث بهِ والده لاستقدام الموبذ فيعود ولا يأتي بهِ ويتحل الاعذار لعدم مجيئه »

قالت « واخيرًا هل كتب الوصية على يد الموبذ ؟ »

قال « نعم وانا انفذت وردان في استقدامه »

فهزت رأسها وقالت « انعم بهِ من موبذ ... وهذا ايضاً كانت تلك المسكينة تستثقل روحه وتنفر من رؤيته فاذا زارهم في عيد او نحوه هربت من الايوان حتى لا تلتقي به ... وقد اذكرتني وردان اين هو ؟ »

قال « هو في هذا المنزل ولعله نام الآن لانهُ تعب في هذا السفر والحق يقال انهُ همام غيور كنت كثير الاعتماد عليه بمهماتي .. وانا الآن لا ادعوه خادماً بل هو اولى ان يدعى صديقاً لانهُ ارقى كثيرًا من طبقة الخدم ولعل لهُ شأنًا يكتمهُ »

فقالت « احتفظ بهِ قد يكون شهماً خانه الدهر والدهر بالناس قلب » ثم انتبهت انهُ قد آن الرقاد وخصوصاً لضرغام على اثر مشاق الاسفار فقالت « اذهب باحبيبي الى فراشك وغداً تخرج بحراسة الله الى المعتصم وارجو ان تلقاه وانت في خير وعافية » قالت ذلك ونهضت وامرت مسعودة باعداد ما يلزم للرقاد وضمت ضرغاماً قبل ذهابه الى الفراش وذهبت هي الى فراشها

بات ضرغام تلك الليلة والخواطر تتوارد عليه فتذكر جهان وكيف تركها وبينهما مسافة بعيدة واحسَّ انه اخطأ بتركها ولام نفسه لانه لم يأتِ بها معه او بقي حتى يتم اقترانه وهو لا يعلم بالذي طرأ عليها بعد سفره من حيث الافشين . ولو علم لطار اليها على اجنحة الانتقام . وكان يعترض هذه الهواجس تفكيره بالمعتصم والسبب الذي بعث اليهِ من اجله

الفصل الثامن والعشرون

المعتصم والاسد

وفي الصباح التالي نهض فقبل يد والدته ولبس بعد الفطور ثيابه الرسمية التي يقابل بها الخليفة واهمها القلنسوة وحولها العمامة والسواد وهو الجبة السوداء الخاصة بالعباسيين وتحتها القباء والسراويل . وتقلد السيف وركب الجواد وركب وردان في اثره وسارا بلثمسان قصر الخليفة

وكان قصر المعتصم في الجانب الشرقي من سامرا ويقال له الجوسق وهو مؤلف من عدة ابنية يضمها سور واحد وقد قلد في بنائه طرز الاكاسرة في المدائن فجعل بابه الخارجي مثلث القناطر القنطرة الوسطى كبيرة لمرور الفرسان والى كل من جانبيها قنطرة صغرى يمر تحتها المشاة . ويستطرق الداخل الى حديقة كبيرة فيها عدة ابنية اكبرها البناء الذي يقيم فيه المعتصم . وسائر الابنية للحاشية وفي جملتها بناء للاضياف وآخر للسباع لان المعتصم كان مولعاً باقتنائها وكثيراً ما يركب لاقتناصها

وصل ضرغام الى ذلك القصر في ضحى ذلك اليوم فلما اقبل على الباب وقف له الحرس وحيوه فدخل على جواده وترجل وردان وقاد فرسه في اثره . اما ضرغام فلم يترجل حتى دنا من قصر الخليفة فتناول وردان فرسه وساق الفرسين الى الاسطبل فرحب الحاجب بضرغام فسأله عن المعتصم فقال « انهُ خرج بالامس للقنص ولم يعد بعد »

قال « وهل تظنه يعود الساعة ؟ » قال « لا يلبث ان يأتي »

فادخله الحاجب الى قاعة يستريح بها ووقف بين يديه واخذ يرحب به ويسأله عن صحته وسفره فطمأنهُ انه عاد سالماً وسألهُ عن الاحوال الجارية لعله يستطلع سبب استقدامهِ فلم يرَ موجباً لذلك فتحير في امره . ومكث وهو يتشاغل بمشاهدة ما حدث في ذلك القصر من الرياش الجديد . ثم رأى ان يخرج للحديقة يتفرج بما فيها من الاشجار والرياحين فرافقه الحاجب الى بعض اطرافها واذا باهل القصر في هرج وضوضاء وقد صاح صائحهم ان الخليفة عائد فتحول القوم نحو الممر المؤدي الى القصر واخذت طلائع الموكب تتقاطر بين فرسان ومشاة ثم اقبل الخليفة على جواده وعليه لباس الصيد فوق الدرع التي يلبسها اذا خرج للصيد خوفاً من وثوب السباع او غيرها من الضواري

وكان المعتصم ربع القامة طويل اللحية ابيض اصهب مشرباً حمرة تلوح الشجاعة في وجهه وتتجلى القوة العضلية في بدنه وبلغ من قوته انهُ كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات[1] واذا اعتمد باصبعه السبابة والوسطى على ساعد انسان دقّه وكان يلوي العمود الحديد حتى يصير طوقاً ويشد على الدينار باصبعه فيمحو كتابته[2] وكان غضوباً شديد النقمة منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة فلما وصل الى باب القصر ترجل وحيّا الوقوف واكثرهم من القواد والفرسان فوقع بصره على ضرغام فهش له وحيّاه فاسرع ضرغام اليه واكب على يده يقبلها فمنعهُ وقال « انت هنا يا ضرغام ؟ »

(١) تاريخ التمدن ١٠٩ ج ٢ (٢) سير الملوك ١٦٢

قال « جئت يا مولاي طوعاً لامرك »

قال « وددت ان تكون هنا البارحة لتذهب معي في هذا الصيد »

قال « وانا اشتهي ذلك يا امير المؤمنين .. لازلت ظافراً غانماً »

وبعد ان حوّل الخليفة وجهه نحو القصر تراجع كأنه تذكر شيئاً واشار الى الوقوف فانصرفوا واستبقى ضرغاماً ثم قال له « الساعة ادلك على شيء يسرك فقد اصطدت اسداً هائلاً . ولا ارى اسداً الاّ تذكرتك لانك تسمى ببعض اسمائه » ثم اشار الى الحاجب فوقف بين يديه فقال له « قل لاصحاب الصيد ان يأتوا بالاسد الى تلك المصطبة » ومشى الخليفة الى مصطبة في بعض جوانب الحديقة وهو يراعي ضرغاماً ويخاطبه واغتنم ساعة الانتظار واخذ يسأله عن سفره فقال « ارجو ان تكون قد وفقت في هذه الرحلة الى ما يسرنا »

قال « قد صدعت بامر مولاي فرافقنا توفيقه فابتعنا الجواري ... »

فقطع كلامه قائلاً « انت ابتعتهن ؟ »

قال « كلا يا مولاي ... لا اقدر ان اكون تاجراً ولكنني ساعدت الجماعة في ابتياع ما يلزم وهم يكونون هنا قريباً وانما تعجلت في المجيء طوعاً لامر امير المؤمنين »

فلما قال ذلك بدا الاهتمام في وجه المعتصم واطرق ثم قال « سنتكلم بذلك بعد قليل » والتفت نحو باب الحديقة بابرقت اسرته واشار الى ضرغام فالتفت فاذا بجماعة يحملون قفصاً من قضبان الحديد على اعمدة . وفي القفص اسدٌ هائج يكاد الشرر يتطاير من عينيه . فلم يتمالك ضرغام عن اقطاب حاجبيه هيبة وكأن شيئاً جاش في خاطره اذ تمثلت لهُ الشجاعة في وجه ذلك الحيوان المفترس +

اما المعتصم فكان لايزال واقفاً فلما اقتربوا بالقفص منه امرهم بوضعه على الارض فوضعوه والاسد يزأر زئيراً هائلاً تصطك له المسامع فقال المعتصم « انه يزأر من شدة الالم لاني رميته بنبل اصاب لبته واخشى ان يموت منه واحب ان يبقى حياً لانتمتع بشمر هذا الصيد كلما رأيته » قال ذلك ومشى نحو القفص وضرغام الى جانبه والوراء تأدباً حتى اصبحا على بضعة اذرع من الاسد وكان بيد الخليفة نبل ليس معه من الاسلحة سواه لان صاحب لباسه تناول اسلحته ساعة وصوله . واستبقى النبل بيده يتشاغل به فلما دنا من القفص اخذ يداعب الاسد ويشير اليه بالنبل كانه يهمّ بضربه والاسد يزأر ويتململ والدم يقطر من لبته وقد جمد بعضه على صدره وقائمتيه واحمرت

عيناه وتناعستا فتوهم المعتصم انه يموت فرمى النبل عليه لمداعبته فاصاب عينيه فهبّ الاسد غضباً والماً ووثب يطلب الخليفة فلطم رأسه قضبان الحديد فارتد وقد اشتد غضبه كالجنون والمعتصم وضرغام ينظران اليه ويظهران الاستهزاء بحركاته وقلباهما يخفقان لان للاسد رهبة ولو كان في حال الاحتضار

وهم في ذلك وضرغام يتفرس في الاسد وقد شاركه بمصابه لانه تصور نفسه في مثل حاله واذا به قد ضرب جانب القفص برأسه ضربة حلت منه قضيبين وافلت فذعر الناس ولم يبق احد منهم الا هرب وهم يدوسون بعضهم بعضاً الا ضرغاماً والخليفة . ولم تكن الا لحظة حتى تبين للناس ان الاسد لا يطلب غير الخليفة وقد وثب عليه كلمح البصر وقبض بمخالبه على جانبه وفتح فماً كالمغارة وهمّ ان يلتقم رأسه فبغت المعتصم واخذ يبحث بعينيه ويده السائبة عن اداة او سلاح واخذته الدهشة فذهبت قوتهُ او نسيها فاصبح لا يجد شيئاً يدفع به عن نفسه ولا يرى وسيلة للنجاة من براثن الاسد وقد تفرق الناس من بين يديه خوفا ودهشة الا ضرغاما وكان اقربهم اليه فانقض على الاسد وقبض على فكه الاسفل بيد وعلى الاعلى باليد الاخرى وهو يقول « لبيك يا مولاي .. انك سالم باذن الله » وما عتم ان سمع الخليفة تمزيق شدقي الاسد . فتخلى الاسد عن فريسته وتحول الى ضرغام فرمى به ضرغام بعيداً واستل خنجره وأسرع اليه قبل ان يتجمع للوثوب وقعد على جنبه وطعنه طعنة في لبته وأخرى في خاصرته وأخرى تحت ابطه وقد استفرس وغلبت عليه القوة الغضبية حتى اصبح منظره اعظم هيبة من الاسد فوقف شارباه واحمرت عيناه وتقطب حاجباه وكاد ينهش ذلك الوحش باسنانه

وحدث جمود في الحضور لحظة ثم رأوا الاسد مضرجاً بدمه وضرغام فوقه والخليفة واقف وعيناه شائعتان نحو ضرغام فتقاطروا وعلا صياحهم يهنئون الخليفة وينظرون الى ضرغام نظر الاعجاب . ولم يتمالك المعتصم ان نظر اليه وابتسم له والاصفرار غالب على سحنته من اثر البغتة ونسي موقفه فقال « ضرغام بورك فيك من اسد انك والله ضرغام حقيقة »

فلما سمع اعجاب الخليفة رجع الى رشده فوقف والخنجر في يده يقطر دماً ثم رمى الخنجر بين يديه وقال « اني عبد امير المؤمنين ولم أفعل شيئاً الا ببركته وانا اعلم انه اولى مني بالانتقام من هذا الوحش ولو ترك لنفسه لم يعجزه قتله ولكنني غلبت على وجداني فلم استطع صبراً على ما رأيته من جرأته فقمت بقتله عن مولاي وهي

جسارة اعتذر عنها »

فاعجب المعتصم باسلوبه في الاعتذار وازداد امتنانا له ورأى ان يؤجل ما بقي عنده من الكلام لخلوة وأراد المسير فاحسّ بالم في فخذه من اثر مخلب الاسد ولكنه تجلد ومشى وأمر القوم بالانصراف وتحوّل مع ضرغام الى قصره وامر الحاجب ان يمنع اياً كان من الدخول عليه في ذلك اليوم الا الطبيب فامر باحضاره ولم تمض لحظة حتى اتى الطبيب فخلا بالخليفة وكشف عن فخذه فلم يجد اثراً يستحق الاهتمام لان الدرع صانت مواقع المخالب فهنأه بالسلامة واشار عليه ان يمكث في الفراش بقية ذلك اليوم وخرج

الفصل التاسع والعشرون

الخلوة

وتسامع اهل الجوسق بما اصاب الخليفة فتقاطر الوزراء والقواد للسؤال عنه فانبأهم الحاجب بما اوصاه به فرجعوا الا ضرغاماً فان الخليفة دعاه الى مخدعه فدخل بعد ان غسل يديه واصلح من شأنه . فتحفز المعتصم للوقوف له اظهاراً لاعجابه فاكب على يده يقبلها ويعتذر عن جسارته فامر له بالجلوس الى جانبه فجلس جانياً متأدباً فقال له المعتصم « ان حياتي الآن من يدك يا ضرغام »

فاطرق ضرغام استحياء وقال « العفو يا مولاي اني لم افعل شيئا يستحق هذا الاطراء لان الاسد انما مات من نبل امير المؤمنين الذي اصابه في لبته من قبل وما وثوبه هذا الاّ من مجاهدة الاحتضار . وهب اني فعلت شيئا فانا عبد امير المؤمنين افديه بدمي »

قال « بورك فيك . . اني طالما اعجبت ببسالتك واخلاصك وانا محاط بالمداحين والمملقين لا اثق الا بقليلين منهم وان كنت اظهر وثوقي بهم جميعاً . وان قائداً مثلك يندر في بلاط الخلفاء في مثل هذا الجيل الفاسد .. ولم اكن اجهل اخلاصك من قبل ولذلك جعلتك رئيس حرسي فانت جدير بهذا المنصب ولا يليق الا بك » ثم بلع ريقه والتفت نحو الباب ثم نحو النافذة كانه يتجسس المكان ليتحقق خلوه من الرقباء واطرق هنيهة وسكت وضرغام مطرق وهو ينظر اليه خلسة ثم رفع المعتصم راسه وقال « اتعلم لماذا اسرعت في استقدامك من فرغانة ؟ »

قال « كلاّ يا مولاي »

قال « هل تعلم انك بين يدي المعتصم ؟ . »

قال « نعم يا سيدي اعلم ذلك »

قال « وتعلم ان دولتنا قامت بالمحافظة على الاسرار ؟ »

قال « نعم اعلم ذلك ويتأكد مولاي اني احفظ لسره من صدره »

قال « اعلم اني وثقت بك واعتقدت فيك الاخلاص وصدق الخدمة منذ رايتك للمرة الاولى وقد شعرت بشيء حبيك الي ... »

فتحفز ضرغام للنهوض احتراماً لذلك التصريح وهو يقول « تلك منة لا استحقها ومن اين لجندي مثلي ان ينال هذه الحظوة عند امير المؤمنين واي فضل لي اذا اخلصت الخدمة لخليفة الرسول اليس ذلك فرضاً على كل مسلم ؟ »

فقال وهو يقعده بيده « بلى . ان ذلك فرض على المسلمين ولكن المخلصين قليلون ولو لا ذلك ما اضطررت الى الخروج من بغداد وانشاء هذه المدينة ولا كان ثمة داع لتجنيد هذه الاجناد من اقصى تركستان وفرغانة لاستعين بهم على قومي وعشيرتي وعلى أولئك الفرس الذين اطمعهم اخي المأمون رحمه الله بالدولة ... اني محاط بالاعداء من كل ناحية .. لا يكفيني الاعداء الاباعد في اذربيجان وطبرستان فان الاعداء يقيمون في مدينتي وفي قصري ... ان هؤلاء الاتراك الذين جعلتهم بطانتي وعهدت اليهم حمايتي ونصرة هذه الدولة .. حتى هؤلاء لا ينصرونني الاّ طمعاً بالمال ... اني اعلم ذلك وانا صابر لهم اسايرهم واخادعهم وانفق الاموال فيهم وهم يظنون انهم يخدعونني ... » وسكت وقد بدا الاهتمام في عينيه فابرقتا بريقاً يوهم الناظر اليهما ان الدمع يغشاها فتهيب ضرغام من ذلك واطرق ينتظر ما يبدو من الخليفة

ثم رفع الخليفة بصره اليه وقال « ضرغام .. هل شاهدت الافشين في فرغانة ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

قال « وما الذي ذهب به الى هناك ؟ »

قال « لم يخبرني بسبب ذهابه ولكنني اظنه ذهب يتعهد بلده واهله في عيد النوروز .. واظنه قادماً قريباً »

قال « انه قادم طبعاً لانه لا يجد رزقاً اوسع من هذا ولكن .. »

فقال « وهل امير المؤمنين في ريب من اخلاصه ؟ »

قال « اني في ريب من ذلك وان كنت لا أجد سبباً صريحاً لارتيابي على اني اغالط نفسي واظهر الثقة به لاننا في حرب لا غنى لنا فيها عن الافشين ورجاله واتمنى ان اكون مخطئاً بظني والذي ابغيه منك الآن ان تكون موضع ثقتي ولا تفارق قصري ... »

فاجابه على الفور « اني عبد امير المؤمنين وطوع اشارته »

قال « وانت منذ الآن صاحبي ومع ان اسمك اليق الاسماء بسالتك فقد اخترت لك اسم « الصاحب » فانت من هذا اليوم تسمى الصاحب لانك لا تزال مصاحبي افهمت يا صاحب .. »

فحنى ضرغام رأسه شكراً وامتناناً وقال « لقد تكاثرت عليّ نعم امير المؤمنين ولا اراني اهلاً لها ولكنه اراد ان يرفع صنيعته و .. »

فقطع الخليفة كلامه قائلاً « كيف لا تكون اهلاً لذلك وانت انقذت حياتي من بين براثن الاسد ؟ »

فزاد ضرغام استحياء وخجلاً وقلبه يرقص طرباً لعلمه ان ترقيه في عيني الخليفة وتقريبه اليه يسرّ حبيبته جهان ويشعر انه صار اهلاً لها — والمحبون انما يطلبون العلى ارضاء لاحبائهم — ولكنه نظر الى الخليفة مغضياً وقال « لم اعد استطيع الشكر على نعم مولاي فاعذرني »

فقال اذا كنت تعدّ هذه السفاسف نعماً فكيف اذا علمت بما اعددته لك من النعم الحقيقية ؟ »

فظل ضرغام ساكتاً واستأنف الخليفة الكلام قائلاً « قد علمت انك لم تتزوج بعد انما تقع موبم والدتك على حدة ... فاردت ان تقيما في قصر اخصصه لكما بجوار هذا القصر وقد آن لك ان تتزوج ... اليس كذلك ؟ »

فاطرق ضرغام باحترام وقال « الامر لمولاي »

قال « وقد اعددت لك جارية تركية من اجمل النساء عرفت فيها الذكاء والجمال . رأيتها منذ عام وبعض العام وما زلت منذ رأيتها وانا اضمر ان تكون زوجة لك »

فلما سمع ضرغام قوله اسقط بيده لان قلبه ليس له .. وقد احب جهان ولا يريد ان يحب سواها ولكنه لم يستطع مخالفة الخليفة ولا استطاع التأمين على قوله فظل ساكتاً وقد حار في امره

فراى المعتصم حيرته فلم يخطر له انه يرد طلبه فقال « لماذا لا تجيب ؟ الم يعجبك

افتراحي ؟ »

قال « كيف لا فان جوار امير المؤمنين غاية مرادي » وسكت عن امر الزواج فظنه الخليفة سكت حياء فقال « والزواج .. العلك تختلف عن سائر النساس وليس في جندي واحد لا يتمنى الزواج ولذلك فانا ابعث في ابتياع الجواري لهم من تركستان لهذه الغاية كما تعلم لاني لا احب اختلاطهم باولئك السوقة ببغداد وغيرها لئلا يغلب عليهم التخنث ام لعلك تفضل ان تختار لنفسك جارية من الجواري اللواتي ابتعتموهن في هذه السفرة . ولكني واثق انك لا تجد في تركستان كلها فتاة اجمل من التي اخترتها لك . ويكفي ان اختياري وقع عليها وانا اعلم ان قوادي يتنازعون فيها لفرط جمالها وذكائها ولكنني قد اختصصتك بها دونهم .. »

فلم يجد ضرغام سبيلاً للجواب ولا استحسن التصريح بما في خاطره واجل القطع بذلك لفرصة اخرى فقال « ان الزواج لا عجلة فيه الآن ونحن اما في حرب او نتاهب لحرب ومتى فرغنا من ذلك فاني طوع اشارة امير المؤمنين »

فاكتفى المعتصم بما سمعه واعجبه منه تأهبه للحرب واراد طمأنته فقال « وهب اننا في حرب فلست تاركك تفارق قصري .. وسترى . وانما اتقدم اليك ان تنتقل بوالدتك الى هنا كما قلت لك واخبرها ان اسمك من اليوم « الصاحب » وسأوصي بطانتي وقوادي وسائر رجال دولتي بذلك » ثم تزحزح من مكانه بشكل فهم منه ضرغام انه ياذن بانصرافه فتحفز للنهوض وهو يقول « اياذن امير المؤمنين بانصرافي لاخبر والدتي بما امر ؟ »

قال « انصرف اذا شئت وانا موعز الى القهرمانة ان تهيء لكم المنزل اليوم »

فمشى ضرغام ووجهه نحو المعتصم حتى صار بالباب وخرج . فصاح الخليفة بالحاجب فدخل وامره بما تقدم

اما ضرغام فبعث الى وردان فجاءه بالفرس فركبا وسارا يلتمسان البيت وضرغام غارق في بحار الهواجس تتقاذفه الافكار وقد سره اعجاب الخليفة به ودعوته اياه ليقيم بقربه ولكن ساءه امر الزواج على انه لم يعلق عليه كبير اهمية اذ لا دخل له بالسياسة فيسهل التخلص منه

الفصل الثلاثون

رأي آفتاب

فلما وصل الى منزله سبقه وردان فبشر والدته بقدومه فعرفت وردان من صوته وتلطفت بالسؤال عن حاله ثم وصل ضرغام فتلقته والدته وقبلته وكانت قد اعدت له الطعام فجلس على المائدة وفكره مشتغل بما سمعه من الخليفة فشعرت آفتاب بالتغير الذي طرأ عليه في تلك الغيبة من سكوته فقالت « هل لقيت امير المؤمنين »

قال « نعم يا اماه لقيته »

قالت « كيف هو وهل اخبرك بسبب استقدامك السريع ؟ »

فأبطأ في الجواب لانه خاف اذا قال لها كل شيء ان يكون قد خالف الوعد واباح بالسر ثم قال « قد اخبرني .. ولكن حدث امر غريب »

قالت « وما هو ؟ »

فقص عليها خبر الاسد وما كان من دفاعه عن الخليفة فانشرح صدرها وبان ذلك في محياها ثم اخبرها ان الخليفة غير اسمه ونهى عن ان ينادى ضرغام وانما ينادى « الصاحب » وذكر لها السبب فزاد سرورها بتلك القربى ثم قال « وقد دعاني للاقامة بجواره »

وكانت تقتطع لقمة من الرغيف لتتناولها فلما سمعت قوله ظهر الارتباك بانامله وشخصت بعينيها البيضاوين اليه وقالت « دعاك للاقامة بجواره ؟ . لماذا ؟ »

قال « لا كون ملازماً له ... وذلك اكرام عظيم »

قالت وقد توقفت عن ازدراد ما في فيها من الطعام « هل يريد ان اكون انا معك ايضاً ؟ »

قال « نعم وقد ذكرك على الخصوص وقال تسكن انت ووالدتك هنا »

فتغير لونها وتشاغلت بالمضغ وبان قلقها من تسرعها فيه وقالت « اذهب انت وحدك .. ولا حاجة بي الى الاقامة بقصر الخليفة »

قال « ولماذا يا اماه .. اذا كنت لا تريدين الذهاب معي فانا ايضاً لا اذهب »

قالت « اذهب ان القربى من الخليفة شرف يتمناه القواد واما انا فامكث هنا على ان يتردد اليّ حيناً بعد آخر لاملك واقبلك »

فتعجب ضرغام من استنكافها وابائها وقال « بل تذهبين معي فنقيم هناك كما نقيم هنا وقد وعدت الخليفة بذلك ولا سبيل الى التغيير »

فوجمت حيناً ثم قالت « ننظر في ذلك بعدئذ »

قال « ليس لنا وقت للتفكير فاننا منتقلون في الغد . ري مسعودة بالاستعداد وساوصي وردان ان يساعدها . ولا ريب انك ستستأنسين بمن في قصر الخليفة من النساء فتقضين ساعات النهار بالتسلية والاحاديث او سماع الغناء وذلك افضل من بقائك منفردة هنا . وزد على ذلك اني في حاجة الى وجودك هناك لامر يهمني انا »

فتصاعد الدم الى وجنتيها وتغيرت سحنتها ودارت عيناها دورة تكاد تنطق بما اعترض فكرها من الارتباك وقالت « اما الاستئناس فلا ابغيه من سواك فانت تعزيتي الوحيدة لا اطلب سواها .. بل انا اشترط عليك اذ كان لابد من اقامتي هناك ان تطلق لي الحرية بالبقاء في المنزل لا اخرج الى احد . وقد ذكرت انك تحتاج اليّ فما هي حاجتك وهل اقدر على شيء وانا كفيفة البصر كما ترى ؟ »

قال « انت ضوئي وان كنت ضريرة وسأوسطك في انقاذي من سعادة قد اعدها الخليفة لي »

قالت « انقاذك من سعادة ؟ ماذا تعني ؟ »

قال « اعني ان الخليفة لفرط اهتمامه بسعادتي قد خطب لي جارية تركية قال انها أجمل نساء هذه المدينة وانه احتفظ بها من اجلي وقواده يتنازعون عليها »

قالت « وماذا قلت له ؟ »

قال « اجلت الجواب لاني استحييت من الرفض »

قالت « هل انت عازم على رفضها ؟ »

قال « وكيف اذاً . هل اقبل بها ؟ »

فسكتت وتذكرت انه عالق القلب بجهان فقالت « وكيف ترفض امر الخليفة ؟ »

قال « وجهان ؟ البست هي عروسي ؟ »

قالت « لذلك انت تحب ان اكون معك .. تريد ان احتال لانقاذك من هذه الخطبة .. ان ذلك هين »

فانشرح صدره وقال « اذاً غداً ننتقل جميعاً .. قولي لمسعودة ان تستعد للانتقال .. واحذري من الآن وصاعداً ان تنادبني ضرغاماً فان اسمي « الصاحب » كما قلت لك واذا

دعيتني بغير هذا الاسم يستاء الخليفة »

قالت « لك عليّ ذلك » وكانوا قد فرغوا من الطعام فامرت آفتاب مسعودة بالاستعداد وهو امر وردان بمساعدتها

وفي اليوم التالي انتقل الجميع الى قصر الخليفة واقاموا في منزل بجانبه وليس معهم من الخدم الخصوصيين الاّ وردان ومسعودة . اما حاجياتهم فيقضيها خدم الخليفة

الفصل الحادي والثلاثون

احمد بن ابي دواد

قضى الصاحب في جوار الخليفة اياماً وهو يتوقع ان يسمع خبرًا عن جهان او يأتيه نبأ بقدومها وقد ازداد رغبة في سرعة مجيئها للتخلص من الجارية التي دبرها له الخليفة . ولم يكن يرتاب في ان الخليفة اذا رأى جهان زهد في سائر نساء الارض فلا يلومه حينئذٍ اذا ابى التزوج بسواها . وطال غيابها حتى استبطأها وشغل خاطره لتاخرها وانقطاع اخبارها وضاق صدره عن كتمان ذلك القلق فاستدعى وردان اليه ذات يوم فلما حضر قال لهُ « ما قولك باهل فرغانة »

ففهم وردان قصده وقال « اتعني مولاتي جهان؟ »

قال « طبعاً اعنيها هي وقد كنت على موعد من قدومها الى هنا بعد انقضاء مدة الحزن فمضت عدة اسابيع ولم تأتِ ولا سمعنا عنها خبرًا فما رأيك ؟ »

قال « اتريد ان اذهب للتفتيش عنها ؟ »

فاستغرب الصاحب تفانيه في سبيل خدمته وابتسم لهُ وقال « بورك فيك ياوردان . . لا اكلفك هذه المشقة ولكنني استشيرك في الامر »

فاطرق وردان واعمل فكرته ثم قال « الرأى عندي ان تصبر مدة اخرى لاتكون طويلة نصبر حتى يصل مولانا الافشين فانه عائد من فرغانة كما تعلم »

قال « ومتى يكون هذا ؟ »

قال « جاءت البشائر بقرب وصوله فاذا جاء سألناه او سالنا بعض رجاله لانهم قادمون من هناك حديثاً »

فاستحسن ضرغام قوله « بعض رجاله » فقال « ارى ان تتولى انت امر البحث في هذا الشأن من بعض رجال الافشين »

قال « فهمت مرادك . وهذا ما خطر لي ولم اجسر ان اعارضك »

فضحك الصاحب (او ضرغام) واظهر الاستئناس برأي وردان وقال « لاتكتم رأياً ترى فيه مصلحة لي واعلم اني اعدك منذ الآن رفيقاً لي لا خادماً لاني اراك ارقى من ذلك كثيراً »

فاطرق وردان احتراماً وقال « اني لا أزال خادمك اتفانى في خدمتك . اتأذن لي ان اذهب لملاقاة حملة الافشين قبل وصولها »

قال « افعل ما بدالك »

فودعه وخرج

ومكث ضرغام ساعة في قصره ثم جاءه رسول من المعتصم يدعوه اليه فلبس سواده وذهب الى القصر فقيل له ان المعتصم في خلوة مع قاضي القضاة احمد بن ابي دواد في دار الخاصة وانه امره بادخاله عليه حال وصوله

وكان ضرغام يعرف منزلة ابن ابي دواد عند الخليفة وانه لا يختلي به الا لامر ذي بال فاستاذن ودخل فراى الخليفة جالساً على سريره في صدر القاعة واحمد بن ابي دواد على كرسي بين يديه

وكان احمد هذا معروفاً بالمروءة والعصبية ومع انه عربي الاصل ينسب الى بني اياد والمعتصم قد ابعد سائر العرب من مجلسه وقطع اعطياتهم وحط من اقدارهم واختص الاتراك ببطانته فقد كان شديد الثقة به لا يمضي امراً الا بمشورته ولا يشاور وزراءه

واصل ابن ابي دواد من قرية في قنسرين وانجر ابوه الى الشام واخرجه معه وهو غلام فنشأ في طلب العلم ولا سيما الفقه والكلام حتى فاق معاصريه وكان معتزلياً فصيحاً قوي الحجة ونال عند المعتصم حظوة ودالة لم يسبقه اليهما احد حتى صار يفتتح الكلام في حضرته وكانت العادة عند الخلفاء ان لا يبدأهم احد بالكلام حتى يخاطبوه . ومن أمثلة دالته هذه ان المعتصم غضب مرة على خالد بن يزيد الشيباني واشخصه من ولايته لعجز لحقه في مال طلب منه واسباب غير ذلك . فجلس المعتصم لعقوبته وكان قد طرح نفسه على القاضي احمد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم فلما جلس لعقوبته حضر القاضي احمد فجلس دون مجلسه الاعتيادي فقال له المعتصم يا ابا عبد الله جلست في غير مجلسك . فقال ماينبغي لي ان اجلس الا دون مجلسي هذا . فقال له

وكيف قال لان الناس يزعمون انه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع . قال فارجع الى مجلسك . قال مشفعاً او غير مشفع قال بل مشفعاً فارتفع الى مجلسه . ثم قال ان الناس لا يعلمون رضا امير المؤمنين عنه ان لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه فقال يا امير المؤمنين قد استحق هو واصحابه رزق ستة اشهر لا بد ان يقبضوها وان امرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة فقال قد امرت بها . فخرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه وان الناس في الطرق ينتظرون الايقاع به فصاح به رجل الحمد لله على خلاصك ياسيد العرب فقال له اسكت سيد العرب والله احمد بن ابي دواد [1]

هذا مثل من عدة امثلة تدل على نفوذ ابن ابي دواد ولم يكن ذلك خافياً على ضرغام فلما دخل على المعتصم والقاضي احمد عنده علم انه دعي لامر ذي بال . فلما اقبل على الخليفة حياه بتحية الخلافة قائلاً « السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »

فهش له المعتصم وناداه اليه وامره بالجلوس على كرسي بجانب احمد وهو يقول « مرحباً بالصاحب » والتفت الى القاضي وقال « اظنك تستغرب تسميتي هذا القائد بغير اسمه فاعلم اني عملت بحسن رأيك فيه فقد طالما اثنيت على شهامته واخلاصه وقد رأيت منه فوق ما وصفت حتى عرض بنفسه للموت من اجلي . . انه انقذني من براثن الاسد ببسالته فقربته وسميته الصاحب وهو الآن يقيم في بعض قصوري . . »

وكان ابن ابي دواد في نحو الستين من عمره قد وخط الشيب لحيته وعارضيه فازداد جلالاً ووقاراً وهو يلبس زي القضاة بالعمامة الطويلة والطيلسان الرفيق فلما سمع اطراء المعتصم وترحيبه بضرغام هش له وحياه والتفت الى المعتصم فقال « ألا يرى امير المؤمنين ان حسن ظني في محله ؟ . اني من يوم رأيت الصاحب لاول مرة نزل من نفسي منزلاً رفيعاً وتوقعت له مستقبلاً مجيداً اعانه الله على خدمة امير المؤمنين »

فقال المعتصم « وبناء على ذلك فأرى ان لا تخفي عنه ما يدور بيننا »

---

(١) ابن خلكان ٢٥ ج ١

الفصل الثاني والثلاثون

القواد والاتراك

وكان ضرغام قد جلس متأدباً ينظر ما يأمر به الخليفة فقال الخليفة « اعلم ياصاحب اني كنت والقاضي نتداول في ما بلغنا من اخبار ذلك المجوسي في ارمينيا »

فعلم ضرغام انه يعني بابك الخرمي القائم على الدولة في اردبيل وكان عالماً بقيامه وبوقائع جرت بينه وبين جند المسلمين ولم يظفروا منه بطائل حتى استفحل امره فقال « وهل احدث هذا الرجل حدثاً جديداً »

فقال القاضي « لايخفى عليك ان بابك الخرمي تمرد على امير المؤمنين بارمينيا فرماه بالافشين ورجاله مرة وبيغا ورجاله مرة أخرى والمسافة بيننا وبين ارمينيا بعيدة فكانت الحرب سجالاً ولا يزال الرجل معتصماً هناك وامير المؤمنين .. » قال ذلك ونظر الى المعتصم فقطع المعتصم كلامه قائلاً « قلت لك ياصاحب انى لا اثق بالافشين هذا ولا اعلم كيف استغني عنه وقد شاهدته انت في بلاده وبين اهله وعشيرته فكيف رأيته هناك ؟ »

قال « ان لهذا الرجل سطوة عظيمة في تلك البقاع انهم يعدونه ملكاً كبيراً ويسمونه ملك الملوك وبعضهم يخاطبه بالاله الاهة كانوا يفعلون ذلك قبل اسلامه اما الآن فهو يستكف من ذلك وقد رأيت يا أمير المؤمنين من نفوذ كلمته عندهم شيئاً عظيماً حتى يجتمع لندائه الوف الالوف من الرجال . واذا رأى امير المؤمنين ان يخرجه من خدمته فانه فاعل مايشاء واذا شاء ان يرمي بي في مكانه بذلت دمي وروحي في مصلحته . لا ازعم اني اقدر على مايقدر عليه ذلك الرجل ولكنني اعترف باني طوع ارادة امير المؤمنين والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء »

فقال القاضي وهو يوجه خطابه الى المعتصم « ان الصاحب يعبر عن اخلاصه وتفانيه في خدمة الدولة ولكنه لوسئل عن عاقبة هذا التبديل لما جهل الخطر الذي يترتب عليه . لا ارى ان يعلم الافشين او احد من رجاله بما يخالج خواطرنا من هذا القبيل واذا اذن امير المؤمنين قلت رأياً لعل فيه نفعاً »

فقال « قل ما بدالك » والتفت الى ضرغام وقال « ان القاضي احمد ينوب لدينا

عن الوزراء والمشيرين فعندنا من الوزراء والخاصة غير واحد كما تعلم ولكنني لا أثق باحد منهم وثوقي به .. قل ايها القاضي »

فقال « ان الافشين ملك في بلده وعنده الجند والاعوان وقد رضي بخدمة امير المؤمنين طمعاً بالمال ... ويتحدث بعض الناس انه لايخدم المسلمين الا لذلك ولو ترك لرغبته لانضم الى بابك وحاربنا . وهو اذا صح اسلامه فلا يزال حديثاً فيه فاذا جافيناه انقلب علينا واذا اتحد مع بابك اخشى اتحادهما لاسباب لاتخفى على امير المؤمنين .. والذي اراه ان نظهر له الثقة باخلاصه ونشتريه بالمال هو ورجاله ونضرب بهم ذلك المجوسي المتمرد في ارمينيا فاذا غلبوه كفونا شره واذا انضح لامير المؤمنين بعد ذلك خيانة الافشين هان علينا الاقتصاص منه اذ يكون منفرداً . واذا كان مخلصاً نال ما يستحقه من الرضى والنعم »

فاحس ضرغام عند سماع قول القاضي ان الرجل يتكلم عن تعقل ودهاء ولو ترك هو لنفسه لم يصل الى هذا الحكم لانه من اهل الشجاعة وليس من اهل الرأي و يندر اجتماع الشجاعة والرأي في واحد . فقال الخليفة « ارى قاضي القضاة يبالغ بتخويفنا من هذا الفارسي او الاشروسني وقد فاته من في جندنا من القواد العظام وكل منهم يدافع عن دولتنا برجاله وعدته »

قال « صدق امير المؤمنين عنده اشناس التركي وايتاخ وبغا وسيما وغيرهم ولكن هؤلاء نشأوا من العامة ليس لاحد منهم ما للافشين من الهيبة في نفوس الجند قد سمعنا الآن ماقاله هذا الرجل من السطوة في قومه وهم الوف الالوف فاذا اغضبناه لايقوم هؤلاء مقامه . ولولا تمرد بابك هذا لم نكن لنخشى بأس الافشين ولا سواه . وانت يا امير المؤمنين شجاع باسل وقد ايدك الله بالخلافة فلا ترى الركون الى الحيلة او الصبر على المكاره ولكننا نعلم من الحديث المأثور انه قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة واذا وثقت بي فهذا رايي والا فأنا وسائر رجال الدولة رهن ما تريد نبذل دماءنا وارواحنا في طاعتك »

فالتفت المعتصم الى ضرغام كانه يستفهمه رأيه فقال ضرغام « اني لا ارى رداً على قول قاضي القضاة ولم اكن لافطن لما فطن هو له من حسن السياسة وقد سمع امير المؤمنين جوابي فاني رجل سيف اصدع بالامر فاذا رميت بي اذربيجان اوتركستان او ارمينيا ركبت اليها ودمي على كفي ولكن الصواب في ما قاله القاضي والراي طبعاً يرجع الى امير المؤمنين »

فقال المعتصم « قد انتدبتكما الآن للنظر في هذا الامر لسببين الاول ان طلائع

الافشين جاءت تبشر بقرب وصوله والثاني قد جاءنا جاسوس من ارمينيا ان بابك الملعون قد استفحل امره وربما تحرك نحونا فلا ينبغي ان نمكث هنا في انتظاره . »

قال القاضي « لااظنه يجسر على القدوم وانما هو يقنع ان نتركه في مكانه وفي كل حال فالذي اراه ان نحتفل بقدوم الافشين ونبالغ في اكرامه حتى نفرغ من حاجتنا اليه »

فقال المعتصم « قد عودتني ان لا اخالف لك رأياً وها اني مرسل اليه من يلاقيه بالهدايا والتحف »

الفصل الثالث والثلاثون

المسجد الكبير

وهم في ذلك سمعوا صوت الاذان لصلاة العصر فتحفز الخليفة للقيام وصفق فجاء الحاجب فامره ان يخبر صاحب وضوئه بقرب الصلاة وانه سيصلي العصر في المسجد الكبير »

فلم يبق لضرغام والقاضي بدٌّ من الذهاب الى الصلاة معهُ في ذلك المسجد وهو مسجد سامرّا بناه المعتصم وبالغ في اتقانهِ على شكل لم يسبق لهُ مثيل في الاسلام فجعل جدرانه مرايا وخصوصاً المحراب حتى اذا وقف الخليفة للصلاة رأى من يدخل المسجد من خلفه وبنى له منارة عظيمة على شكل لولبي مكشوف يصعد اليها على درج لولبي في ظاهرها يشبه منارة جامع ابن طولون في مصر[1] او لعل ابن طولون بناها على مثال تلك . وكان المعتصم يصلي غالباً في ذلك المسجد لانه على مقربة من قصره . فلما تحفز للنهوض استاذن احمد وضرغام في الانصراف وذهب كل منهما الى منزله توضى ويمم المسجد

دخل الخليفة اولا والناس وقوف للتبرك برؤيته وفيهم القواد والوزراء حتى اذا دخل المقصورة الخاصة بهِ دخل رجال الخاصة في اثره وفيهم القاضي احمد وعبد الملك الزيات وزيره وقواد الاتراك الذين ذكرناهم . واما ضرغام فدخل حتى وقف في جملة الحاشية وكانت المرايا في الجدران على شكل غريب يرى الناس صورهم فيها كان امامهم مسجداً آخر فيه اناس يصلون ووقف ضرغام في جملة الواقفين للقيام بفروض الصلاة

---

(١) سير الملوك ١٦٢ و E. Herzfeld, Samarra, Tafel 3

وبينما ضرغام واقف يصلي وعيناه على المرايا في المحراب يرى الناس يدخلون من الباب وراءه ممن يعرفهم ولا يعرفهم وقع بصره على رجل لم يكد يثبته حتى اجفل ولم يتمالك ان التفت الى الوراء ليتحقق ظنه فاذا هو مصيب في تخيله. وكان قد رأى بالمرآة صورة سامان اخي جهان وناهيك ببرآه من مدهش لضرغام وهو في ذلك القلق على جهان. فتلطف في التقهقر رويداً رويداً حتى دنا من الباب ورآه سامان يتقهقر فسبقه الى صحن المسجد فخرج ضرغام في اثره وهو يتفرس فيه ويكاد ينكره لما رأى في حاله من التغير عما يعلمه. فقد فارقه في فرغانة وعليه لباس اهل الوجاهة من الاقمشة الثمينة بالترتيب والنظافة مما يعوض عن قبح صورته بعض الشيء فرآه تلك الساعة في حالة يرثى لها من الضعف ورثاثة الثوب وقد ربط زنده وعصب رأسه ووقف ذليلاً كئيباً فأثر منظره فيه تأثير الاشفاق والخوف لئلا يكون قد اصاب جهان سوء فصاح به «سامان؟ ام انا غلطان؟»

قال «نعم انا سامان ياسيدي»

فقال «مايالك ماذا جرى لك؟ اين جهان»

قال «اذا اذنت لي بخلوة قصصت عليك كل شيء فقد تعبت من البحث عنك في سامرا وانا اسأل فلم يهدني اليك احد فاتيت المسجد لعلي أراك فاعرفك فتوفقت الى ذلك»

فاشار اليه ان يمشي في اثره في صحن الجامع وهو يقول «يظهر انك سألت عني باسمي القديم (ضرغام) وانا اليوم لا يعرفني احد بهذا الاسم وانما انا اسمى الصاحب.. قل اين جهان ماذا جرى لكم مالي اراك رث السربال على هذه الحال» وكانا قد انتهيا من الصحن الى بناء مربع بشكل الكعبة كان المعتصم قد بناه هنا ليحج الناس اليه بدل حجهم الى كعبة مكة واتخذ منى وعرفات[1] حتى لا يبقى له حاجة الى العرب ولا الى بلادهم وقلما افلح بذلك. وظل البناء باقياً فرأى الصاحب ان يدخل اليه للخلوة بسامان اذ لم يبق له صبر حتى يصل الى المنزل فدخل الكعبة واشار اليه ان يجلس على دكة هناك وهو يقول «اخبرني حالاً اين جهان وماذا جرى لكم»

فجلس وهو يتنهد ويتمكن وقال «احمل اليك خبراً لا يسرك»

فاضطرب ضرغام وقال «قل حالاً هل اصاب جهان سوء؟»

قال «لم يصبها سوء ولكن...» وبلع ريقه

قال «ولكن ماذا اين هي؟ قل»

(١) المقدسي ١٢٢

قال « لا ادري اين هي ياسيدي . . قد خطفها مني اللصوص » قال ذلك وتظاهر بالبكاء فصاح ضرغام صيحة الاسد وحملق عينيه وقد قفّ شعر شاربيه واصبح منظرهُ مخيفاً وقال « اختطفوها ! من تجاسر على ذلك ؟ »

قال « لا اعلم يا سيدي من هم اولئك اللئام الذين اختطفوها ولكنني استأذنك بالتمهل عليَّ حتى اقص عليك الخبر كما وقع »

فصبَّر ضرغام نفسه وتمالك وقال « قل ولكن اختصر ! »

قال « فارقتنا يامولاي وظللنا في فرغانة بعد سفرك بضعة ايام ذقنا فيها الامرَّين » قال ذلك وارسل بصره الى صحن الجامع وخفض صوته كانه يحاذر ان يسمعهُ احد فلما تحقق خلو المكان من السامعين قال « ان مصيبتنا اتت من اقرب الناس الينا . اتت من الرجل الذي اوصاه والدي بنا . فالافشين لم يكتفِ انهُ حرمني من ارث والدي حتى مدَّ يده الى اختي . . . »

فاقشعرَّ بدن ضرغام من ذلك التعبير مع اعتقاده انهُ يعني تعديهُ على حصتها من الارث كما تعدى على حصته ولم يخطر لهُ شيءٌ وراء ذلك فلما سمع قولهُ قال « اظنهُ طمع بشيء من حقها في الارث »

فتشاغل سامان بحك ذقنه الاجرود وتنحنح وظل ساكتاً فارتاب ضرغام في امره فقال « البس كما قلت لك ؟ »

قال « لو انهُ اكتفى بالارث لكان خيرًا ولكنهُ طمع فيها هي نفسها . . ويسوءني ان اغضبك بهذا الخبر ولكن هو الواقع ويجب عليَّ ان اصدقك . . ان الافشين على كهولته طلب الاقتران باختي ولا بد انهُ عالم بانها مخطوبة للبطل الصاحب وانها يستحيل ان تقبل بسواه »

فقال ضرغام وهو يرتعد من التأثر « وبعد ذلك . . ماذا فعل ؟ »

قال « لم يفعل شيئاً لاننا تداركنا الامر بالفرار ففررت انا وجهان في قافلة بما خف حملهُ من المال والمتاع ولم نخبر احداً من اهل القصر الا القهرمانة خيزران اخذناها معنا وركبنا بامرع مايمكن نطلب سامرَّا قبل ان يعلم الافشين بنا فقطعنا البراري والقفار وقاسينا عذاباً شديداً من الحر والبرد والتعب حتى دخلنا خراسان ودنونا من همذان . وقد فارقتنا القافلة وحسبنا انفسنا صرنا بامان . فاعترضنا قوم على خيولهم نظنهم من قطاع الطرق فدافعنا عن انفسنا دفاعاً حسناً جهد طاقتنا حتى تعطلت يدي وجرح رأسي وكنت اود ان اقتل وتبقى

جهان سالمة اكراماً لك ولكن .. »

فصاح بهِ « ولكن ماذا ؟ هل اصابها سوء .. اليست هي حية »

قال « هي حية ياسيدي ولكنهم خطفوها وذهبوا بها وبقهرمانتها وآخر كلمة سمعتها منها قولها « سلم على ضرغام واخبره بما جرى »

فتعاظم غضب ضرغام حتى غلى دمه واحمرت عيناه وقال « ومن هم اولئك اللصوص ؟ ألم تعرف احداً منهم ؟ »

قال « كلاَّ لانهم كانوا ملثمين ولم يفوهوا بكلمة ولا سمعنا لهم صوتاً كانهم فعلوا ذلك عنوةً خوفاً من انكشاف امرهم »

الفصل الرابع والثلاثون

همذان

فاطرق ضرغام مدة كان فيها كالضائع يحسب نفسه في حلم او كانهُ انتقل الى عالم آخر حتى انتبه لجلبة الناس في اثناء خروجهم من المسجد وتذكر ان الخليفة معهم فخاف ان يراه مختبئاً فيشك في امره فخرج واختلط برجال الدولة واشار الى سامان ان ينتظره فظل واقفاً في مكانهِ . وبعد قليل انفرج الوقوف وشقوا طريقاً للخليفة ووقفوا للتحية والاحترام فمرَّ بهم المعتصم وهو يتفرس في وجوههم حتى وقع بصره على ضرغام فاشار اليهِ ان يتبعهُ فاستعاذ بالله وخاف ان يكون من تلك الدعوة مايحول دون البحث عن جهان . وتفرق الناس عن الخليفة رويداً رويداً حتى وصل الى القصر ولم يبقَ معهُ غير ضرغام فدخل واشار اليه ان يلحقهُ ففعل حتى وصلوا الى غرفة خصوصية فتحول الخليفة نحوهُ وقال « رأيتك خرجت من المسجد قبل الفراغ من الصلاة »

فخجل ضرغام من هذا الاستفهام وقد فاتهُ ان الخليفة يرى الخارجين والداخلين بواسطة المرايا كما رأى هو سامان ولكن رؤية سامان فجأة انسته نفسه وموقفه . فلما ساله الخليفة عن سبب خروجه لم يرَ بدًّا من الاعتذار فقال « خرجت لمشاهدة رجل لم اكن انتظر رؤيته ويهمني امره وكان ينبغي ان اتمم الصلاة حتى اخرج في اثر امير المؤمنين فاعتذر لمولاي واعد توبيخه هذا التفاتاً كبيراً الى صنيعته »

قال « اني كثير الاهتمام بشؤونك لانك صاحبي فارجو ان لا يكون عليك باس مما رأيته او سمعته »

فرأى ضرغام الفرصة مناسبة للاستئذان في الذهاب الى همذان فقال « لا بأس عليَّ مادمت في ظل مولاي امير المؤمنين ولكن قوماً من اهلي كانوا قادمين من فرغانة الى العراق فاصابهم ما اخر وصولهم فبعثوا يستعينون بي على ذلك فهل بأذن مولاي بذهابي بضعة ايام؟»

فاطرق المعتصم ثم قال « سر ولا تطل الغياب واذا رأيت ان تستعين بجند او بريد افعل»

فانحنى ضرغام شاكراً واستأذن بالانصراف ورجع الى المسجد حيث ترك سامان وقد سرَّهُ اهتمام المعتصم بأمره ولكنه ظل مضطرب الخاطر لما سمعه عن جهان وعن الافشين وكلاهما ثقيل على السمع وعلى القلب ولم يكن الافشين قد وصل الى سامرا فرأى ضرغام المبادرة الى همذان فامر باعداد افراس البريد ينتقل بها هو وسامان وذهب لوداع والدته وقال لها انهُ ذاهب في مهمة وقتية يعود منها بعد بضعة ايام فقبلته وودعته فركب في ذلك المساء وقلبهُ يكاد يسبقه الى همذان من شدة القلق وكل ما وصل الى محطة من محطات البريد لاجل تبديل الركائب يسأل الناس هل سمعوا باصوص يقيمون في بعض الاماكن هناك وكان يواصل السير نهاراً وليلاً لا ينام الا قليلاً حتى دنوا من همذان وبجانبها جبل وعر وطريق البريد بجانب ذلك الجبل وفيه محطة لخيل البريد فلما وصل الى هناك سأل سامان « ألا تذكر المكان الذي جرت فيه الواقعة »

قال « وراء هذا الجبل على ما اظن »

وكان وصولهم الى ذلك الجبل نحو الغروب وقد اعدَّ لهُ اصحاب البريد منزلاً يبيت فيه ويتناول ما يحتاج اليه من اسباب الراحة ولكنه لم يستطع صبراً الى الغد . وكان في تلك المحطة غير واحد من السعاة والكوهبانية واصحاب الاخبار التقوا هناك صدفة وكل منهم سائر في طريق وعلم صاحب تلك المحطة ان الصاحب من خاصة الخليفة وقد جاء للبحث عن شيء هام وانبأ الآخرين بذلك فاصبحوا يتوقعون امره فسأل صاحب تلك المحطة قائلاً « العلك هنا من زمن طويل »

قال « من بضعة اسابيع ونحن اصحاب البريد ننتقل دائماً فهل يريد مولاي خدمة نقوم بها »

قال « اشكرك ولكنني احب ان اعلم اذا كنت سمعت بلصوص او قطاع طريق يعتصمون في بعض هذه الاودية او الجبال او يمرون من هذه الامكنة »

قال « فلما نسمع بشيء من ذلك ولكنني سمعت بالامس ان جماعة من قطاع الطرق معتصمون وراء هذا الجبل ولم يصل خبرهم الى الحكومة بعد على ما اظن »

فلما سمع ضرغام قوله لم يتمالك عن المبادرة الى الامر فقال « ارسل معي رجلاً يهديني الى اولئك اللصوص » ومشى

فاعجب الرجل بشجاعته ومبادرته الى الذهاب وحده فقال « الا ترى يا سيدي ان نرسل احداً للبحث عنهم ونمكث انت هنا ؟ »

قال « كلا يكفي ان نرسل معنا رجلاً يدلنا على الطريق » ومشى وسيفه الى جانبه وقد التف بعباءته والكوفية حول رأسه وتبعه سامان ورجل من خفر تلك المحطة سار امامهم في شعب وعرة وقد غابت الشمس واخذ الظلام يتكاثف وضرغام مطرق لا يلتفت ولا يتكلم حتى انتهى الى منعطف في ذلك الجبل فوقف الدليل واشار بيده الى نور ضعيف على اكمة امامهم وقال « هذا مقر القوم ياسيدي واخاف ان يستغشونا ويلحقوا بنا اذى »

فقال « لا تخف امكث انت هنا مع سامان ريثما اعود اليكما »

الفصل الخامس والثلاثون

المعتصم والعرب

فاظهر سامان انه يفضل الذهاب في خدمته ولكنه ابقاه هناك ومشى وحده وهو يتعثر بالحصى ويسمع لوقع نعاله قرقعة كأن غضبه اعماه عن الخطر الذي يهدده بالمسير وحده على تلك الصورة ولكنه كان شديد الاعتماد بقوته كثير الاعتماد على بسالته . حتى اذا صار على مرمى سهم من المنزل رأى اشباحاً تتراوح بينه وبين المصباح وسمع هرير الكلاب فلم يبال . ورآه القوم قادماً وحده فلم يخطر لهم انه عدو لعلمهم ان العدو لا يجسر على القدوم منفرداً فتصدر واحد منهم وصاح « من هذا ؟ »

فقال ضرغام « قادمٌ يبحث عن ضائع .. اين هو كبيركم »

قال « قف عندك حتى ناتيك والاّ عرضت نفسك للخطر »

فوقف لحظة رأى في اثنائها القوم في حركة وتهامس ثم تقدم واحدٌ منهم ويده

قبس وقد لثم بكوفية والتف بعباءة فتفرس ضرغام فيه فلم يعرفه ولكنه تحذر منهُ فجعل يدهُ على قبضة سيفهُ وهو يتحفز للوثوب او الدفاع ولم يكد صاحب القبس يصل الى ضرغام حتى قال له « اهلا بضرغام ... اهلاً بالصاحب »

فلما سمعه يناديه باسمه خفق قلبهُ واستأنس به واشتبه بصوته ولكنه لم يعرفهُ فقال « من انت .. »

وكان قد وصل اليه فازاح اللثام وادنى القبس من وجهه وقال « الم تعرفني ؟ »

فتفرس ضرغام فيه ولما عرفه صاح « حماد ؟ ما الذي اتي بك الى هنا »

قال « اتى بي الى هنا ظلم صاحبك .. تفضل » قال ذلك وصفر صفيراً ابطل نباح الكلاب وفرق الرجال الذين كانوا مجتمعين ومشى وهو قابض بيده على يد ضرغام يرشده الى الطريق وضرغام يعجب لما يراه لانه يعرف حماداً من وجوه رجال الدولة في سامرا وقد رآه فيها منذ اسابيع وكان شديد الثقة بصداقته فتبعهُ مطمئناً حتى وصلا الى بناء قديم حجارتهُ ضخمة وقد تهدم بعض جدرانه ولو تفرس القادم في ما بقي من انقاضهِ على ضوء القبس لرأى عليها نقوشاً وصوراً من آثار الفرس القدماء ولكن ضرغام لم ينتبه الى شيء من ذلك . واذا بصاحبه قد اوصله الى غرفة ليس فيها شيء من الاثاث او الرياش ولكنه شاهد في ارضها اكياساً من الحبوب وصناديق فيها الآنية والمتاع كأنها اخذت من اصحابها التجار في تلك الساعة . فاشار حماد الى ضرغام فجلس على صندوق وجلس هو على صندوق آخر وقال « اظنك تعجب لما تراه . فلا تعجب »

فقال « كيف لا اعجب وقد بلغني عن هذا المكان انه مسكن اللصوص واراك فيه كواحد من اهله »

قال « بل انا زعيم اصحابه ... ولم اكن لاكاشفك بذلك وادخلك هذا المكان لولا ثقتي بك ولتعلم مغبة ظلم صاحبك »

قال « اظنك تعني امير المؤمنين »

قال « بل اعني امير الاتراك والفراغنة واذا اخرجتني قلت انهُ امير الكافرين مثل اخيه المأمون »

فشغل ضرغام بهذا الامر الغريب عن الغرض الذي جاء من اجله فقال « اني لا أرى مسوغاً لهذه النقمة ولولا ماتعلمه من حبي لك ماصبرت على ما اسمعهُ منك ولكنني اذكر صداقتك واحب ان تصرح لي بما يكنه ضميرك عساي ان اذهب ما في نفسك من

الغل فترجع الى رضى الخليفة ونحن في حاجة الى رأيك وسيفك واعداؤنا كثيرون فلا ينبغي ان تفرق »

فاعتدل حماد في مجلسه وبان الاهتمام في وجهه وقال « انا لا الومك على دفاعك عن المعتصم لانه صديق الاتراك والفراغنة وقد عادى اهله وعشيرته من اجلهم . وانت الآن صاحبهُ ومن اقرب المقربين اليهِ . لا اقول انك لاتستحق ذلك بل انت اهل لاكثر منهُ ولكن لو كنت في مكاننا نحن العرب لم تقبل بما يأتيه هذا الرجل من المظالم نحونا . ولم يكفهُ انهُ صادرنا في ديننا وجلد الامام احمد بن حنبل الرجل التقي البار حتى غاب رشده وسال دمهُ وتقطع جلده ثم قيده وحبسهُ واضطهد كل من لم يقل بخلق القرآن — لم يكفه ذلك حتى قطع العطاء عن العرب كافة ومنع المسلمين من رواتبهم ولم يفعل ذلك احد قبلهُ — لاذكرك بما كان للعرب من العز والسؤدد في عهد الراشدين والامويين يوم كان الفرس والترك وسائر الاعاجم يعدون من العبيد اوالموالي لايستنكفون من ان يكون العرب اسيادهم بل كانوا يتشرفون بالانتماء اليهم . وانما انا اذكرك بما كان لهم من التقدم في صدر الدولة العباسية مع انها قامت بسيوف الفرس . حتى المأمون الذي حارب العرب وحاربوه فلما تغلب عليهم لم ينقص شيئاً من اعطياتهم كما فعل المعتصم هذا مع ان المأمون كان معتزلياً مثله يقول بخلق القرآن ويضطهد الائمة القائلين بقدمه . لعلمه ان العرب مادة الاسلام واصل هذه الدولة وروح هذه الامة . اما صاحبك فقد قطع العطاء عن كل عربي [٢] . العطاء الذي يعتاش منه المسلمون . ولم يفعل ذلك عن فقر او جدب فانه ينفق الاموال الطائلة في اصطناع الاتراك والاشروسنية والفراغنة وقد بنى لهم سامرا واحضر لهم النساء والجواري واسال النضار في خزائنهم . لو كنت انت عربياً لما صبرت على ذلك »

فلم ير ضرغام حجة يدفع بها قول حماد لعلمه انهُ يقول الصدق ولكن غيرته على المعتصم واخلاصه في خدمته حملاه على انتحال الاعذار فقال « لا انكر عليك ما ذكرته من مواضع النقد على امير المؤمنين ولكنك حملت ذلك منهُ على سوء القصد فهو قد قطع العطاء عن بعض العرب بعد ان تحقق عداوتهم للدولة ومنهم من حاربه وجرد الجيش عليه اما الذين يخلصون في خدمته فيبالغ في تقريبهم والانعام عليهم . هذا القاضي احمد بن ابي دواد لا ازيدك علماً بمنزلته عند الخليفة وهو عربي . وانت ... الم تكن مقرباً ولك

(١) ابن الاثير ١٨١ ج ٦ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ١٢٩ ج ١

منصب رفيع »

فهز احمد رأسه وقال « اراك حسن الدفاع عن صديقك الخائنة وقد اتيت بالقاضي احمد شاهداً وهو عربي من بين الوف قد لحقهم الذل والعار والفقر . اما انا فقد كان لي منصب وبئس المنصب لو بقي .. جعاني سادن الكعبة التي انشأها في سامرا ليحول المسلمين عن كعبة مكة ويذهب بما بقي للعرب من مصادر الرزق حتى يميت عرب الحجاز انفسهم لانهم يرتزقون من الحجاج كما تعلم فانشأ الكعبة في سامرّا ليغني المسلمين عن الحجاز »

فقطع ضرغام كلامه قائلاً « ولكنه ليس هو اول من فعل ذلك من الخلفاء او الامراء فقد حاول ذلك الحجاج والمنصور ولم يفلحا [1] »

فقال « وهذا لم يفلح ايضاً لان بيت الله في مكة فلا يقدر ان يجعله في سامرّا »

الفصل السادس والثلاثون

ياقوتة

فرأى ضرغام ان الحديث قد طال في ما لا يهمه بقدر ما يهمه الامر الذي جاء من أجله فاراد ان يختصر الكلام فقال « ومع ذلك لا اجد في ما ذكرته مسوغاً يجيز لك ارتكاب اللصوصية »

فقال « لا تقل لصوصية . انا لا نرتكب شيئاً من ذلك على الاطلاق » فتضاحك ضرغام وهز رأسه استخفافاً بدفاع حماد فابتدره هذا قائلاً « لا تضحك ياصديقي البطل . انا لا نسرق وما نحن لصوص وانما نحن نستولي على حقوقنا بايدينا »

فاستغرب قوله ونظر اليه وتطاول بعنقه نحوه كانه يستفهمه فقال حماد « ان هذه الاموال التي تجدها ملقاة هنا انما هي حق اولئك الفقراء وابناء السبيل بامر الله تعالى في كتابه وهي عشور الاموال او اخماس الفيء فهذه كان الخلفاء في صدر الاسلام يأخذونها من اصحاب الاموال والتجار ويفرقونها في الفقراء والمساكين وابناء السبيل — يأخذونها زكاة ويفرقونها صدقة او عطاء وقد قطع المعتصم هذه الاعطيات فهل يموت

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٦٥ ج ٤

المسلمون جوعاً لأنهم عرب . فنحن انما نستولي على حقوق الفقراء بالقوة لان الامام اراد ضياعها .. »

فتعجب ضرغام لقوة تلك الحجة ولكنه اراد قطع الجدال فقال « ما لنا وذاك فقد علمتُ انك كنت في سامرّا من عهد قريب ولم يقطع الخليفة عطاءك فما الذي حملك على الخروج »

فوقف حماد وتنهد وتغيرت سحنته من الغضب الى الكآبة ونظر الى ضرغام وقال « ان ما حملني على هذا الخروج وأثار فيّ هذه الضغائن امر اصاب مني مقتلاً ... اصاب قلبي فاذهب رشدي فانا ناقم على ذلك الرجل الظالم ما دمت حياً » قال ذلك وقد تصبب العرق من جبينه فازداد ضرغام رغبة في كشف خبره وتوسم من عبارته انه يشكو من حبيب فارقه فقال « وما ذاك يا اخي ... قل باختصار فاني اتيتك لامر يهمني كثيراً فشغلتني بامورك »

قال « مهما يكن من امرك فلست بالغاً امري . احببت جارية لبعض البغداديين واحبتني فلما اقدمت على الاقتران بها تصدى لي رجل من خاصة المعتصم اسمه الحارث السمرقندي اظنك تعرفه وطلبها لنفسه واخذها مني عنوة فشكوت امري الى الخليفة على يد القاضي احمد الذي ذكرته فاجابني ـ ابحث عن جارية اخرى وان هذه لا تكون لك ـ مع علمي انها تحبني حبًّا شديداً ..» ثم تنهد وقال « آه ياياقوتة »

فقال حماد « كان اسمها ياقوتة ؟ »

قال « نعم هذا هو اسمها . فهب اني اغضيت عن كل السيئات التي ذكرتها فهل اقدر ان اغضي عن هذه ؟ . اني والله ناقم على الخليفة ودولته وما خرجت لاكون لصًّا وانما خرجت لانتقم من هذه الدولة بما في امكاني .. واعداؤها كثيرون »

فتأثر ضرغام من حكاية ياقوتة اكثر من سائر القصص لانه واقع في مثلها ـ والانسان انما يشارك الناس في المصائب التي اصيب بمثلها او يخشى ان يصاب بها . فالعازب لا يشعر مع الآباء اذا اصيبوا بابنائهم كما يشعر الوالدون . ولا يشارك المحب في شعوره الا الذي جرب الهوى . فقال لحماد « هوّن عليك ولعلي نافعك في شيء من شكواك وقد آن لي ان اسألك عن الامر الذي جئت في هذا الليل من اجله فارعني سمعك واعلم اني اول من شاركك في احساسك لاني واقع مثل وقعتك »

قال « تفضل »

قال « لي خطيبة كانت في فرغانة وانا في سامرّا فركبت اليّ مع اخيها وجاريتها فلما وصلوا الى همذان هجم عليهم اللصوص واختطفوا الفتاة وجاريتها وجاء اليّ اخوها بالخبر فاسرعت للبحث عن الفاعلين فانبأني صاحب البريد عن هذا المكان فأتيت فما قولك ؟ »

قال « اما نحن هنا فلا نختطف نساء وقد اخبرتك بما نفعله وانا على يقين انهُ ليس في هذا الجوار لصوص او قاطعو طريق »

قال « ولكن اخا الفتاة شهد الواقعة وهو الذي نجا من المعركة واخبرني »

فهز رأسهُ هزة الانكار وقال « نحن هنا منذ عدة اسابيع ولم نسمع بحدوث شيء من ذلك واظن الراوي كاذباً »

فانتبه ضرغام لما يعلمهُ من سوء نية سامان من يوم عرفهُ فقال « ان الراوي واقف في مدخل هذه الشعب استقدمهُ اليك لتسألهُ »

فاشار حماد الى بعض رجاله ان ينادي الرجل الواقف هناك فذهب وعاد وهو يقول انهُ لم يجد احداً . فذهب ضرغام بنفسه فلم يجد سامان وسأل الدليل عنهُ فقال انهُ مضى الى حيث لا يعلم . فبعث في البحث عنهُ فلم يقف له على اثر فترجح لهُ ان في الامر سرّاً غامضاً وان الرجل قد يكون كاذباً في ما رواه حتى عن الافشين فقلّت ثقتهُ بما رواهُ عن هذا ولم يرَ بدّاً من الرجوع الى سامرّا فاستانف الكلام مع صديقهِ ونصح له ان يرجع معهُ فلم يرض وقال « لا ارى في رجوعي فائدة ولو اقتصر ظلم صاحبك على خسارة المال لاحتملته ولكنه طعنني في قلبي وانت اكثر الناس شعوراً معي فلا تلمني »

فتذكر ضرغام مصيبته وتصور نقمتهُ على خاطف حبيبتهِ فعذره وقال « صدقت اني معك كما ذكرت ولو علمت ان الخليفة الذي صادرني بخطيبتي لنقمت عليه مثل نقمتك واشد منها فافعل ما بدا لك وعلى كل حال ارجو ان تذكرني ولك مني مثل ذلك .. » واطرق قليلاً ثم قال « واذا حدث ما يبعث على مخابرتك او المجيء اليك فهل اجدك هنا »

فاجاب « لا اعلم اين يكون مقري بعد الليلة وما قيامي هنا الاّ الى اجل وانت اذا وفقتَ الى امر يسرك واردت ان اراك فاين تكون ؟ »

قال « في سامرّا »

فشكر له فودعهُ ضرغام ورجع وهو يفكر في ما سمعهُ وصورة جهان لا تذهب من مخيلته لانهُ في المكان الذي قيل لهُ انها اخذت فيهِ والليل مظلم مثل ظلام الليلة التي خطفت فيها فتصور حالها وهم يقبضون عليها وتوهم انهُ يسمعها تستغيث به وتناديه باسمه

فاقشعرّ بدنهُ وحرق اسنانه — قفى في تلك الهواجس مدة وهو يتلمس ذلك الطريق الوعر على غير هدى والدليل يسير بين يديه حتى ادرك محطة البريد فركب وعاد الى سامرّا . وطريق البيت في الرجوع اليه اقصر منها في الخروج منه ولكن ضرغاماً استطال الطريق واستبطأ وصوله لشدة رغبته في ملاقاة وردان لعله يستشيره في الامر وقد تعود ذكاءه وصدق فراسته

الفصل السابع والثلاثون

النجدة

اشرف على سامرّا نحو الغروب والشمس تقابله وقد ضعف نورها وتبددت اشعتها واحمر لونها وتكور شكلها وتعاظم جرمها فظهرت كأنها كرة من نار سابحة في ضباب من دم . ونظر الى ابنية سامرّا وعظمها قصر الخليفة والمسجد الاعظم ومنارته تناطح السحاب . ويخترق المدينة من الشمال الى الجنوب نهر دجلة المبارك وعلى ضفافه اشجار النخيل واقفة وقوف الجند يحملون سهامهم في عمائهم . فشغله منظر الطبيعة عما في نفسه فاحس بارتياح فوقف هنيهة والبريدي على بغلته الى جانبه ولم يدهشه ذلك المنظر لانه تعوده والنفس يختلف تأثرها من مناظر الطبيعة باختلاف حالها . واكثر الناس مشاركة للطبيعة في احوالها المحبون

واحسّ ضرغام بميل الى الانفراد هناك فاشار الى البريدي ان يسبقهُ الى سامرّا فاطاع وبقي ضرغام وحده يراقب الشمس ساعة الغروب وهي تتراءى لعينيهِ من وراء جذوع النخل عن بعدٍ وتتقلب بالوانها القزحية وان غلب عليها لون الارجوان . حتى اذا ادركت حافتها الافق استطالت تلك الحافة الى شبه خرطوم نزل وراء الافق وهبطت هي في اثره الهوينا، وقد اخذت الاظلال تستطيل وتنتشر حتى توارت الشمس وخلفت مكانها افقاً اخذ احمراره في الاكفهرار شيئاً فشيئاً من الدموي الى الارجواني فالبنفسجي فالازرق على اختلاف الوانه وتفاوت اقتامها الى السواد فاستحالت الاظلال الى ظلام . فاحسّ ضرغام بانقباض نبهه الى المسير فوخز الفرس وخزاً خفيفاً فمشى مشياً بطيئاً حتى تخلل مغارس المدينة من طرفها الاسفل وتراءى لهُ دجلة في مكان لا يغشاه النخيل فيممهُ على ان يسير على ضفته الى الجوسق

وكان الجو هادئاً والسكون سائداً فلما دنا من دجلة عاد الى تخيله فاستغرق في هواجسه والفرس يسير على ضفة النهر من تلقاء نفسه . وقد هب النسيم عليلاً وسكنت الطبيعة فلا يسمع في ذلك المساء الا حفيف الورق ووقع حوافر الفرس . ولم يكن ضرغام يسمع شيئاً لاشتغاله بافكاره . واذا بجلبة فاجأته من ورائه وسمع صوتاً وقع وقوع السهم في قلبه واجفله لانه صوت امرأة تستغيث قائلة « خافوا من الله ... اتركوني ... ياناس .. اتركوني .. » ثم اختنق الصوت . فارتعدت فرائص ضرغام لان الصوت كثير الشبه بصوت جهان وتذكر ما اصابها من اللصوص وتصوّر انها استغاثت بمثل هذا الكلام ولم ينجدها احد فصمم على نجدة هذه المستغيثة لعلّ الله يوفق جهان الى منجد ينقذها . وما تمهل ريثما يدير رأس جواده الى جهة الصوت فترجل وتحوّل مسرعاً على قدميه وهو يستل حسامه ويقول « لبيك لبيك .. اتركوها ايها اللئام »

قال ذلك وهو لا يرى احداً لشدة الظلام فخاف ان يكون قد خدعته هواجسه وان ما سمعه هاتف يمثل له حال جهان . لكنه ما عتم ان سمع الصوت يقترب منه وراى شبح امراة تعدو من ضفة النهر وهي باسطة يديها نحوه وتصيح « بالله انقذني ... اشفق على حياتي ... » وراى رجلين يجريان في اثرها وقد شهر احدهما السيف وهو يقول « الى اين تهرب يا خائنة .. اني قاتلك لا محالة »

فصاح ضرغام « عنها يارجل لا تعرض بنفسك للقتل »

فلم يبال الرجل بما سمعه وظل مسرعاً حتى كاد يدرك المرأة وكانت قد وصلت الى ضرغام وترامت على قدميه . فلما رآه ضرغام لا يزال هاجماً والسيف بيده تناوله بضربة اطارت رأسه فوقع يتخبط بدمه وهجم على رفيقه وهمّ ان يضربه فرآه اعزل فامسك عن ضربه وصاح فيه « من انتم .. »

فقال « مالك ولنا ليس هذا السؤال من شأنك . دع الجارية وامض لسبيلك وسترى عاقبة امرك »

قال « قف حيث انت والا قتلتك .. او قل لي من انت وما خبر هذه الفتاة »

قال « انها جارية هربت من بيت مولاها فبعثنا للبحث عنها فادركناها هنا وابت الرجوع فهددها رفيقي تخويفاً لها ولولاك لرجعت صاغرة ولكنها استفرست وسبيت فتل رفيقي وسوف تعلم مصيرك »

فلما سمعت الجارية قوله وكانت قاعدة على العشب من التعب نهضت وصاحت

« كذبتم ايها الغادرون ليس الامر كذلك »

فلما سمع كلامها ازداد شبهة بصوت جهان واختلج قلبه في صدره واستبعد ان تكون هي نفسها اذ لو كانت هي لعرفت صوته فقال للرجل « قل الحقيقة ولا تخوفني باحدٍ والا لحقتك برفيقك »

قال « لاتغتر بما سمعته . . ان هذه الجارية هاربة من بيت الخليفة فمن يجسر على حمايتها »

قال « انا اجسر دعها وسر بطريقك »

فصاح الرجل « من انت حتى تجسر على ذلك ؟ »

فتحول ضرغام عنهُ وامسك الفتاة بيدها ومشى وهو يقول « قل للخليفة او لسواهُ ممن يدعي السيادة على هذه الفتاة انها في حماية الصاحب »

فلما سمع الرجل اسمه تراجع وبهت كانك اخرستهُ بالكهربائية ثم قال « اعذرني يامولاي على جسارتي اذ لم اكن اعلم ان مولانا الصاحب يخاطبني » قال ذلك وتحول راجعاً

الفصل الثامن والثلاثون

ياقوتة

اما ضرغام فترك يد الفتاة ومشى الى فرسه وكان لا يزال واقفاً في مكانه فقاده بلجامه وسار وهو يقول للجارية « امشي يابنية لا تخافي ولكن اخبريني عن حقيقة امرك فقد سلمتِ الآن من الخطر »

فقالت وصوتها مختنق « اشكر الله لانهُ ارسلك لانقاذي ولولاك لذهبت ضحية الظلم »

فاطربه صوتها واحب ان يتفرس في وجهها وقلقهُ على جهان يوهمه انها قد تكون هي بعينها ولكن الظلام كان يحول دون ذلك فقال لها « قولي ماهو خبرك »

قالت « كنت جارية لبعض الناس واعتقني سيدي لوجه الله فطلبني شاب عرفني وعرفتهُ وتحابينا وتواعدنا على كتابة الكتاب ثم رآني رجل من بطانة امير المؤمنين يقال له الحارث السمرقندي . فتقرَّب اليَّ وخطبني لنفسه فابيت عليه ذلك »

فلما سمع ضرغام اسم الحارث انتبه لما سمعهُ من حماد فقال « وما اسم خطيبك »

قالت « حماد »

قال « فانت اذا ياقوتة »

فلما سمعته يناديها باسمها غلبت عليها الدهشة حتى تلعثم لسانها وقالت « كيف عرفت ذلك يامولاي .. هل تعرف حماداً .. اين هو ؟ »

قال « عرفته ولكن لاسبيل اليه الآن .. ساقص عليك خبره .. انمي حديثك »

فلم تعد تعرف لشدة فرحها كيف تتكلم فقالت « فلما أبيت على الحارث ما اراد وسط القاضي احمد لدى امير المؤمنين فطلب الخليفة ان يراني فلما مثلت بين يديه نظر اليّ طويلاً ثم اودع اذن القاضي كلاماً وامرني ان ابقى عند الحارث بلا زواج حتى يبدي رأيه فيّ . فاخذني الحارث الى منزله وحبسني واخذ يحاول اقناعي ان اقترن به تارة بالحسنى وطوراً بالتهديد حتى جاءني منذ بضعة اسابيع وهو يهزأ بي ويقول ان خطيبي فرّ من سامرا فلم اصدقه وعزمت على الفرار الى حماد فلم اتمكن الا امس فركبت دجلة عند الغروب على ان اسرع الى منزل حماد وهو على مقربة من قصر الخليفة فادركني هذان الرجلان وهما من اعوان الحارث وارادا ارجاعي ولما رفضت الرجوع هدداني فصحت الصيحة التي سمعتها وجئت لانقاذي .. جزاك الله عني خيراً »

فلما فرغت من حديثها سره انهُ انقذها اكراماً لصديقه ولكنهُ تذكر ان حماداً برح همذان في الليلة التي فارقهُ فيها ولا يعرف مقره فظل ساكتاً وهو يفكر في ذلك وصورة جهان امام عينيهِ وهو يقول في نفسه « هل يتاح لجهان من ينقذها يا ترى كما انقذت انا هذه الفتاة » ظل مدة وهو يفكر في ذلك وياقوته ماشية الى جانبه وقلبها يخفق سروراً وقلقاً تتوقع ان تسمع من الصاحب ما يعلمه على حبيبها فلما استبطأته قالت « وعدتني يا مولاي ان تخبرني عن حماد . العلهُ خرج من سامرا ؟ »

قال « نعم خرج منها كما قال لك الحارث »

قالت « واين هو ؟ »

قال « لا ادري .. وقد لقيته منذ بضعة ايام في مكان خارج العراق واخبرني انهُ مسافر الى حيث لايعلم وقد قص عليّ غضبهُ من الحارث والخليفة من اجلك .. كوني على ثقة انهُ شديد المحافظة على ودك »

فلطمت خدها بكفها وقالت « ويلاه اين أذهب وأين ابيت وكيف اعرف مقره ؟ .. »

فقال « لاباس عليك انك تمكثين في منزلي مع والدتي حتى يأتي الله بالفرج فاني على موعد من حماد ان يكتب اليّ عند الحاجة لانهُ صديقي »

فقالت « جزاك الله خيراً ياسيدي ولكن .. »

قال « لاتخافي يا أخية انما تكونين مع والدتي في خير وامان لايمسك احد بسوء . ان والدتي وحيدة في البيت ولا ريب انها تتخذك ابنة لها وتستأنس بك كثيراً »

وانتبهت ياقوتة في تلك اللحظة انها على مقربة من الجوسق فوقفت وقالت « اراني بجانب قصر الخليفة ! »

قال « اني اقيم في قصر داخل هذا الجوسق »

فتراجعت وقالت « اكون اذاً في خطر اذا عرف الخليفة بامري »

قال « كوني مطمئنة . انك في مأمن عندي » وكانا قد وصلا الى باب الجوسق فلما رأى الحراس ضرغاماً وسعوا له وتقدم احدهم فاخذ الفرس الى الاسطبل وسار ضرغام مع ياقوتة حتى اتى منزله فلما رآه الخدم اسرع بعضهم الى والدته فبشروها واناروا الشموع فدخل والفتاة في اثره حتى توسط الدار واول شيء فعله انهُ تفرس في الفتاة على نور الشمع وحالما وقع بصره عليها خفق قلبه وبدت البغتة في وجهه لشدة المشابهة بينها وبين جهان فقال في نفسه « سبحان الخالق ما هذه الصدفة ؟ » واحسّ بارتياح الى الفتاة واعجبه ما قرأه في محياها من الهيبة والجمال رغم ما كان يغشاهُ من الاضطراب . ويكني لارتياحه اليها ومشابهتها حبيبته بالوجه والصوت . وزاده استئناساً بها ما قاساه في سبيل انقاذها — والمرء من فطرتهِ يحب الذين يشقى في سبيل راحتهم ولذلك كان الرجل اكثر انعطافاً بين اولاده على اشدهم حاجة اليهِ . وكلما تعب الوالد في سبيل ابنه ازداد تعلقاً بهِ . ولولم يكن قلب ضرغام مشتغلاً بجهان لتعلق بياقوتة اذا لم تكن لصديقه حماد

الفصل التاسع والثلاثون

آفتاب

اما آفتاب فكانت قد تهيأت لاستقبال ابنها فلما سمعت وقع خطواته اسرعت اليه وضمته وقبلته وتنشقت ريحهُ . ثم شعرت بحركة في الدار فقالت « من هو رفيقك »

قال « بل هي رفيقة لك »

فظنت لاول وهلة انهُ جاءها بجهان فتوجهت ببصرها نحو الحركة التي كانت تسمعها كانها تستقبل الضيفة وصاحت « هل هي جهان »

فوقع قولها وقعاً شديداً على قلب ضرغام فتح جراحه فتنهد وقال « كلاَّ يا أماه ولكنها عزيزة علي لانها خطيبة بعض اصدقائي »

ودنت الفتاة من آفتاب وهمت بتقبيل يدها فضمتها ورحبت بها وقالت « ما اسمك يا حبيبتي »

قالت « اسمي ياقوتة ياسيدتي »

فلما سمعت صوتها دهشت وبان الاستغراب حول مبسمها وفي اخلاج عينيها البيضاوين وقالت « سبحان الله كاني اعرف هذا الصوت ... »

فقطع ضرغام كلامها قائلاً « اظنك تعنين صوت جهان فانهُ كثير الشبه بهِ وقد لحظت ذلك منذ سمعتها تتكلم للمرة الاولى »

فسكتت آفتاب ولم تجبهُ واخذت الفتاة بيدها واجلستها الى جانبها وجعلت تضمها وترحب بها والتفتت الى ضرغام وقالت « كيف لقيت هذه الياقوتة .. وابن كانت ؟ »

فقال « اتفق لي وانا عائد من المهمة التي اخبرتك عنها اني مررت باسفل المدينة فسمعت هذه الفتاة تستغيث من رجلين كانا يحاولان اخذها الى رجل يريد ان يتزوجها رغم ارادتها فانقذتها منهما وجئت بها »

قالت « ومن هو ذلك الرجل »

قال « يقال له الحارث السمرقندي من اعوان امير المؤمنين »

قالت « ولماذا لم تقبل به فانه ذوجاه ومال »

قال « لانها احبت رجلاً آخر اسمه حماد العربي . الا تعرفينه ؟ »

قالت « اظنني سمعت صوته مرة وقد جاء منك . اين هو الآن ؟ »

قال « هو غائب وستبقى ياقوتة هنا حتى يعود . هل يسرك ذلك ؟ »

قالت « يسرني كثيرا لانها تكون تسليتي اذا خرجت انت في مهمة . والحق يقال اني شعرت من هذه اللحظة كاني اعرفها منذ اعوام . اهلاً وسهلاً بك ياحبيبتي »

وامرت مسعودة فاخذتها لتبدل ثيابها وتصلح من شانها ثم وضعوا المائدة للعشاء فقال ضرغام لوالدته وهم على المائدة « الم يات وردان ؟ »

قالت « جاء منذ بضعة ايام وسالني عنك فلم اقدر ان اخبره عن مكانك »

قال « هل اخبرك عن مجيء الافشين »

قالت « اخبرني انهُ جاء وعسكر خارج سامرّا على ان ينتقل بعد بضعة ايام الينا واظن وردان عاد اليهِ او لعله يريد الذهاب اليه غدًا او بعد غد »

قال « حسنًا » ولم يطيلوا السهرة التماسًا للراحة . فباتوا تلك الليلة واصبح ضرغام في اليوم التالي وقد عادت اليه هواجسه واصبح شديد الميل لملاقاة وردان ليسألهُ عما سمعهُ من اصحاب الافشين عن جهان . وفي اصيل ذلك اليوم جاءه رسول الخليفة يطلب حضوره فلبس سواده وقلنسوته وذهب اليه في دار العامة فاستأذن ودخل فوجد عنده القاضي احمد فسلم ووقف فاستدناه اليه وامره بالجلوس فجلس فقال وهو يبش في وجهه « متى عدت من السفر ؟ »

قال « اتيت مساء البارحة يامولاي وكنت عازمًا على المثول بين يدي امير المؤمنين ولو لم يأتني رسوله »

قال « من لقيت في طريقك ؟ »

فانتبه انهُ يشير الى ياقوتة لعلمه ان الحارث لابد من ان يشكوه فقال « لقيت فتاة بين يدي رجلين يعذبانها »

قال « هل انقذتها ؟ فقد تعودت النجدة بارك الله عليك »

فعلم ان الخليفة يشير الى فضله عليهِ في انقاذه من مخالب الاسد فخجل لاطرائه وتجاهل وقال « لم اتمالك يا امير المؤمنين عن انقاذها ثم علمت انها تنتمي الى بعض رجال الدولة فحملت تبعة عملي طمعًا بحلم امير المؤمنين وهو ذنب استغفر عنهُ »

فضحك المعتصم وقال « قد اصطدت صيدًا حلالاً انت اولى الناس باحرازه .. كيف رأيت هذه الفتاة .. هل هي جميلة ؟ »

قال « لا بأس بها يامولاي »

قال « قد وجب عليك اقرارك »

فلم يفهم ضرغام قصده فابتدره القاضي احمد قائلاً « اتذكر ان امير المؤمنين خطب لك جاريةً »

قال « نعم »

قال « هذه هي الفتاة بعينها »

فاستغرب ضرغام ذلك الاتفاق الغريب وتحير في الجواب فقال القاضي « ان امير المؤمنين

رأى هذه الفتاة للمرة الاولى منذ اسابيع وقد جاء بها الحارث يخطبها لنفسه وكان رجل آخر يدعي انها له وكنت حاضراً فقال لي امير المؤمنين انها تصلح للصاحب وامر الحارث ان يحتفظ بها حتى يطالبها . وفي هذا الصباح جاء الحارث يشكوك لانك اختطفت ياقوتة منه فاجابه « انها للصاحب ولا سبيل لك اليها » فخرج مفحما ولذلك قال مولانا انك اصطدت صيداً حلالاً ووجب اقرارك عليك »

فلم يسع ضرغاماً غير الدعاء للمعتصم على التفاته وقال « ان امير المؤمنين يتصرف بعبيده ومواليه كما يشاء »

فقال المعتصم « انك احرزت اجمل نساء سامرا بارك الله لك فيها »

ثم صفق فجاء الحاجب فاشار اليه اشارة فهمها وخرج ثم عاد ومعه غلام يحمل طبقاً عليه عقدٌ من الجوهر يتلألأ كالشمس فاشار الخليفة الى الغلام ان يقدمه الى الصاحب فقدمه فبهر ضرغام من لمعان ذلك العقد ووقف احتراماً فابتدره المعتصم قائلاً « هذا عقد تلبسه ياقوتة وتتحلى به »

فانحنى ضرغام احتراماً وامتناناً وقال « قد غمرني امير المؤمنين بانعامه »

قال « انك اهل لاكثر من ذلك »

فتناول ضرغام العقد ولفه بمنديله وكرر الدعاء . ثم استأذن بالانصراف وخرج

الفصل الاربعون

وردان وسامان

عاد ضرغام الى منزله والخواطر تتقاذفه ولم يزده امر الزواج و ياقوتة قلقاً هذه المرة لانه عوّل على استبقائها في بيته حتى يجد خطيبها فيعطيه اياها فلا يدري الخليفة هل تزوجها ام لا فوصل المنزل ولقي والدته فسألته و ياقوتة حاضرة عن سبب ذهابه الى الخليفة فقال « دعاني لامر يتعلق بياقوتة »

فاجفلت ياقوتة لانها كانت تخاف وشاية الحارث لكنها اطمأنت لما رأته يقول ذلك وهو يبتسم ونظرت اليه باستعطاف . اما والدته فسألته عما جرى فقال « شكانا السمرقندي الى امير المؤمنين فارجعه خائباً واوصاني بياقوتة خيراً »

فانشرح صدر الفتاة وازدادت اعجاباً بضرغام وسمو منزلته عند الخليفة ونفوذ كلمته في الدولة واعجبت بهيبته وجلال طلعته . ولا عجاب اذا رافقته الالفة والعادة تحول الى غرام ولكن ياقوتة كانت مشغولة اللب بجماد ورأت ضرغاما فوق ما ترجوه لنفسها . ولما سمعت قولهُ عن الخليفة توردت وجنتاها حياة ولم يمنعها الحياء من الكلام لانها كانت عاقلة رابطة الجاش فقالت « اشكر لمولاي الصاحب فضله فقد انقذني من النار والموت ورفع منزلتي اذ جعلني تحت حمايته »

فمد ضرغام يده الى جيبه واخرج العقد وقدمهُ اليها وقال « هذا هدية من امير المؤمنين لك »

فاصبحت ياقوتة لا تدري كيف تعبر عن احساسها فتناولت العقد ودفعته الى آفتاب فقبضت عليه وتلمست حباته وقالت « يظهر انه عقد ثمين جدير بك » وتقدمت نحوها والبستها اياه

كل ذلك لم يشغل ضرغاماً عن قلقه واضطرابه وكل ما اصابه في مساء الامس وصباح ذلك اليوم يذكره بحبيبته وخصوصاً العقد لما لبسته ياقوتة فقال في نفسه « لماذا لا تكون جهان هنا وتلبسه » فلما تصور ذلك اقشعر بدنه وترك الغرفة بحيلة وخرج ليسال الخدم عن وردان هل جاء فاذا هو داخل وفي وجهه بغتة . ولما رأى ضرغاماً حياه باحترام فقال ضرغام « قد طال غيابك فما الذي أعاقك .. تعال الى خلوة نتحادث فيها »

فسار في اثره الى غرفة من غرف القصر جلسا فيها وقال وردان « قد اعاقني تاخير الافشين عن الحضور لانه لم يصل الى سامرا الا منذ بضعة أيام ولم اتمكن من اتمام مهمتي الا اليوم »

فقال « وما الذي عرفته عن جهان »

فتوقف وردان لحظة ثم قال « عرفت من صديق لي في حاشية الافشين لا يخفاه من احواله خافية ان جهان خرجت من فرغانة قبل خروجهم منها .. »

قال ضرغام « قد عرفت ذلك في اثناء غيابك من سامان اخيها »

فتغير وجه وردان عند سماع اسم سامان وقال « سامان هنا ! اين هو .. اين هو .. ؟ لاقبضنَّ روحه .. لعنهُ الله من منافق »

فاستغرب ضرغام شدة لهجته وقال « ولماذا تريد قتله . ما الذي فعلهُ ... »

قال « سأقص عليك فعلهُ وانما ارجو ان تخبرني عما قصهُ هو عليك »

قال « اخبرني انه خرج من فرغانة مع اخته فراراً من الافشين فلقيهم اللصوص في همذان فاسروا جهان وقهرمانتها وجاء هو ليخبرنا »

قال « انك عارف بعمل اللصوص اذاً .. بقي عليَّ ان اخبرك عما فعلهُ هذا اللعين اليوم . سرت امس لاتمم مهمتي في البحث كما امرتني فلم استطع الا صباح اليوم فلقيت صاحبي فقصَّ عليَّ الخبر . وبينما هو يكلمني لمحت سامان مارًّا على فرسه يطلب عرض البر ولم اتحققهُ فسألت صاحبي اذا كان قد رآه فقال انهُ هو بعينهِ وانه جاء البارحة في اواخر الليل وطلب مقابلة الافشين فقابلهُ وقصَّ عليه خبر اختطاف جهان ولكنه جعل الذنب في ذلك لك واساء القول فيك ولم اعلم ذلك الا بعد ان غاب عن بصري ولم يبقَ سبيل اليه ولولا فراره لقبضت على عنقه وقتلته خنقاً قبحه الله من اجرود لئيم »

وكان ضرغام قد ادرك قبل ذلك الحين نفاق سامان وسوء نيته فاصبح لا يصدق شيئاً من اقواله ولكنه لم يرَ بدًّا من تصديق قولهِ عن اختطاف اللصوص جهان فقال « قد عرفت نفاق هذا الشاب من قبل .. ولكن هل تظنهُ كاذباً في مارواه عن اختطاف جهان ؟ يا حبذا ذلك »

قال « ربما كذب في كيفية الاختطاف ولكن يظهر انها أُخذت بلا شك وما علينا الا ان نبحث عن الذين اخذوها »

قال ضرغام « وما العمل »

قال « نرسل الجواسيس نبثهم في المشرق كله من هنا الى فرغانة فمن سمع خبراً او تنسم شيئاً يرشدنا الى الفاعلين »

قال « قد رأيت الصواب فافعل ذلك بحكمتك واسرع فيه »

فقال « سمعاً وطاعة » وخرج

ولما خلا ضرغام بنفسه عاد الى التفكير في الافشين وما سمعهُ من سامان عن طمعه بجهان وارتاب في صدق الرواية ولكنه رأى ان يفاتحه بالامر ليزول سوء الفاهم من بينهما واجل ذلك فلم تتم لهُ فرصة

وجاءت الاخبار في اثناء ذلك بقيام بابك واستفحال امره فاصدر الخليفة اوامره الى الافشين بالسفر مع جنده الى اردبيل ولم يتم لضرغام مقابلته

الفصل الحادي والاربعون

فراق فرغانة

والسبب في ضياع جهان انها لما عزمت على الفرار من فرغانة مع اخيها وقهرمانتها كما تقدم اعدت كل ما تحتاج اليه مما خف وزنه وغلا ثمنه وعولت على اخيها في تدبير قافلة يسيرون في ظلها تجنباً لخطر البوادي التي لا بد من قطعها قبل الوصول الى العراق . فاخبرها سامان يوماً انه قد هيأ كل شيء فاخذوا في نقل الاحمال بحجة الرغبة في السفر الى مصيف قريب . ولما آن ذهابها وعلمت انها لن تعود الى ذلك البلد سائر حياتها عظم عليها فراق مسقط رأسها ومهجر قصر ابيها وقد تعودت هواءه وماءه واظلاله والفت اهله ومنازله واسواقه فقضت ايامها الاخيرة وهي منقبضة الصدر وقد ذهبت بشاشتها واخوها يهوّن عليها الخروج وقهرمانتها ترى في خروجها شططاً . واما هي فمع كل ذلك لم تتردد في الامر لحظة واحدة رغم ما احست به من الوحشة

وفي الليلة التي قضوها على اهبة الرحيل استدعت قيم الدار اليها واوصته بالقصر واهله خيراً وامرت اليه انها ربما طال غيابها فليكن اميناً نشيطاً . فاسف لسفرها وان لم يعرف حقيقة غرضها ولو علم لبكى بكاء مرًّا على فراقها لانه كان يحترمها الى العبادة وكذلك كان احساس كل من عرفها او عاشرها لما فطرت عليه من اللطف والذكاء والهيبة والجمال كما علمت . وفي الصباح التالي خرجت على فرسها الادهم كانها ذاهبة الى منتزه او مصيف وركب معها اخوها وقهرمانتها ولم تتمالك عند خروجها من باب المدينة ان التفتت ودمعت عيناها اسفاً على ما خلفته هناك من ثمار شبابها وجني والدها لكنها تماسكت واسترجعت رشدها وعزت نفسها بما ستلقاه من اسباب السعادة بقرب حبيبها

وكانت القافلة التي سافروا معها قادمة من بلاد الهند باحمال العطريات والبهارات والانسجة قاصدة خراسان فضموا احمالهم الى احمالها وقد اعتمدت جهان في ذلك على اخيها ولبست ثياب السفر واقلعت القافلة في مساء ذلك اليوم وهي مؤلفة من قطارين مسلسلين من الجمال والبغال على بعضها الاحمال وعلى البعض الآخر الرجال غير المشاة من المكارين والسياس على اقدامهم ومعهم الكلاب وادوات الطبخ والنوم وكل شيء . فالقافلة كالبلد يمشي باهله ودوابه واثاثه . تمشي ساعات من النهار وساعات من الليل تختلف مقاديرها باختلاف

الفصول وحسب اوجه القمر يحدق بها خفر من الرجال تعودوا الاسفار والاخطار اشداء الابدان يعرفون الطرق ولهم صداقة وهيبة عند قبائل التركمان بدو الترك وهم متفرقون في البادية بين نهر جيحون ونهر الشاش والمسافة بين النهرين تعدّ بالاسابيع وقد تتجاوز الشهرين ناهيك بما في اثنائها من اللصوص وقطاع الطرق . ولذلك لا يجسر على السفر هناك غير القوافل الكبيرة والقافلة تتنظم في اثناء المسير نظام الجند للحرب وفي ساعات الراحة تضرب الخيام وتوقد النيران وتذبح الاغنام او الابقار وتنصب القدر على النار ويشتغل القوم بالاكل والنوم

ولم تكن جهان جربت هذا السفر ولا ذاقت مثله ولا سمعت به في حياتها فكم يكون ذلك ثقيلاً عليها فكانت تحمله بالصبر وتعزي نفسها بلقاء الحبيب فاذا تصورت ذلك اللقاء هان عليها احتمال كل المشاق — كل ذلك من معجزات الحب وان امره لعجيب

لو اردنا تفصيل ما لاقوه في سفرهم الطويل من حر النهار وبرد الليل وخوف قطاع السابلة واهل الغزو وما اصابهم من عطش او جوع لفراغ مؤونتهم من الماء او الطعام قبل بلوغ المكان الذين يتزودون منه لضاق بنا المقام فنقول بالاختصار ان القافلة لما بلغت الى الري اشار سامان على اخته بالتخلي عنها والمسير على انفراد لان القافلة تسير متثاقلة وهي في كل حال لا ترافقهم الى العراق لان طريقها نحو الشمال . فاذعنت جهان لرأي اخيها وانفردوا باحمالهم ودوابهم عن القافلة . وفي مساء ذلك اليوم باغتهم جماعة من الرجال على الخيول في مكان بعيد عن همذان وكانت جهان على فرسها فدافعت عن نفسها دفاع الرجال واظهر سامان دفاعاً كثيراً ولكنهم غلبوا اخيراً فقبضوا على جهان وقهرمانتها وشدوا وثاقهما وفرّ سامان بحجة ايصال الخبر الى ضرغام

فلما رات جهان نفسها في الاسر صاحت بكبير القوم وهم جميعاً ملثمون وقالت له « ما الذي حملكم على هذا العمل .. ؟ اذا كنتم تطلبون المال فهذه احمالنا خذوها واطلقوا سراحنا ونعاهدكم اننا لا نطالبكم بشيء منها »

فاجابها الفارس وهي اول مرة سمعت كلامه فقال « لسنا لصوصاً يا سيدتي ولا حاجة بنا الى المال وانما أُمرنا ان نحمل عروس فرغانة الى اعظم رجل في الارض لم ترض به طوعاً فعساها ان ترضى به كرهاً .. »

الفصل الثاني والاربعون

في الاسر

فلما سمعت قوله انتبهت لنفسها وعلمت انها مكيدة نصبت لها وكانت تفضل ان يكون القوم لصوصاً يطلبون المال ولا تكون هي المطلوبة . ليس لانها تخاف ان تغلب على امرها فانها كانت من رابطة الجاش وثبات الجنان على ما علمت . ولكن شق عليها فراق حبيبها فارادت ان تزداد بياناً فقالت « ولكن هذا العمل يا صاح لا يشبه اعمال العظماء »

قال « وماذا يعمل الرجل اذا اضطر ولم ير وسيلة لنيل مرامه غير هذه . . . ؟ ماذا يعمل اذا تعرض للخطبة فارتد خائباً وهو كبير القدر تأبى نفسه الخيبة ؟ »

قالت « يترك الطلب و يستغني عن الخطبة »

قال « واذا كان مفتوناً قد غلب على امره »

قالت « دعنا من ذلك فاني لا اراكم الا لصوصاً تطلبون المال فهذه الاموال لديكم واتكفل لكم باضعافها اذا اطلقتم سراحنا »

قال « اما نحن فاذا اعطيتنا المال شكرناك كثيراً وان كنا لا نقدر ان نطلق سراحك ولكن لا ينبغي لك ان تحزني يا سيدتي على شيء اضعته بهذا الانتقال فانك ذاهبة الى اعظم رجل في العالم واذا احسنت معاملته كنت مالكة الرقاب »

فاشكل عليها فهم حقيقة ما يعنيه فقالت « لم افهم مرادك ولا من هو ذلك الرجل الذي تعنيه »

قال « ستعلمين كل شيء بعد بضعة ايام . . . كوني مطمئنة انك ستسيرين معنا معززة مكرمة ومتى وصلنا المكان المقصود كنت في ارغد عيش واسعد حال »

قضت عدة ايام مع قهرمانتها واولئك الوفد على اتم ما يرام من الاعزاز والاكرام وكانوا قد حلوا وثاقها في صباح اليوم التالي وقاموا بخدمتها احسن قيام من الطعام والشراب والمبيت

وقد اتيح لجهان الفرار لو اطاعتها نفسها عليه ولكنها اكبرته وخافت مغبته — وكبير النفس لا يطاوعه وجدانه على الفرار حتى من الموت

مرت في اثناء هذه الرحلة بدن وقرى وجبال واودية وسهول وحزون ورأت اقواماً من امم شتى فعلمت من بعض القرائن انها مرت باذربيجان وجاءها ذلك الزعيم ذات يوم

واخبرها انها صارت في ارمينيا وانها لا تلبث ان تدخل اردبيل . فعلمت حينئذ انهم سائرون بها الى بابك الخرمي فتذكرت انه كان قد طلبها من ابيها ولم تقبل به فتحققت انها محمولة اليه فاخذت تتأهب لمدافعته وعلمت انها مكيدة من اخيها فندمت على الركون اليه

وقد اصاب ظنها بسامان لانهُ طبع على اللؤم وزاده غضب والده نقمة عليه وعلى اخته وكان طلاباً للعلى ولم يستطع ذلك بعلو الهمة والبسالة كما يطلبه كبار الرجال فالتمسه بالحيلة والخداع — وليس اشأم على الامة من ان يعجز رجال المطامع فيها عن نيل العلى باعمال توافق مصلحتها فيلتمسونها بتضحية تلك المصلحة في سبيل مطامعهم

فانتظم سامان في سلك الخرمية وهي جمعية سرية قامت على مقاومة اصحاب السيادة وزعيمهم في ذلك العصر بابك الخرمي صاحب اردبيل وكان الخرمية يسعون في تأييد سلطته سرًّا وكان شديد البطش يبالغ في اقتناء النساء لا يسمع بامرأة جميلة الا سعى في احضارها اليه فاذا لم يستطع ذلك بالجاه طلبها بالمال فاذا اعجزه احضارها بالمال حملها بالقوة . فشاع خبره في الآفاق وسمع بجهان فبعث يخطبها على يد سامان فلم يرض ابوها فدس الى سامان انهُ اذا اتاه بها رفع قدره وقلدهُ منصباً عالياً واكرمهُ بالمال ولم يكن سامان قادرًا على شيء في حياة ابيه فلما توفي ابوه وقد حرمه من الارث ازداد رغبة في الانتقام ولقي الاصبهبذ نائب بابك في فرغانة ايام النوروز في بعض جلسات الخرمية التي كان يحضرها سرًّا فيغيب عن البيت اياماً وابوه لا يعلم سبب غيابهِ وانما كان يقضي تلك الايام في المداولة والمواطأة . فتواطأ مع الاصبهبذ على ان يحتال في حمل جهان الى اردبيل وهو لا يبالي بعواطف المحبين لدنائة طبعه وهو اجرود لم يجرب شعائر الرجال . وعزم على ذلك خصوصاً بعد مقابلتهِ للافشين واطلاعه على وصية والده فاصبح همه الانتقام من الافشين فوجد في اجابة طلب الاصبهبذ نيل ما يتمناه من الثروة والنفوذ والانتقام من عدوه فاتفق مع الاصبهبذ على ان يهيء رجالاً يكمنون في الطريق بين الري وهمذان ليقبضوا على جهان في اثناء سفرها الى العراق ليظهر للملاء انهم اخذوها منه قهرًا . وبعد ان اخذوها لم يكن غرضهُ من الذهاب الى العراق الا القاء الفتنة بين ضرغام والافشين وهو يعلم بسالة ضرغام وتفانيه في سبيل جهان فان علم انها اخذت بسبب الافشين لا يصبر عن قتله . وكان سامان قليل الدهاء فلم يحسن سبك حيلتهِ فلم يطل اختفاؤها على ضرغام فرجع سامان من العراق وهو يعتقد انهُ اتم مهمتهُ وفاز ببرامهِ

الفصل الثالث والاربعون

اردبيل

اما جهان فلما علمت انها على مقربة من اردبيل قصبة ارمينيا في ذلك الحين اخذت تتهيأ لدفع مايهددها هناك . وكانت تسمع ببابك وتعرف انغماسه وتهتكه وتعلم انه مقيم في اردبيل . وما عتم الركب ان وصلوا الى غيضة اشبة كثيرة الادغال والاشجار اذا دهم اهل اردبيل امر لجأوا اليها فتمنعهم وتعصمهم ممن يريد اذاهم فهي معقلهم ومنها يقطعون الخشب الذي يصنعون منه الصواني والقصاع [1] . واستغرقت جهان في هواجسها وهي تنظر الى تلك الغيضة وتفكر في كيف تخاطب بابك وتدفع اذاه وتذكرت ضرغاماً وقالت في نفسها « لو بلغه ما انا فيه ما الذي يعمله ؟ »

وهي في ذلك رأت الركب يتحولون عن الطريق المؤدي الى اردبيل ويدخلون تلك الغيضة . واتاها رجل منهم اومأ اليها ان تحول شكيمة جوادها الادهم نحو الغيضة ففعلت وهي لا تعرف السبب . وساروا في طريق وعر يخترقون الاشجار المشتبكة وجهان تلتفت يميناً وشمالاً لعلها تعرف سبب ذلك الفرار واذا برئيس الركب جاءها وزاملها بجواده وخاطبها باحترام قائلاً « اراكِ تستغربين تحولنا الى هذا الطريق . . او لعلك تخافين . . . »

قالت « اني لا اخاف شيئاً . . . ولكنني استغربت دخولكم هذا الطريق الوعر بعد ان كنا على مقربة من اردبيل »

فاكبر الرئيس جسارتها وكبر نفسها وقال « اظنك لم تشاهدي الراية المنصوبة على منعطف الطريق »

قالت « كلا واين هي ؟ »

فاومأ اليها ان تنظر وهو يصعد بها الى اكمة هناك فلما صعدا قال لها « الا ترين هذه الراية ؟ »

فلما وقع نظرها عليها خفق قلبها لانها راية الافشين فقالت « انها راية المسلمين »

قال « نعم وقد جاءنا احد الكوهبانية (وهم اصحاب الاخبار عند الفرس القدماء يشبهون قلم المخابرات في هذه الايام) واخبرنا ان مولانا قد غادر اردبيل واحتلها المسلمون بعده »

(١) ياقوت ج ١

قالت « اظنك تعني بابك ... والى اين ذهب ؟ »

قال « اخبرنا الكوهباني انهُ اوغل في ارمينيا وتحصن في بلد منيع يقال له البذ عند نهر أرس ونحن ذاهبون اليه »

وانست من الرجل لطفاً واكراماً كثيراً فطمعت في ان يطلق سراحها بعد ان شغل القوم بالحروب فقالت « فانتم ذاهبون بنا الى البذ ؟ »

قال « نعم ياسيدتي وهي على بضعة ايام من هنا »

قالت « ولا بدَّ من ذهابي معكم ؟ »

فادرك الرجل انها تعرض باطلاق سراحها فقال « لا بدَّ من ذلك لان امر مولانا قضاء لا سبيل الى تبديله وزد على ذلك اننا لو تركناكِ كنتِ في خطر شديد ان لم يكن من اللصوص فمن الوحوش »

وكانت خيزران على فرس وراء فرس جهان فالتفتت جهان اليها فابتدرتها خيزران قائلة « وما الذي تخافينهُ عند بابك ومثلكِ لا تخاف موقفاً »

فازدادت جهان نشاطاً بهذا التشجيع وعلمت ان خيزران لم تقل ذلك الا وهي لا تجد سبيلاً للنجاة وعادوا الى المسير صعداً وجهان تلتفت الى ماحولها تتأمل وحشة ذلك المكان وسعة تلك الغيضة فوقع بصرها على مدينة اردبيل عن بعدٍ ورأت ساحتها الكبرى غاصة بالجند والرايات الاسلامية وهي تعلم طبعاً ان الافشين نفسهُ ليس هناك لانها تركتهُ في فرغانة وان المقيمين في اردبيل فرقة من جنده

وكان الوقت ظهراً وصدرت الاوامر الى الركب ان يستحثوا خيولهم للخروج من الغيضة قبل دخول الليل خوفاً من المبيت فيها

خرجوا من الغيضة ثم واصلوا السير فمروا بارشق وخش وبرزند وغيرها ورأت جهان رايات المسلمين على اسوار تلك المدن واما الجند فكان معظمه في اردبيل وليست هذه المدن الا محطات لاختزان المؤونة اللازمة له في اثناء انتقاله لمحاربة بابك . فكانت كلما تقدمت احست ببرودة الطقس حتى أشرفوا بعد بضعة ايام على البذ وهو اشبه بالمعقل اوالقلعة منهُ بالمدينة لأنه مؤلف من عدة قصور كالقلاع يحيط بها كلها سور هائل عليه الابراج والابواب فوقها اعلام الخرمية . والارض على اجمالها في تلك الجهات جبلية وعرة يصعب سلوك الجند فيها باثقاله واحمالهِ فعلمت ان بابك التجأ الى ذلك المعقل لمناعته حتى يكاد يستحيل على المسلمين اخذه

وسبق واحد من الركب الى البذ يستأذن في الدخول ويسأل عن المكان الذي ينزلون فيه جهان ثم عاد واشار بالدخول من باب غير الذي كانوا عازمين على الدخول منه. ولما صارت جهان داخل السور شعرت كانها في قفص فاستوحشت واحست خيزران بوحشتها فساقت فرسها الى جانبها وسألت كبير القوم عن المكان الذي هم سائرون اليه فقال « ان مولانا في شاغل خارج البذ وقد امر ان نأخذ عروسهُ الجميلة الى قصر النساء هذا تمكث فيهِ مكرمة معززة حتى يأتي »

فاجفلت جهان عند سماعها قولهُ « عروسه » ولكنها تجلدت وظلت ساكتة حتى اقبلوا على القصر ولهُ سور خاص ورحبة وحديقة كانهُ حصن قائم بنفسه ووقف لهم الحرس ووسعوا فدخلت جهان وقهرمانتها على فرسيهما من الباب الكبير حتى اذا دنت من الباب الصغير المؤدي الى المساكن ترجلت وترجلت خيزران معها واسرع بعض الخدم لتناول الفرسين وقد ادهشهم مارأوه في تلك القادمة من الجمال والهيبة لانها لاتغطي وجهها. ولم يقع نظرها على نظر احدهم الا شعر بقوة لم يعهدها بسواها مع ان ذلك القصر يحوي مئات من اجمل النساء لان بابك كان مولعاً بانتقاء الجميلات كما علمت

الفصل الرابع والاربعون

هيلانة

ثم اسرع رئيس الركب اليها ووقف باحترام وقال « ارجو ان تكون سيدتي قد اغضت عن جسارتي في حملها على غير ماتريد متى علمت اني محمول على ذلك بامر سيدنا ومولانا ولكنني بذلت جهدي في راحتها وحفظ كرامتها فهل تذكرني لدى الامير اذا سنحت لها فرصة لانها ستكون الآمرة الناهية .. »

فقالت « ما اسمك »

قال « بهزاد ياسيدتي »

قالت « الى اين انا ذاهبة الآن ؟ »

قال « الى قهرمانة القصر وهي تقوم بما تحتاجين اليه من اسباب الراحة .. »

وكانت خيزران واقفة تسمع مادار بينهما فقالت للرجل « ألا تعرف من اهل هذا القصر

احداً معرفة خصوصية » ارادت ان تستعين برأيه في واحدة تثق بها

فقال « اعرف اكثرهن وهن من امم شتى ولكنني اظن مولاتنا تستأنس بالسيدة هيلانة على الخصوص فانها من بيت الامراء وقد عرفت بيت زوجها بارمينيا قبل ان امر مولانا بابك باستقدامها . وكنت في جملة من حملها اليه وتعارفنا في اثناء الطريق ورأيتها عاقلة لطيفة واظن مولاتنا تُسرُّ بمعاشرتها .. والآن استأذن بالانصراف فقد اقبلت القهرمانة .. وانا اسمي بهزاد ياسيدتي ..! » وانصرف

ظلت جهان واقفة بجلال وهدوء وقوف الملكة بباب قصرها حتى وصلت القهرمانة اليها وهي عجوز طويلة القامة تدل ملامحها على ما كانت عليه من الجمال في شبابها وقد لبست ثوباً يتلالأ بالوشي والتطريز حول جيدها العقود وفي يديها الاساور وفي اذنيها الاقراط

فوقع نظرها على جهان بما في وجهها من آثار السفر الطويل وقد توردت وجنتاها كأن النار لفحتهما ورأت في عينيها معاني لم تعهد مثلها في واحدة من عشرات النساء اللواتي هن تحت ادارتها ولا مثل ذلك الجمال الجاذب . واستغربت على الخصوص رباطة جأشها لعلمها انها أُخذت رغم ارادتها وكانت تعلم بعلو منزلتها وكيف طلبها بابك من ابيها فلم ترضَ به وكانت تتوقع ان تراها منكسرة القلب باكية نادبة فلما رأتها رابطة الجأش هادئة ظنتها راضية بما قسم لها . ولما دنت منها رحبت بها وضمتها وهي تقول « مرحباً بعروس فرغانة .. يشق عليَّ ان تُحملي الينا قسراً وارجو ان تكوني قد غيرت رأيك »

فلم تجبها جهان على سؤالها ولكنها ابتسمت ومشت معها في دهليز القصر وهي مطرقة . ولو تلفتت لرأت نساء القصر يتسابقن ويتزاحمن للنظر الى ضرتهن ولما شاهدن جمالها وهيبتها حسدنها لانها سيكون لها المقام الاول عند بابك . اما هي فما زالت سائرة لا تبالي حتى ادخلتها القهرمانة الى حجرة مفروشة بالطنافس فرشاً حسناً وقالت لها « هذه غرفتك يا حبيبتي استريحي فيها »

قالت « واين ثيابي ؟.. فقد اخذوها في جملة الاحمال »

قالت « ستكون عندك بعد قليل » وخرجت وارسلت اليها صناديقها

ولما خلت جهان بخيزران في تلك الغرفة ايقنت انها وقعت في الفخ فانقبضت نفسها ولم تتمالك عن البكاء وهي تتجلد وخيزران واقفة بجانبها تمسك نفسها مراعاة لها فلما رأت دموعها تنحدر على خديها انفطر قلبها وترامت على قدميها وهي تقبل طرف ثوبها وتقول « آه ياسيدتي ما الذي اصابنا .. كيف جئنا وكيف أخذنا ؟ واين نحن .. اين ضرغام

الآن ...» واسترسلت في الانتحاب وجهان تبكي ولا تتكلم . وشعرت خيزران انها اخطأت باظهار ذلك الضعف بين يدي سيدتها فتماسكت وقالت « ولكني واثقة بتعقلك وقوة جنانك واعلمي اني رهينة اشارتك بكل ما تريدين »

قالت « لا احتاج الى شيء الآن .. سمعت بزاد يثني على امرأة من نساء هذا القصر اسمها هيلانة فلعلها تؤنسنا اذا عرفناها ... هل لك ان تبحثي عنها وتأتيني بها . وقبل ذهابك اخرجي لي ثيابي »

فاعدت لها ما تحتاج اليه ومضت وكانت الشمس قد أذنت بالزوال وأخذ الخدم في انارة القصر بالشموع فبدلت جهان ثيابها واستلقت للاستراحة والتفتت الى ما حولها فلما تصورت نفسها في تلك الغرفة وبينها وبين فرغانة بضعة اشهر وكذلك بينها وبين سامرا فكرت في ضرغام وهل يعلم ما اصابها وتذكرت اخاها سامان وقالت في نفسها اين هو يا ترى هل قتل في المعركة ام فرّ الى مكان آخر . وعولت ان تتخذ وسيلة لايصال الخبر الى ضرغام ليعلم مكانها لعله يستطيع انقاذها بالسيف او بغيره . وهي تفكر في ذلك قرع الباب ودخلت خيزران وهي تقول « قد جئتك بالسيدة هيلانة يا مولاتي »

فجلست جهان وهمت بالوقوف لملاقاتها فاسرعت هيلانة واجلستها وجلست الى جانبها وهي تهش لها وترحب بها كانها تعرفها من عدة اعوام . واستأنست جهان بها استئناساً كبيراً وأحست كانها في قصر ابيها بفرغانة بين اهلها لانها آنست في وجه تلك المرأة لطفاً ومودة واخلاصاً فضلاً عن الجمال . وكانت هيلانة شقراء اللون زرقاء العينين بيضاء البشرة لايبارح الابتسام فمها فابتسمت جهان لها ورحبت بها وتكرت تلطفها فقالت هيلانة وهي تضحك ضحك تشجيع وايناس لا ضحك خفة او طيش « مرحباً بعروس فرغانة فقد طالما سمعت بجمالك وتعقلك وقد مضى علينا مدة ونحن في انتظار مجيئك »

فقالت « ما زلت احسبني ذاهبة الى الجحيم حتى رأيتك فخفّت المصيبة عني ولكن ... » وغصت بريقها وتشاغلت باصلاح عقدها

فاحست هيلانة عند سماع صوتها بلذة وشعرت بجاذب يجذبها نحوها وكانها تذكرت مصيبتها هي فانقبضت نفسها وقالت « هكذا اراد المولى ياحبيبتي ... ولو قست مصيبتك بمصيبة سواك لهان عليك امرك . لو عرفت كيف فعلوا بي لرأيت انك مرحومة »

فتوسمت جهان من اسلوب كلامها انها تحب ان تقص حديثها فرأت من التأدب ان تسألها عنه فقالت « وكيف كان ذلك ؟ »

فتنهدت هيلانة وغلب عليها الجد وقالت « لابد انك عرفت من وجهي وضعف لغتي الفارسية اني غير فارسية ولا انا تركية ولا ارمنية وان كنت اخذت من ارمينيا ولكنني يونانية الاصل ربيت في بيت والدي في عمورية ولما كبرت خطبني بطريق من بطارقة ارمينيا وتزوجني وحملني الى بلده ... ولم اكد اقيم معه عاماً او عامين حتى بلغ هذا الخبر خبري (وخفضت صوتها) فبعث يطلبني من زوجي ولما سمع إباءه بعث قوة من رجاله اغتنموا غياب زوجي وحملوني اليه بالقوة وحبسني هنا منذ بضعة اعوام ولا اعرف اين زوجي ولا الذي فعله بعدي . واما هو فيعرف مقري طبعاً ولكنه لا يجد سبيلاً الي هذا اذا كان لا يزال حياً » قالت ذلك وشرقت بريقها ثم مسحت دموعها سريعاً وابتسمت وقالت « لم يكن غرضي ان اكدرك بهذا الحديث ولكنني اردت ان أخفف مصابك »

اما جهان فاعظمت مصاب هيلانة وهمت ان تقص عليها حديثها فارجعها الحياء فتشاغلت بالتهد واحبت تغيير الحديث فقالت « اين هو بابك هذا . وكيف تعيشون هنا ؟ »

قالت « ان الرجل يقيم في قصر غير هذا اقرب الى اسوار هذا البلد لملاحظة الاستحكامات وينقل من شاء من نساء هذا القصر اليه لتقيم عنده يوماً او بضعة ايام على ما يتراءى له . »

قالت « بلغني انه اليوم في شاغل عن القصر واهله »

قالت « نعم انه يتأهب لحرب شديدة »

قالت « مع من ؟ »

قالت « جاءه اصحاب الاخبار بالامس وكان قد ارسلهم ليتجسسوا احوال المسلمين في العراق فاخبروه ان المسلمين يتأهبون لارسال نجدة عظيمة يقودها الافشين صاحب أشروسنة بنفسه »

فلما سمعت اسم الافشين ارتعدت فرائصها وتذكرت انه علة كل مصائبها ولو انتبهت هيلانة لرأت اثر ذلك التغيير في عينيها ولكنها لم تكن تعرف عن جهان الا انها بنت مرزبان فرغانة طلبها بابك ولم ترض به فاستجلبها قسراً . فقالت جهان « وهل جاء الافشين نفسه »

قالت « لا ادري اذا كان قد وصل ولكنه آت من غير بد . ولذلك فان بابك خرج من البذ في جماعة من رجاله ليقيم له الكمناء وينصب الارصاد في اثناء الطريق وربما

لا يعود الينا الا بعد بضعة ايام »

فسرها هذا التأجيل وانتبهت لما ذكرته عن الجواسيس الذي عادوا من العراق فقالت « هل تعرفين احداً من الجواسيس الذين ذكرت رجوعهم من العراق ؟ »

قالت « كلا .. ولكن خادمتي تعرف واحداً منهم . »

وكانت خيزران قد ذهبت وعادت بالعشاء الى سيدتها ووقفت تسمع الحديث فلما سمعت قول هيلانة ان خادمتها تعرف احد الجواسيس ابتدرتها قائلة « اي خادمة يا سيدتي ؟ »

قالت « التي قابلتك الآن ودلتك عليّ »

قالت « عرفتها .. بالحقيقة انها لطيفة .. كانها اقتبست اللطف من سيدتها »

فقالت هيلانة وهي تضحك « ولذلك فان ذلك الجاسوس وقع في هواها ولا يزال يحمل اليها الهدايا يريد ان يتزوجها ولا تسأله عن شيء الا فعلهُ »

فسري عن جهان عند سماع ذلك ونظرت الى خيزران فرأتها تنظر اليها ففهمت مرادها فقالت خيزران « أريد ان اقترح عليها خدمة تكلف خطيبها بها في طريقه الى العراق هل تساعدينني على ذلك ؟ »

قالت « حباً وكرامة .. اعدّي ما تريدين ارساله ومتى عاد بمهمته الى العراق كلفناه بهِ »

فتهلل وجه خيزران فرحاً لعلمها انها تستطيع ايصال خبر سيدتها الى ضرغام . ثم وضعت المائدة فتناولوا العشاء معاً وتذكرت هيلانة ان جهان في حاجة الى الراحة من تعب السفر فاستأذنت في الذهاب على ان تعود في الصباح فتأخذها الى غرفتها

الفصل الخامس والاربعون

سامان

وباتت جهان تلك الليلة والهواجس تتقاذفها وقد شغل خاطرها على الخصوص بأمر الجاسوس وارادت ان تكتب الى ضرغام كتاباً ولكنها خافت ان يقع الكتاب عمداً او سهواً في يد احد فتكون العاقبة وخيمة . فصممت اخيراً على ان تبعث الرسالة شفاهاً .

فلما نهضت في الصباح اخبرت خيزران بما عزمت عليه فاستحسنت تحفظها وقالت « يكفي ان نبعث الى سيدي ضرغام كلمة بان جهان في البذ عند بابك فقط »

قالت « هذا الذي اراه فاخبري صاحبتك بذلك »

فقالت « ألا تذهبين لزيارة هيلانة . ومتى صرنا هناك اقابل الخادمة وافهمها اللازم

قالت « حسناً . » واخذت باصلاح شأنها وهمت بالخروج واذا باحد الخصيان دخل يقول « اين السيدة جهان ؟ »

فلما سمعت جهان اسمها اجفلت وظنت بابك آتياً او انه بعث يطلبها وما عتم ان وصل الخصي الى الغرفة فلاقته خيزران وسألته عما يريده فقال « ان اخاها يريد مقابلتها »

وسمعت جهان ذكر اخيها فتنازعها الفرح والغضب ـ فرحت لعلها تسمع منه خبراً عن ضرغام وغضبت لاعتقادها انه خدعها فقالت لخيزران « ادخليه »

وبعد قليل دخل سامان وعيناه تذرفان الدموع وقد احمرتا من كثرة البكاء ولما اقبل عليها ترامى بين يديها وهو يبكي فشغلها بذلك عن تعنيفه ولم تفهم سبب بكائه فابتدرته قائلة « ما بالك — ما الذي يبكيك ؟ »

قال وصوته مختنق من البكاء « لا ادري .. »

قالت « كيف لا تدري .. قل .. قل حالاً »

فلم يجبها ولكنه سكت وجعل يمسح دموعه بكمه وهو مطرق فقالت له من اين اتيت ؟ »

قال « من سامرا »

فقالت « وكيف ضرغام ؟ هل لقيته »

فلما ذكرت ضرغاماً عاد الى البكاء فاختلج قلبها في صدرها ووقفت فجأة وصاحت فيه « قل .. ما بالك ؟ . كيف ضرغام .. اين هو ؟ »

فتراجع وامسك يدها كانه يستعطفها ريثما يسكن روعه ثم قال « لا اعلم اين هو »

قالت « قلت انك كنت في سامرا »

قال « نعم كنت فيها .. ولكنه ليس هناك »

صاحت « ضرغام ! ليس بسامرا ؟ »

قال « ليس هناك يا اختي .. ليس هناك . وقد سألت الناس كافة فلم اسمع له خبراً »

فقالت وقد احتتها الدهشة « وبعدئذٍ .. كيف .. ماذا .. قل .. »

قال « ماذا اقول .. ان ضرغاماً ليس في سامرّا .. ولم يره احد رجع اليها بعد ذهابه الى فرغانة »

فلما سمعت قوله غلى الدم في عروقها وكاد الغضب يغلب على رشدها لكنها تجلدت وامسكت نفسها فتقدمت خيزران واخذته بيده نحوها وقالت « قل لي صريحاً ما الذي سمعته »

فقال وهو يخفض صوته يحاذر ان تسمعه اخته وهي واقفة تسمع « لما سطا علينا اللصوص كما تعلمين وتحققت انهم قبضوا على حبيبتي جهان وعليك رأيت من اوجب واجباتي ان ابلغ ذلك الى البطل ضرغام فاسرعت الى سامرّا وقصدت البيت الذي اعرف انه يقيم فيه فوجدته خالياً خاوياً وسألت كثيرين عنه فلم اقف له على خبر .. واخبرني احدهم .. » قال ذلك وبلع ريقه وسكت مطرقاً فلما وقف هناك اصغت له جهان وتطاولت بعنقها واشارت اليه خيزران ان يقول ماذا اخبره احدهم فقال « اخبرني ان عدونا الاكبر الذي هو سبب مصائبنا جميعاً بعث اليه جماعة من رجاله كمنوا له في بعض المخبيات وغدروه » ولما وصل الى هنا بكى

فلما سمعت جهان قوله ورأته يبكي امسكت نفسها حتى كفّ عن البكاء ثم تفرست في وجهه تفرس ناقدٍ وهو مطرق لا يستطيع النظر اليها كان اشعة نارية تنبعث من عينيها فتبهر بصره — والمنافق من طبيعته لا يستطيع تثبيت بصره في عيني احد ولا سيما اذا كان في غصون نفاقه — فالخبر الذي سمعته عن ضرغام بدلاً من ان يقيمها ويقعدها حتى يخرجها عن الصواب كما يتوقع الناس من امثالها في مثل موقفها لم يزد على انه نبّه تعقلها وبعثها على التأمل واعمال الفكرة فتذكرت كذب اخيها غير مرّة ولم يدلها قلبها على سوء اصاب حبيبها فقالت « هل تقول الحق ياسامان ؟ »

قال « ويلاه وكيف اذن .. هل اختلق الاخبار من عندي ؟ ان الذي رأيته وسمعته قصصته عليك وانمنى من صميم فؤادي ان يكون الخبر كاذباً »

فاطرقت هنيهة ثم قالت « من الذي انبأك اني هنا ومن ادخلك القصر بهذه الحالة »

فلما سمع سؤالها ارتج عليه ولم يكن مستعدّاً للجواب لان معرفته مكانها تدل على علاقة بينه وبين اللصوص فهو عند ذلك شريكهم . فتوقف حيناً فما امهلته ان يهيئ الجواب وقالت « لا اطلب منك جواباً ويكفي ما قد فهمته ولنا وقت آخر نعاتب به . اذهب الآن الى اصحابك الخرمية لعلهم يكافئونك على صنيعك معهم . اذهب » قالت ذلك وخرجت

من الغرفة وكانت قد تهيأت للذهاب الى هيلانة فتحوّل سامان وهو يهز رأسهُ ويتظاهر بتعجبه من تعصب اختهِ ضده ولماذا لاتصدقه

فلما خلت خيزران بجهان قالت « ارى ياسيدتي ان لاتستخفي بما ذكره سامان بل نبعث في تحقيق ذلك »

قالت « لاريب عندي بنفاقه ومع ذلك كلفي الجاسوس بما ذكرناه قولي لهُ يذهب الى سامرّا ويسأل عن ضرغام رئيس حرس الخليفة ومتى لقيهُ يخلو بهِ ويخبره اني هنا فقط »

فاطاعتها ولما وصلتا الى غرفة هيلانة رحبت بهما وجلست السيدتان للحديث ووقفت الخادمتان لحديثهما واتمت خيزران مهمتها كما تقدم

الفصل السادس والاربعون

بابك

مضت ايام وجهان تنتظر رجوع بابك من سفرته حتى ترى ما يتم لها معهُ وكانت تسمع بشدتهِ وفظاظتهِ . ففي ذات صباح وهي في غرفتها اتتها القهرمانة وهي كما لا يخفى رئيسة القصر والمستبدة في سكانه وما من امرأة او خادم او خصي الا وهو يلتمس رضاها ويخشى خدمتها لانها الوسيلة الوحيدة بينهم وبين بابك . الا جهان فانها لم تكن تستطيع التكلف باظهار غير ما تضمره فكانت اذا لقيت القهرمانة لاطفتها مع حفظ كرامتها فلم تكن تطريها او تملقها والقهرمانة لا تستنكف من ذلك لان جهان وقعت من نفسها موقعاً عظيماً واجلت قدرها منذ شاهدتها فكانت تميزها بالمعاملة وتلاطفها في الحديث — ففي ذلك اليوم جاءت القهرمانة ووجهها يتهلل بشرًا وبعد ان حيتها قالت « ابشري يا عروسنا ان العريس قد جاء »

فاجفلت جهان من هذا التعبير ولم تجب فحملت القهرمانة منها ذلك محمل الحياء فقالت « جئتك من قِبل مولانا بابك فانهُ رجع من سفره ولما علم بمجيئك سرَّ سروراً كثيراً وامرني ان ادعوكِ اليهِ »

فاجابتها جهان بهدوء وسكينة « الى اين ؟ »

قالت « الى قصره »

قالت « اليس هذا القصر لهُ ايضاً ؟ »

قالت « بلى ولكنهُ تعوَّد ان تنتقل نساؤهُ اليهِ للاقامة معهُ هناك »

فهزَّت جهان رأسها هزَّة الانكار والاباء وقالت « لا » ولم تزد

فاستغربت القهرمانة جوابها بهذه الصراحة وهي في ذلك الاسر بين مخالب الاسد وظنتها تنكر الخروج حياء فقالت « ان بين هذا القصر وقصر بابك دهليزاً مسقوفاً تسير فيهِ المرأة مكشوفة كانها في غرفتها ولا يراها احد .. تفضلي .. قومي »

فظلت جهان جالسة لا تبدي حراكاً غير اشارة الانكار فغضبت القهرمانة لهذا الاستخفاف وقالت بصوت عال « انصح لك يابنية ان تنهضي معي ولا تستخفي بهذا الرجل فانه فتاك لا يبالي اذا غضب ماذا يعمل من قتل اوقتك » ثم خفضت صوتها ودنت منها ووضعت يدها على كتفها بتحبب وقالت « وانا شديدة الحرص عليك لاني احببتك منذ رأيتك .. قومي ياحبيبتي قومي » فرفعت جهان بصرها اليها وقالت « اشكرك لهذا الاحساس ولكنني لست ذاهبة من هذه الغرفة .. »

فنفرت القهرمانة من ذلك الجواب وتحولت نحو الباب وخرجت وكانت خيزران واقفة تسمع ما دار بينهما وساءها ما ابدته سيدتها من الانفة والشدة وهمت بلومها بعد خروج القهرمانة فسبقتها جهان قائلة « لاتقولي شيئاً يا أماه فاني لا أبالي بما يكون من هذا الجلف العاتي ... يريد ان اخضع اليه بارادتي .. ما أنا فاعلة . وما قدّر يكون . لا يغرنك انفرادي وأسري فاني اشعر بمثل قوتي وسلطاني وانا في قصر والدي وبين اهلي واعواني . ذريه يفعل ما يشاء فان عروس فرغانة وخطيبة ضرغام لا تذل نفسها لانسان .. » ولما ذكرت ضرغاماً غصت بريقها فسكتت وتشاغلت بالنهوض وكانت قد لبست ثوبها والتفت فوقه بمطرف من الخز وتخمرت بشال مزركش التماساً للدفء لانها في اقليم بارد . فوقفت ومشت في ارض الغرفة وهي مطرقة تفكر في ماذا عسى ان يفعل بابك اذا بلغهُ اباؤها وعزمت على الدفاع والثبات الى آخر نسمة من حياتها

وهي تفكر في ذلك وخيزران واقفة لا تبدي حراكاً سمعت سعالاً جهورياً لم تعهد مثله في ذلك القصر فعلمت انه سعال بابك وآنست في القصر حركة وجلبة لان اهله لم يتعودوا دخول بابك عليهم وسمعت جهان صوت القهرمانة تخاطب بابك ونظرت

لجهة الصوت من نافذة صغيرة تطل على الرواق فرأت بابك قائماً والخدم الى كل من الجانبين يخرون سجداً والنساء يحنين رؤوسهن احتراماً والجميع يحيونه كما يحيون معبوداتهم واكثرهم من المجوس وهو يمشي مشية المختال الفخور

فلما وقع نظرها عليه ارتعدت فرائصها لاول وهلة ولم تستغرب ما شاهدته من سجود الناس فقد تعودت مثل ذلك لوالدها في قصره لكنها ابت ان تكون هي ايضاً في جملة الساجدين . بل شعرت بميل الى المغالاة في الترفع شأن الانسان اذا كان في رفعة وأصيب بما يحط من منزلته ببعض الشيء كالفقر او العز فانه يصبح اكثر ميلاً الى المحافظة على مقامه وربما كان متواضعاً قبل نزوله فيصبح بعده مترفعاً متكبراً

وكان بابك ضخم الجثة عظيم الهامة كبير الوجه جاحظ العينين ضخم الشفتين كبير الكتفين بارز الصدر اذا مشى ترنح في مشيته ترنح الخيلاء والكبرياء .. وتعود التصدر في موقفه او مجلسه حتى لو اراد الاشتاء لتناول شيء وقع منه لم تطاوعه اعضاؤه . ولا غرابة بذلك في من لا يفتح عينيه الاعلى المسبحين باسمه المستهلكين في ارضائه اذا امر اطاعوا واذا نهى رجعوا . وهو رئيس الخرمية في جميعهم وقائدهم في حروبهم . وكان شجاعاً شديد البطش قوي العضل ابي النفس . ولولا انغماسه في الملذات والشهوات لكان مثال الرجال العظماء ولا يبلغ ارجل هذا المبلغ من السلطان والجاه ما لم يكن على شيء من الفضائل والمواهب . ولكنه ادمن الخمر فكان يشرب منها مقداراً كبيراً ولا سيما في ايام السلم اذا قعد للتمتع بملاذه . وكان في ذلك اليوم قد اعدّ مائدة الشراب في قصره وبعث في طلب جهان وجلس في اثناء انتظارها يشرب ولما جاءته القهرمانة بخبر رفضها كانت الخمر قد عملت في رأسه فاعظم انكار جهان السعي اليه فغضب وجاء ليعاقبها بنفسه

فلما دنا من غرفتها تقدمته القهرمانة وفتحت الباب وقالت « هي هنا يامولاي » ورجعت واشارت الى خيرزان ان تخرج معها فخرجت وتباعدت وهي تراعي سيدتها باذنيها

الفصل السابع والاربعون

الانفة

وكانت جهان لا تزال واقفة فلما رأته داخلاً قعدت . فاستغرب استخفافها ولكنه ماوقع بصره عليها ورأى تلك الهيبة وذلك الجمال الرائع وما يتجلى في عينيها من الذكاء وما ترسلانه

من الاشعة الكهربائية حتى دهش . ومع كثرة من رأى من جميلات النساء الفارسيات والكرجيات والشركسيات والروميات وبعضهن اجمل من جهان تكوينًا واصفى لونًا لكنه لم تقع عينه على فتاة فيها ما في جهان من البصر الجاذب فخف غضبه لكنه لم يألف الرجوع عن رأيه وانما تعود ان يسترضيه الناس سواء كان محقًا في غضبه او محقوقًا . فلم يتمالك عند ما رأى استخفاف جهان به ان قال « وتقعدين أيضًا وانا واقف ؟ »

وكانت هي مع تجلدها ورباطة جأشها تنتفض من شدة التأثر لاول وهلة فتشاغلت باصلاح شعرها لا تبالي بما يبدو من وجهها أو عنقها ولما سمعته يخاطبها رفعت بصرها اليه وتفرست في عينيه وهو ينظر في عينيها فاحس بسهم اصاب منه مقتلاً وكأن الغضب تسرب من صدره حتى خرج من اطراف انامله وسري عنه . اما هي فاجابته « هل ينفعك قيامي ان لم تمتلك فؤادي ؟ »

فتومم من جوابها فرجًا فقعد على وسادة بجانبها وقال « ارجو ان يكون لي نصيب من ذلك الفؤاد .. اذ لا اظن احدًا اجدر به مني وانتِ تعلمين من هو بابك صاحب الحول والطول زعيم الخرمية قاهر جنود المسلمين .. و يسوءني اني حملتك اليَّ قهرًا ولكني لم افعل ذلك الا بعد ان فشلت من نيلك بالحسنى . فكيف رايتني ؟ »

فلما سمعت تلطفه وتقربه قالت « رايتك بطلاً باسلاً وتزعم انك ملك قاهر وما انت الاَّ اسيرٌ »

فاجفل وقال « اسير ؟ ماذا تقولين »

قالت « نعم انك اسيرٌ ... اسير شهواتك .. فمن كان ملكاً عظيماً قاهرًا لا يليق بهِ ان يكون عبدًا لشهواته ... اني اشمُّ رائحة الخمر من هنا »

قال يظهر انك تزعمين كما يزعم اولئك اليهود الذين يسمون انفسهم مسلمين فيحرمون الخمر وهل في ملذات العالم اشهى منها بل هي ام الملذات لانها تستنهض القوى وتستحث مطالب الجسد فتزيد الرغبة في ما تشتهيه النفوس من الطعام والشراب وغيرهُ فاذا قطعته فقد اضعت اطيب اسباب الحياة »

فتزحزحت من مجلسها واشارت بفمها اشارة الاستخفاف والاستغراب وقالت « تقول انك صاحب السلطان وقاهر المسلمين وتزعم ان معظم ملذات الحياة الطعام والشراب وغيرهما من مطالب الحيوان ..؟ وعندي ان مطالب الرجل ان يكون سيدًا جليلاً نافذ الكلمة يهابه البعيد ويحبه القريب »

فقطع كلامها قائلاً « الست كذلك ؟ »

قالت « كلاّ ... ربما خافك العبيد ولكن القريب لا يحبك .. والذين حولك يسبحون باسمك ويعظمونك انما هم يتملقونك فاذا غبت قالوا فيك كل قول قبيح ولا لوم عليهم فانك لم تفعل ما يحببك اليهم »

فملّ بابك البحث في موضوع احسّ انه مغلوب فيه ورأى من الجهة الاخرى انهُ بالغ في التنازل لتلك الفتاة واكبر ان تكون منهُ بمنزلة الواعظ او المرشد فقال « مالنا ولهذا الجدال الآن ؟ هيا بنا ياجهان » ووقف وهو يمد يده ليمسك بيدها ويعينها في النهوض فجذبت يدها منهُ وظلت قاعدة

فمد يده ثانية ليمسكها فوقفت ويدها وراء ظهرها وهي تقول « قف عندك يا بابك انك بهذا العمل تؤيد قولاً انت تنكره على الناس .. لاتدن مني »

فقال « ومن يدنو منك اذن غيري ؟ انت عروسي وقد بعثت في استقدامك من اقصى بلاد الترك لاجعلك سعيدة فلا تجعليني شقياً ؟ »

قالت « من كانت مطالبه حيوانية وكان ذا سلطان نافذ لا يشقى لان يده تطول ما يريده ان لم يكن بالمال فبالسيف فكيف تشقى لاني لم اسلمك يدي وفي قصورك مئات من النساء الجميلات فاحسب اني غير موجودة واتركني وشأني »

قال وكلامها واقف « لو لم اكن اتوقع السعادة بقربك أو لو كان في من بقي عندي غنى عنك ما تكبدت المشقة في استقدامك ولم اكن لانال ذلك لولا حبينا سامان . »

فتحققت من ذلك ان اخاها هو الذي اسلمها فتحولت نقمتها اليه واصبحت لاتدري ممن تنتقم ولا كيف تنتقم فتجاهلت ما فهمته عن سامان وقالت « تكبدت كل ذلك من اجلي لتجعلني مثل نساء قصرك ؟ »

قال « بل ابالغ في اكرامك واهدي اليك الجواهر والبسك احسن الملابس واختصك بالتقريب والمجالسة واجعلك سيدة هذه المدينة ولا امنعك شيئاً تطلبينهُ »

قالت « تلبسني الجواهر ؟ ما الجواهر عندي الا حجارة لامعة لا ترفع نفساً ولا تعلي مقاماً وهذا صندوقي مملوء من الجوهر والدر وقد تركت قصري وعقاري في فرغانة ولو بقيت هناك لكنت ملكة من الملكات واكن رأيت هذه الاموال من اسباب شقائي فتركتها ... »

فقطع كلامها قائلاً « بلغني ان ابطك المرزبان اباك اقام عليك وصيًا الافشين

صاحب اشروسنة ... ما لنا ولكل ذلك تعالي نتناول الطعام معاً » ودنا منها فتراجعت فغضب وعمد الى تهديدها فنظر اليها شزراً وقال « اذا كنتِ لا تأتين طوعاً اخذتك كرهاً وانت تعلمين اني اذا قلت فعلت . لقد كنتِ في فرغانة واتيت بكِ الى ارمينيا . فهل يشقّ عليّ ان انقلك من قصر الى قصر بينهما مئة خطوة ؟ »

قالت « اظنك تحسبني الآن وانا على مرأى منك اقرب اليك من يوم كنت في فرغانة . اعلم انني لا ازال بعيدة عنك كاني في فرغانة او ابعد منها »

قال « تقولين ذلك وانت بين يدي ولو شئت لقبضت عليك بيدٍ من حديد او امرت رجالي فيحملونك اليّ موثقة ؟ .. ولكنني لا ازال ارجو رجوعك الى رشدك »

فنظرت في عينيه نظرة حادة ملؤها التوبيخ والترفع وقالت « قد تقبض على عنقي وربما استعنت برجالك فاوثقتني او قتلتني . ولكنك تنال كل ذلك قبل ان تستطيع لمسة او نظرة مما كنت ترجوه مني .. اقتل .. واذا جبنت عن قتلي فانا لا اجبن عن قتل نفسي فلا تحتقرني او تهددني . واعلم انك تخاطب فتاة اكبر منك نفساً واربط جأشاً وافوى جناناً واذا كنت تحسبها كسائر من في قصرك من اللقيطات او المسبيات او الرفيقات فقد اخطأت . انك تخاطب ابنة مرزبان فرغانة ... فادتها التقادير اليك فاغتنم صداقتها ودع غير ذلك او فامض في سبيلك وأرحني وارح نفسك »

وكانت تقول ذلك بلهجة صاحب السيادة والسطوة وبابك يشعر انه يكاد يغلب على امره بين يديها كأن لها عليه سلطاناً وكلما ارسلت اليه نظرة حلّت من عزائمه عقدة فقال « والآن .. ما الذي تريدينه »

قالت « اريد ان تتركني وشأني »

قال « اتركك اياماً تفكرين في امرك لعلك ترجعين الى صوابك وتعلمين انك اذا اطعتني نلت السعادة » قال ذلك وتحوّل حتى خرج من الغرفة وقد تغيّر وجهه وكانت القهرمانة وخيزران واقفتين تسمعان شيئاً من الحديث وكلتاهما مهتمة بمسالة جهان وانقتها وبعد ان كانت القهرمانة ضدها اصبحت معها ولم تتظاهر بذلك لكنها صارت تلاطفها وتراعيها من ذلك الحين

اما جهان فلم تقل ما قالته لبابك على سبيل التهديد ولكنها كانت قد اعدت ما يلزم للدفاع أو الانتحار عند اليأس . وقد فتحت باب الاستهلال عنوة ريثما يعود الجاسوس وتعلم ماذا جرى لضرغام ثم تنظر في الذي تعمله

الفصل الثامن والاربعون

الجاسوس

ولم ينقض ذلك اليوم حتى شاع حديث جهان في القصر واطلعت عليه النساء ولم تبق واحدة الاَّ اعجبت بها واصبحن ينظرن اليها نظر الصغير الى الكبير او نظر الجاهل الى العالم وخصوصاً صديقتها هيلانة فانها حينما علمت بخروج بابك من القصر هرولت الى جهان واخذت تسألها عما جرى وجهان تتواضع في التعبير وتلتمس الاعذار لبابك على تغاضيه فلم يكن ذلك الا ليزيد جهان احتراماً في عينيها حتى تعشقتها واصبحت حديث اهل البذ ومضرب امثالهم وهي لا تعبأ بشيء من ذلك وانما همها استطلاع خبر ضرغام وابلاغ خبرها اليهِ ولم تعد ترى سامان

مكثت حيناً في انتظار رجوع الجاسوس وكانت قد اخلصت الود لهيلانة فقصت عليها متاعبها باختصار فشاركتها في ذلك واصبحت شديدة الاهتمام بشانها ولم تكن اقل قلقاً لرجوع الجاسوس من جهان نفسها . فاتفق يوم رجوع الجاسوس ان جهان كانت عند هيلانة في غرفتها وخادمتها قائمة بالخدمة اللازمة وخيزران غائبة فلاحظت جهان في وجه الخادمة تغيُّرًا وكانت تراقبها فقالت لهيلانة « اساليها عما قالهُ لها خطيبها »

فبغتت هيلانة لتلك المفاجاة قالت « وهل تظنينهُ جاء »

قالت « نعم جاء . . ويظهر انهُ لم ياتنا بخبر مفرح »

فاستغربت تكهنها واشارت الى خادمتها فانت فقالت لها « هل عاد صاحبنا من سامرَّا ؟ ومتى ؟ »

قالت « نعم ياسيدتي اتى منذ ساعتين »

قالت « ولماذا لم تخبرينا بذلك »

فقالت لو اتانا بخبر سار لبادرت الى نشره . . »

وكانت جهان تسمع ذلك فغلبت عليها البغتة وصعد الدم الى وجنتيها وقالت « ماذا قصَّ عليك ؟ »

قالت « قال لي انه سال عن الرجل الذي طلبتِ منه البحث عنه في سامرَّا كلها فلم يقف له على خبر »

قالت « هل نقدر ان نراه ونسأله شفاهاً ؟ »

قالت « لا ادري اذا كانت القهرمانة تأذن بذلك »

فقطعت هيلانة كلامها وقالت « هي تأذن بكل ما تريده جهان عروس فرغانة لأنها سحرتها ... قولي للقهرمانة انها تطلب مقابلة فلاناً لتكلفه بامر »

فذهبت الخادمة وعادت بهِ فسألته عما يعلمهُ فقال « سألت عن ضرغام يا سيدتي فلم اجد احداً يعرفهُ »

قالت « ألم تسأل عنهُ في قصر الخليفة ؟ »

قال « سألت عنهُ هناك فلم اقف على خبره »

قالت « اظنك لو سألت عن رئيس الحرس لوصلت اليهِ »

قال « سألت عن رئيس الحرس فقيل لي ان اسمهُ الصاحب »

قالت « هل انت واثق مما تقول ؟ »

قال « نعم ياسيدتي وقد دققت البحث عن رئيس الحرس نظراً لما رأيت من اهتمام الناس بهِ فقيل لي انهُ رجل شجاع باسل وان الخليفة يحبهُ حبًّا شديداً وقد زوجه فتاة جميلة من بنات قصرهِ واهداه هدايا ثمينة »

فثبت عندها انهُ يقول الصدق وقد يخطر لها ان يكون الصاحب ضرغاماً نفسهُ لولا حديث زواجه وهي لا تصدق ان ضرغاماً يتزوج و يتركها فتأكد عندها ما قصهُ عليها اخوها من قبل وان الافشين سعى في قتله فزادت نقمتها وغلب اليأس عليها واستغرقت في الهواجس وقد نسيت موقفها ولم تنتبه الا وخيزران تدعوها فخجلت لاستغراقها ونهضت تطلب غرفتها للاختلاء بنفسها ونسيت ان خيزران نادتها فلما خرجت من عند هيلانة لقيتها خيزران فقالت « الى اين ياسيدتي »

قالت « اظنك دعوتني وقد نسيت .. ماذا تريدين ؟ »

قالت « كنت في حديقة القصر فرأيت بابك خارجاً من قصره فظننتهُ خارجاً الى الحصون والمعاقل واذا هو دخل هذا القصر وطلب الى القهرمانة انهُ يريد مقابلتك الآن اوعزت اليَّ ان اطلب اليك ذلك »

فاجفلت وقالت « بابك الآن يطلب ان يراني ؟ »

قالت « نعم وهو في غرفتك »

قالت « وفي غرفتي أيضاً ؟ ما العمل يا اورمزد ساعدني .. اني أراني في ورطة يصعب

التخلص منها ... أعلمتِ الخبر الذي جاء بهِ الجاسوس ؟ »

قالت « نعم ياسيدتي علمته .. »

قالت « وما رأيك ؟ »

قالت « هل لي رأي بوجودك ؟ يظهر ان مولاي ضرغاماً ليس في سامرّا »

قالت « لا يخيفني غيابهُ عنها وانما يخيفني ان تصدق رواية اخي سامان بشأنه .. الم تسمعيها »

قالت « سمعتها ولكن من يعلم الصحيح »

الفصل التاسع والاربعون

الانقلاب العجيب

وكانتا تتكلمان وهما تمشيان على مهل حتى اشرفتا على الغرفة فتراجعت جهان وقالت « والآن لا بدَّ من مقابلة بابك ؟ ماذا اقول لهُ أو لعلَّ عندهُ خبراً جديداً .. »

وهي تتردد في ذلك سمعت صوت بابك ينادي من داخل غرفتها « جهان .. جهان »

فاسرعت وركبتاها تصطكان وهي تتجلد حتى اقبلت على باب الغرفة فاطلت على بابك وكان جالساً فوقف لها واستقبلها وهو يبش و يبتسم فلما رأت ابتسامهُ اطمأن خاطرها ولا سيما لما رأتهُ وقف لها ورحب بها بعد ما كان من مجافاتها وابتدرها قائلاً « اني اقف لعروس فرغانة وان كانت هي تحتقر بابك ولا تقف لهُ »

قالت « ان جهان لم تحتقر بابك وانما احتقرت خصالاً فيهِ قد ذكرتها »

قال وهو يجلس و يدعوها الى الجلوس « واذا نزع تلك الخصال منه هل تحبينهُ ؟ »

ولاح لها من خلال كلامه انهُ يقول ذلك جدًّا ليس على قبيل المجاملة او المداعبة فاظهرت ارتيابها قائلة « اراك تسخر من فتاة اغضبتك فاحببت التشفي منها ولكني اخلصت لك النصيحة وعرضت حياتي للخطر من اجل ذلك »

قال والاهتمام بادٍ في محيَّاه « لا باجهان .. اني لا اسخر منك ولكنني اعملت الفكرة في ما قلتهِ لي فقضيت مدة غيابي عنك وانا افكر في اقوالك وحقيقتها تتجلى لي رويداً

رويداً . وكلما انجلت شعرت بالخجل من نفسي وندمت على مافرط مني .. كنت منغمساً في الملذات والاكثار من النساء لاني لم اجد واحدة تملأ عيني وتملك قلبي . وانتِ لا ادري ما الذي غيرته من وجداني .. اراني منذ خاطبتكِ قد حدث فيَّ تغيير لم اعهد مثله من قبل . كأنك روح مرسلة اليَّ من عند اورمزد ... وانما همي الآن ان تقولي لي انك تحبينني .. » قال ذلك والعرق يتلألأ على جبينه

فاستغربت انقلابه ولم تخف انهُ يداجيها او يخدعها لانها قرأت الاخلاص في عينيهِ واكبرت ان ترى ذلك الرجل الفظ الشديد يتقرب اليها بتلك العبارات فقالت « هل تعني ما تقول ؟ »

قال « نعم .. ولا حاجة بي الى المداجاة كما تعلمين لاني الآمر الناهي . ولكنني عملت بنصيحتك لانها نزلت منزلة الدم من قلبي والسواد من عيني فهجرت الخمر وسأترك كل النساء من اجلك ... صدقت يا جهان ان العيشة الهنيئة في الحب المتبادل . وها انا احبك فهل انتِ تحبينني ؟ . لاعذر لك في الرفض الآن »

فاطرقت واستغرقت في افكارها وفي ما سمعته تلك الساعة عن ضياع ضرغام حتى يئست من وجوده .. وكيف ان ذلك الجبار يخطب رضاها ويشترط على نفسه ان ينقطع لخدمتها ويهجر الخمر والنساء سواها فحدثتها نفسها ان تجيبهُ بالايجاب فاعترضها خيال حبيبها فتصوَّرت انهُ وُجد بعد ذلك فكيف تقابلهُ وباي عين تنظر اليه . فظلت حيناً وهي تعمل فكرتها وبابك صابر ينظر اليها ويراقب حركات عينيها فلما استبطأ جوابها قال « اظنك تفكرين في الافشين »

فلما سمعتهُ يذكر الافشين ظنتهُ يعلم شيئاً عنهُ فقالت « وكيف عرفت اني افكر فيهِ وما هي علاقتهُ بي »

قال « أليس هو الوصي عليك ؟ »

قالت « بلى . واذا كان وصياً »

قال « لا اخفي عنكِ ماسمعتهُ وان كنت تحاولين اخفاءهُ عني . علمت ان الافشين بعد ان جعله والدك وصيًّا عليك طمع بزواجك فرفضتِ طلبهُ اليس كذلك ؟ »

فاطرقت وبدا الحياء في محياها ولاح الغضب في عينيها ولم تجب فقال بابك « وان فتاة ترفض الافشين ملك اشروسنة ثم ترفض بابك صاحب ارمينيا رغبة في الفضيلة لهي جديرة بالعبادة .. و بلغني ان الافشين انتقم منك انتقاماً جارحاً ... واورمزد لانتقمن

لك منه اشد الانتقام »

فلما سمعت تعريضه بالانتقام من الافشين مالت الى القبول ولكنها ما زالت ترجو لقاء ضرغام فقالت « اذا كنت تعني ماتقول وانك تنتقم لي من الافشين وقد افشيت اسراري عرفتها عني فاسمح ان أنبهك الى امر .. انت تعلم اني فارسية مثلك وابي مرزبان كبير لم تكن تخفاه خافية من اغراض الفرس على العرب . فانت متواطئ مع الافشين والمازيار صاحب طبرستان على قلب دولة المسلمين (١) .. اليس كذلك اصدقني »

قال « صدقتِ هذا هو الواقع فعلاً »

قالت « فما معنى ان يحاربك الافشين بجيش من المسلمين ؟ »

قال « هو يظهر نصرته للمسلمين ليجمع النقود منهم ويرسلها الى بلده ومتى وجد المال اللازم اتحدنا جميعاً وقلبنا هذه الدولة »

فنظرت اليهِ نظرًا نافذًا والاستغراب بادٍ في عينيها وقالت « هذا هو اعتقادك حقيقة ؟ »

قال « نعم »

قالت « انت قائد هذا الجند وزعيم هذه العصابة والناس يجلون قدرك ويسجدون باسمك ويسجدون لك . وتنطلي عليك هذه الحيلة ؟ »

قال « ولماذا تحسبينها حيلة .. اني اعرف الافشين من قبل وقد اجتمعنا وتعاقدنا على هذا الامر منذ بضع عشرة سنة ومعنا صاحب طبرستان وما زلنا نجدد العهد كل مدة واي مصلحة لهُ في المخادعة ؟ »

فتفرست في عينيه وقالت « ان الافشين يخدعك ليكسب المال بسبب قيامك لانك لو لم تقم انت لحرب المسلمين لم يبقَ له باب للارتزاق فهو يخادعك . اما المازيار صاحب طبرستان فربما كان اخلص طوية ولكنهُ لا دخل لهُ في عملك . . . فاذا شئت ان اجيبك على ما طلبتهُ مني فيسوءني ان تكون مخدوعاً وانت البطل صاحب السطوة تحارب برجالك فاذا فزت طالبك الافشين بحق الشركة واذا غُلبت استفاد من غلبك .. »

فانتبه بابك كانه هبَّ من رقاد ورآها تقول الصدق وشعر بسلطانها عليه وقال « بورك فيك انك صاحبة الرأي الصائب .. صدقت ان الافشين مداجٍ »

فقالت « فمثلك يجب ان يكون هو صاحب الامر واليه المرجع لاشريك لهُ يقاسمهُ ولا

(١) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار (الترجمة الانكليزية)

منازع ينازعه . فاذ رأيت ذلك كنت انا عونك حتى في التجنيد والحرب بشرط ان لا يتم زواج الا بعد الفراغ من هذه الحرب وعند ذلك افتخر اني نلت اكبر رجل في فارس »

فتحمس بابك وقال « ولكن قولي قبل كل شيء .. هل انت تحبينني منذ الآن ؟ »

قالت وفي شفتيها ابتسامة الظفر « ومتى كان الحب يهمك ؟ »

قال « منذ وجدت المرأة التي تستحق محبتي فارجو ان استحق محبتها .. فهل تحبينني ؟ »

فامسكت نفسها لحظة ثم قالت « نعم ... لا ... » ولم يطاوعها لسانها على هذا التصريح ثم استأنفت وقالت « احبك محبة الاخ حتى نفرغ من هذه الحرب »

قال « يكفيني ذلك ياجهان »

فاستدركت وقالت « وارجو ان لا يعرفني الناس بهذا الاسم لاني ساخاطب الجند وربما شاع ذكري فلا احب ان يعرفني الافشين او غيره ... فاسمي منذ الآن جلنار »

قال « حسناً يا جلنار » واحس من تلك الساعة براحة ولذة واعتبر نفسه انتقل من مصاف المنهمكين المسرفين الى طبقة اهل الفضيلة والحب . ولو بحث عن السبب الحقيقي لذلك الانتقال لوجد انه « الحب الصادق » لانه لم يتعود غير الانغماس في المشتهيات سداً للمطالب الحيوانية ولم يجرب الحب المتبادل بينه وبين فتاة تملك قلبه وتملاء عينه كما فعلت جهان .. فتبدلت حاله وعادت اليه اريحيته واصبح طوع رأي جهان لا يقطع امراً هاماً الا بعد استشارتها .. ولم يعرفها اهل البذ الا باسم « جلنار » لانهم لم يكونوا يعلمون بوجودها قبل تبديل اسمها

وتحفز بابك للوقوف وهو يقول « هذا هو بدء سعادتي ياجلنار فاني لم اكن في عمري كله اسعد حالاً مني في هذه الساعة ... » ووقف واتم حديثه قائلاً « لكنني استأذنك في امر اظنه لا يسوءك — وذلك ان خاصتي قد تعودوا مجالستي على مائدة الشراب وفيهم المولعون بالخمر ولم يوفقوا الى من يغلبهم على قلوبهم كما فعلت انت بقلبي ... فهؤلاء اذا باغتهم بابطال تلك المائدة اخاف ان يتغيروا او يغضبوا وانا في حاجة اليهم في هذه الحرب فأرى ان اساير هم واجالسهم واوهمهم اني اشرب معهم ريثما نرى ما يكون »

قالت « لا بأس من ذلك ولكنني ارجو ان تعزم منذ الآن على تبغيض المسكر اليهم بالتدريج »

فاشار مطيعاً وهو واقف وقوف الغلام بين يدي مربيته واصبح وهو مثال الاستبداد والعنف لين العريكة يلذ له الخضوع والاذعان — — يدلك ذلك على نفوذ المرأة العاقلة

عند الرجل اذا هي أنته من طريق القلب واحسنت الاسلوب في رده عن النقائص . على انها لا تستطيع شيئاً من ذلك الاَّ بطريق الحب . فيجب عليها اولاً ان تجعله يحبها فمتى ملكت قلبه اصبح كما تشاء . اما اذا ارادت اصلاحه بالانتقاد في غير الوقت المناسب فقد تزيده تمسكاً بزلاته

اما جهان فسرَّها تغير بابك وقبوله بما اشترطته عليه لما فيه من صيانة نفسها ريثما تحقق امر حبيبها والانتقام من الاشين .. وتذكرت في تلك اللحظة اخاها سامان فاستوقفت بابك وقالت « لي طلبة ارجو ان تقضيها لي »

قال « لكِ كل ما تريدين »

قالت « سامان . اخي . انت تعرفه وتعرف انهُ خانني وغدر بي .... لا اطلب الانتقام منهُ ولكنني اريد ابعاده من هذه المدينة لان في وجوده خطراً على هذا الجيش ... لا اطلب قتله او سجنهُ بل اكتفي بأبعاده لنأمن شرَّه »

قال « كنت عازماً على ابعاده من عند نفسي وان كان قد خدمني بخيانتهِ ... اذ لولاه لم احظ بعروس فرغانة ولكنني اخاف ان يخونني كما خان شقيقتهُ . كوني مطمئنة اني مبعده سريعاً .. واين تحبين الاقامة الا تنتقلين الى قصري ؟ »

قالت « دعني في هذا القصر كما انا فاني مستأنسة باهله وان قضت الاحوال بان نلتقي لمشورة او تدبير تواعدنا في حينه »

فلم يراجعها وتحوَّل وهو يبتسم وينظر في وجهها نظر المحب المتهيب ولم يستطع تثبيت نظره في عينيها . اما هي فوقفت وهشت له فودعها وهو يقول « نحن على وفاق منذ الآن .. وانت تحبينني ؟ »

قالت « اننا اخوان .. انت اخي بابك وانا احبك محبة الاخ وارعاك رعاية الاخت لاخيها وسترى اني باذلة نفسي في سبيل راحتك »

خرج بابك من بين يديها وقد غُلب على امره ولما مرَّ بالدهليز ووقع بصره على من فيه من الجواري والسراري وما فيهنَّ الاَّ من تتمنى رضاه وتتملقهُ وتتزلف اليه واذا غضب استرضتهُ ووقفت بين يديه وقوف الذل اوسجدت سجود العابد فتصور كيف غلبته جهان على رأيهِ واصبح لا همَّ لهُ الاَّ استرضاؤها وقد لذَّ لهُ تنازله في اكتساب قلبها بعد ان تحقق استقلال فكرها وصدق لهجتها وعلو همتها وشعر بانعطاف نحوها وخاف ان يكون سبب شقائه اذا هي لم تجبهُ بمثله . فلما فعلت اصبح ما تخيله من الحب الطاهر المتبادل بينهما من اكبر اسباب سعادته

الفصل الخمسون

اليأس

فلنترك البذّ واهله ولنعد الى سامرًا فقد تركنا فيها ضرغامًا بعد ان بثّ الجواسيس في انحاء المشرق الى فرغانة وغيرها. فلبث برهة من الدهر ينتظر عود الجواسيس فعادوا وما فيهم من سمع خبرًا او عرف شيئًا يهديه الى مكانها. وكان ضرغام في اثناء الانتظار على مثل الجمر لا يدري ماذا يعمل فلما خاب انتظاره غلب عليه اليأس وفكر في صاحب الذنب بضياعها فلم يجد غير الافشين ثم تذكر ما سمعهُ عن سامان ونفاقه وغدره فارتاب في امره. وكان يقضي ايامه منفردًا في منزله الاّ اذا خرج المعتصم واصطحبهُ للصيد او الرياضة او الصلاة او نحو ذلك. وكان يستأنس بياقوتة استئناسًا كثيرًا لكمالها ومشابهتها بجهان وكلما شاهدها تذكر صاحبه حمادًا وودّ من صميم فؤاده ان يجمعها بهِ لعله يوفق الى من يجمعه بحبيبته

ولما طال انتظاره وانقطعت اخبار جهان عنه ويئس من وجودها استولت عليه السويداء ولم يعد يرى للحياة معنى وود لو انهُ يشغل نفسه بحرب اونكبة او مرض او يموت و يتخلص من عذاب الشوق والقلق. ولا يجد سبيلاً الى الموت بغير الانتحار وهو يعدّهُ جبنًا لا يرتكبه غير الضعفاء اذا غلبوا على امرهم وشوركوا في عقولهم. فترفع عن الانتحار وفي نفسه بقية امل في العثور على خبر جهان. وقد كبر عليه من الجهة الاخرى ان يموت ولا يثأر لها فوقع في حيرة وظهرت حيرته في وجههِ فلم يكن يراه احد الاّ تبين في محياه القلق رغم ما كان يحاوله من التكتم والمغالطة ولا سيما بين يدي والدته لئلاّ يحزنها ولم تكن هي لتخفى حاله عليها رغم ما كان يظهره من عدم المبالاة. وكان اذا سألته عن جهان واخبارها قال « انهم لم يقفوا لها على خبر وقد انفذت آخرين لجهات اخرى » و يظهر امله بالعثور عليها وهي توهمهُ انها صدقت قولهُ وتزيدهُ املاً بلقائها

ولم يكن له تعزية غير وردان وقد اصبح على طول العشرة اقرب الناس الى ثقته وموضع امله. فكان اذا اخذته الحيرة او استولى عليه القلق شكا اليه حاله واستشاره في امره ووردان يخفف عنهُ. حتى سمعهُ مرة يشكو البقاء في الحياة وهو يتمشى في حديقة القصر ووردان الى جانبهِ فقال له « ومثلك لا يأخذهُ الضعف الى هذا الحد يا مولاي »

قال « لا تقل مولاي .. لانك صديقي يا وردان ... ولذلك رأيتني اشكو اليك همي .. واكاشفك بما في ضميري .. اني لا ارى معنى للحياة مع اليأس من لقاء جهان »

قال « لكل نفس اجلها لا يستطيع احد تأخيره ولا تقديمه .. واصبر ان الله مع الصابرين »

قال « لقد مللت الاصطبار ولا ارى راحة بغير الموت .. ولكنني احتقر الانتحار واصحابهُ .. »

فانتبه وردان لرأي يوافق ما في نفسهِ منذ جاء العراق ويلائم ضرغاماً فقال « هل كرهت الحياة ؟ »

قال « كرهتها ... نعم كرهتها »

قال « مثلك يكره الحياة ويعجزه السبيل الى النجاة منها وهو من خاصة المعتصم وكبار قواد المسلمين والحرب قائمة لا يخمد سعيرها بينهم وبين جيرانهم الفرس او الروم او العرب او غيرهم ؟ »

فانتبه ضرغام لامرٍ كان ينبغي ان ينتبه له من قبل وقال « صدقت ان الموت في ساحة الوغى ميسور لمثلي ولكن امير المؤمنين ضايقني بتقريبهِ فقد جعلني صاحبه ومنعني من السفر »

فقال « اظنهُ لا يمنعك بعد الآن »

قال « ولماذا ؟ »

قال لان الاخبار تتوالى باستفحال امر الخرمية في ارمينيا حتى ضاق الافشين ذرعاً عن بابك وحصونه »

قال « من انبأك بذلك ... كنت احسب الامر عكس ما تقول والخليفة لا يخفي عني شيئاً »

قال « ان الخليفة لا يخفي عنك خبراً عرفهُ ولا ذنب لهُ في اخفاء ما لم يعرفه »

قال « هل تعرف شيئاً عن هذه الحرب لا يعرفهُ الخليفة ؟ »

فحك وردان ذقنهُ وتشاغل لحظة بالسعال ثم قال « نعم يا سيدي .. لان الوزراء ورجال الخاصة يرون من حسن السياسة كتمان بعض الاخبار عن الخليفة »

قال « صدقت ولكنني من الخاصة ولم يبلغني شيء مما تشير اليه .. »

قال « ولا اظنه يبلغك من سواي لاني سمعته من مصدر لاعلاقة له برجال البريد الذين يحملون الاخبار الى الخليفة »

فاستغرب ضرغام ذلك وقال « ماذا سمعت ؟ قل »

قال « سمعت ان بابك الخرمي بعد ان انتقل من اردبيل الى البذ واتخذها حصناً لهُ تضاعفت قوته »

فقطع ضرغام كلامه قائلاً « هذا سمعناهُ بالامس »

قال « وهل عرفت سبب استقوائه بعد ان كاد يعمد الى الفرار ؟ »

قال « نعم . انه استقوى بمن انضم اليه من الاقوام المنافقين على المسلمين »

فتبسم وردان وقال « هذا هو السبب الفرعي ولعله يبلغ الى الخليفة اليوم على يد صاحب البريد .. اما السبب الأصلي فهو غير ذلك »

قال « وما هو »

قال « اخبرني بعض القادمين من ارمينيا خبراً كدت انكره لولا ثقتي بالمناقل ان بابك المشهور بالنهك والانغماس بالسكر والفحشاء كما تعلم قد اخذ في الرجوع عن هذه الرذائل واصبح اذا جالس رجالهُ على مائدة الشراب لايشرب معهم . وانهُ انقطع الى تدبير جنده واستجماع قواه واستفاض الناس على المسلمين ... اخبرني ذلك رجل يعرف دخائل البذ .. وينسبون هذا التغيير الى امرأة من نسائه ذات عقل وتدبير اسمها جلنار غلبتهُ على رأيه وتصرفت في اموره »

فاطرق ضرغام لحظة وقد ساءه رجوع بابك عن رذائله لانه كان يرجو ان تكون عوناً لهم عليه .. وكان يفكر في ذلك وهو واقف بجانب شجرة من التفاح يتلاهى بضرب بعض اثمارها المتدانية بخيزارنة في يده ووردان واقف الى جانبه . واذا ببعض غلمان الخليفة جاء مسرعاً فلما رآه ضرغام علم انهُ قادم من عند الخليفة يدعوه اليه فاجابهُ انهُ آت . فرجع الغلام

فالتفت ضرغام الى وردان وقال « اظن الخليفة يدعوني للاطلاع على اخبار الحرب »

قال « اذا اقترح مولاي ان يسير في هذه الحرب فليأمر ان اكون في خدمته لاني عالم باحوال تلك البلاد وطرقها فلعلي انفعه في شيء »

قال « حسنا » وتحول الى المنزل ليس فانسونه وسواده وذهب الى دار الخاصة في قصر الخليفة فوسع لهُ الحاجب وادخله بلا استئذان فلم يجد عند الخليفة الا القاضي احمد ولكنه قرأ في محياه القلق والغضب فلما اقبل وحيا بشَّ له الخليفة وامره بالجلوس فجلس متأدبا فقال له الخليفة « اظن الصاحب قد مل الانزواء في هذا القصر وقد ضايقناه بهذا الاكرام

وامساكه عما تتوق اليه نفسهُ من خوض المعامع »

فادرك ضرغام (الصاحب) ان الخليفة يمهد لهُ طلب السفر الى الحرب وانه لم يفعل ذلك الا وهو يرى الحاجة ماسة الى نجدته فقال « ان البقاء بجوار امير المؤمنين نعمة و بركة ولكن الضرب بسيفه فرض مقدس وقد طالما حدثت نفسي ان التمس من امير المؤمنين ان يرميَ بي الى الحرب القائمة في ارمينيا وانا اتهيب فاذا اذن لي وكان ذلك موافقاً لرضاه فقد غمرني بفضله وانا في كل حال صنيعته وربيب نعمته »

فاستحسن الخليفة مبادرته ونظر الى القاضي احمد فالتفت القاضي الى ضرغام وقال « ان امير المؤمنين ضنين بك حريص على قربك كما تعلم ولكنني لحظت منك في هذه الاثناء انقباضاً حسبته ناتجاً عن هذا الانحباس لعلمي ان القواد والشجعان لا يسرهم الا خوض المعامع والظفر في الحرب ونحن الآن في حرب بارمينية وقد صبرنا على ذلك المتمرد لاعتصامه في حصونه فاشرت على امير المؤمنين ان يوجهك الى هناك فيأتي النصر على يدك »

قال « اني على ما يريد امير المؤمنين وانا على اهبة السفر من هذا الساعة »

فقال الخليفة « انت تعلم ان جند المسلمين في ارمينيا تحت قيادة الافشين فهل يشق عليك ان تكون من قواده »

قال « لا يهمني ان اكون في هذا الجهاد رئيساً او مرؤوساً وانما يهمني ان اكون سيفاً من سيوف امير المومنين القاطعة »

فهش لهُ الخليفة وقال « بورك فيك .. وسابعث الى الافشين ان يعرف قدر الصاحب دون سائر القواد » قال ذلك واشار اشارة الصرف

فوقف ضرغام وقال « باذن مولاي بانصرافي والشمس دعاءه و بركتهُ وارجو ان لا اعود اليه الا وقد فتح البذ وقتل طاغيته »

فابتسم لهُ الخليفة فخرج بعد ان امر لهُ الخليفة بالخلع والانعام واحس ضرغام من تلك الساعة ان قلقهُ قد ذهب لدخوله في مايشغله عن الهواجس

وكان وردان في انتظاره بباب القصر فلما خرج وعلم بما تم لهُ استأذن بالذهاب معهُ فقال « حسنا .. ولكني كنت احب ان تبقى قريباً من والدتي هنا »

قال « لا باس عليها وهي في قصر الخليفة وبين يديها الخدم والموالي »

فوافقه ومضى الى والدته اخبرها ان الخليفة امر بذهابه الى الحرب فاظهرت استحسانها تنشيطاً لهُ وقالت « اطلب الى الله ان يعيدك ظافراً »

ثم تحول الى يافوتة وحياها فلما علمت انهُ يتاهب للسفر دمعت هيناها فنشطها وقال « ادعي لي بالتوفيق لعلي الاقي حماداً في طريقي — لا تحسبيني غافلاً عن واجباتي » قال ذلك وتنهد تنهداً خفياً لانه تذكر مصيبته بضياع حبيبته

فاجابته يافوتة بدمعتين ارسلتهما على خديها وهي مطرقة لاتتكلم فتركها وخرج وامر وردان بالاستعداد للسفر وبعد ايام تاهب وودع والدته واوصاها بيافوتة خيراً وسافر في فرقة من خاصة رجاله الفراغنة كلهم اشداء

الفصل الحادي والخمسون

معسكر الافشين

جرت بين جند المسلمين والخرمية مواقع كثيرة في اردبيل وغيرها واستقرَّ الخرمية اخيراً في البذ مدينة بابك وهي مدينة حصينة او قلعة كبيرة مؤلفة من قصور وقلاع حولها سور ضخم له الابواب الكبيرة وعليه الابراج الكثيرة والطريق اليه وعر بين الجبال والاودية وكان جند المسلمين اولاً في اردبيل فلما فرَّ بابك منها الى البذ شمالاً اقتفوا اثره . وبين البذ واردبيل عدة مواضع جعلها المسلمون نقطاً عسكرية تحفظ لهم خط الرجوع وتضمن الاتصال مع سامرا مقر الخليفة . فكانت الميرة القادمة من العراق اذا دخلت ارمينية انزلوها في اردبيل ومن هناك ينقلونها تحت الخفر الى نقطة عسكرية اسمها حصن النهر ويعود خفراؤها الى اردبيل ويتولى خفارتها جند آخر من حصن النهر الى ارشف وهكذا الى خش فبرزند الى روذ الروذ وهي آخر محطة قبل البذ وبينهما بضعة فراسخ

وكان الافشين قد كلف الكوهبانية وهم اصحاب الاخبار ويشبهون قلم المخابرات في جنود هذه الايام ان يختاروا محلاً يعسكر فيه وان يكون حصيناً . فاختاروا في روذ الروذ ثلاثة اجبل عليها انقاض ابنية قديمة فاقام عسكره عليها وسد الطرق الموصلة بينها وبين البذ بالاحجار الضخمة حتى صارت كالحصون ثم حفر خندقاً وراء الحجارة عند كل طريق الاَّ طريقاً واحداً يخرج منهُ رجالهُ اذا اراد الهجوم — بذل في هذا العمل جهداً شديداً فكانت الرجالة تنقل الحجارة وتحفر الخنادق والعساكر تحرسها ليلاً ونهاراً

وكان بين روذ الروذ والبذ وادٍ بين آكام وعرة فعبَّى رجاله وعهد كل فرقة منهم الى

قائدمن قواده وهم ثلاثة جعفر الخياط وابو سعيد واحمد بن الخليل اقامهم في محطاتٍ بينهُ وبين البذ قبل الوادي الفاصل بينهما . فاصبح معسكر الافشين كبيراً جداً اذا اراد النهوض او المسير بهِ جعل علامته ضرب الطبول لبعد المسافات واحتجاب الفرق بعضها عن بعض بالجبال والاودية . فاذا سار ضرب الطبول واذا وقف امسك عن ضربها . فيقف الناس جميعاً او يسيرون جميعاً في مصافهم وعلى ترتيبهم وكان للافشين مجلس على اكمة يشرف منهُ على البذ ويرى قصر بابك وغيره من قصور المدينة

وكان بابك كثير الاعتماد في حروبه على الكمناء فكان يرسل طوائف من رجاله يكمنون في الاودية ووراء التلال ليفاجئوا جند المسلمين ويغدروا بهم . وكان الافشين كثير الاهتمام بذلك فيرسل الجواسيس اوالكوهبانية للبحث عن الكمين

قضى في ذلك الحصار مدة طويلة وهو يشاغل الخرمية فيأمر قواده المشار اليهم فيقطع كل منهم الوادي الى الجانب الآخر بازاء البذ في كردوس من رجاله فيقف كل منهم بكردوسه هناك وبابك يخرج فرقة من جنده تحمي باب السور ويمنع الاعداء منه . فاذا انقضى النهار امر الافشين رجاله بالعود الى معسكره الاصلي وراء الخندق فيرجع اولاً اقربهم من البذ ثم الابعد فالابعد حتى يدخلوا الخندق ويبيتوا هناك . وكان الخرمية يتضايقون من هذه المطاولة فعزموا على الفتك فراقبوا رجوع كراديس الافشين من جانب الوادي ذات يوم كالعادة حتى لم يبق منهم الا جعفر الخياط بكردوسه فخرجوا عليه وارتفعت الضجة فرجع جعفر بنفسه ورد الخرمية الى باب البذ ووقعت الضجة بالعسكر حتى بلغت الافشين فرجع فرأى جعفراً واصحابهُ يقاتلون فاشفق عليه وخاف ان يفسد عليه تدبيره

اما جعفر فجاءتهُ نجدة من المتطوعة وهي فرقة تنصر المحاربين رغبة في الغنائم والسبي فاشتد ازره وهجموا على السور وتعلقوا به وكادوا يصعدونهُ ويدخلون المدينة وبعث جعفر يستمد الافشين بخمسماية راجل ويؤمله بدخول البذ حالاً . فبعث اليهِ الافشين يقول له « انك افسدت علي تدبيري فتخلص قليلاً قليلاً وخلص اصحابك وانصرف » ثم تحركت كمناء بابك فاضطر جعفر الى الرجوع وهو يأسف لضياع الفرصة

وقضى المتطوعة بعد ذلك اياماً حتى فات علوفتهم وزادهم وهم يتذمرون ويقولون لو تركنا الافشين لدخلنا البذ . وضج سائر الجند يطلبون الحرب وهو يخشى الفشل — او لعله كان يطاول رغبة في جمع المال . لان المعتصم كان قد جعل له على كل يوم يركب فيهِ عشرة

آلاف درهم وكل يوم لا يركب فيه خمسة الاف درهم سوى الانزال والمؤونة (١) فجمع من ذلك مالاً كثيراً كان يرسله الى اشروسنة

الفصل الثاني والخمسون

سامان

واتفق وهو جالس ذات يوم في فسطاطه بالمجلس الذي يطل منه على البذ ان وقع نظره على جماعة من رجاله يقودون رجلاً يظهر من قيافته عن بعد انه من اهل البذ وما عتم ان وصلوا به اليه حتى عرف انهم يقودون سامان اخا جهان فلما وقع بصره عليه أجفل ولكنه توقع ان ينتفع منه بشيء فصاح بالرجال ان يتركوه فتركوه . فتقدم سامان وهو مطاطىء الرأس حتى دنا من سرير الافشين فجثا فامره الافشين ان يقف و بش له وقال « ما وراءك ياسامان من اين اتيت ؟ »

قال « من البذ يا سيدي »

فلما سمع قوله توسم منه خيراً فاشار اليه ان يقعد فقعد وتأدب في مقعده فابتدره قائلاً « ما الذي ادخلك هذه المدينة »

فهز رأسه وقال « اتيت اليها في خدمة مولاي الافشين »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « ما زلت منذ تشرفت بلقيا مولاي في سامرا وانا ابحث عن جهان عملاً بامره حتى علمت انها عند بابك . . »

فدهش الافشين لقوله فصاح به « جهان هنا الآن . . هنا في البذ ؟ »

قال « نعم ياسيدي »

قال « وما الذي جاء بها الى هذا البلد البعيد ؟ »

قال « اخبرتك يا مولاي ان اللصوص خطفوها مني بقرب همذان فما زلت اجد في البحث حتى علمت ان بابك هذا هو الذي بعث في اختطافها لانه سمع بجمالها وكان قد خطبها من والدي فمنعه منها . وكأنه اقام الكمناء يترقبون خروجها حتى تمكن من غرضه »

(١) ابن الاثير ١٩٥ ج ٦

فقال « وبعدئذ ؟ الا تزال هنا ؟ »

قال « ان امر اختي هذا يحيرني .. انها لا تستقر على حال فبعد ان رفضت النعمة التي عرضها عليها صاحب اشروسنة رضيت ببعض رجاله .. والآن اراها قد رضيت ببابك واصبحت اعز نسائه اليه تستهلك في نصرته . وكم نصحت لها ان ترجع عن غيها وحرضتها على المجيء الى الافشين لانه ولى نعمتها فأبت فلما رايتها متشبثة بعنادها تركتها وجئت اليك »

قال « بورك فيك ولكن بلغني من بعض الجواسيس ان اعز نساء بابك اليه امرأة اسمها جلنار يقولون انها قوية العقل حسنة التدبير وانها اعانته وشدت ازره كثيراً »

فقال « هي جهان نفسها يا سيدي وقد غيرت اسمها تمويهاً . وواعدت صديقها الجديد ان تنصره على جند المسلمين فهي تتفانى في نصرته ولولاها لقضي عليه من زمن مديد »

وكان الافشين يعلم خبث طوية سامان ولكنه ساءه رغبة في استمالته على امر لا ينفعه فيه غير الخبثاء ولم يفته ان سامان يكرهه ولو استطاع قتله لقتله فعمد الى مداجاته فهز رأسه وحك ذقنه واصلح قلنسوته وهو يتحرك في مقعده وقال « بئس ما كافأتنا به هذه الفتاة على احساننا فقد اغضبناك في مصلحتها فكافأتنا بالعقوق ... ولكن ذلك من اسباب سعدك ... » و بلع ريقه يظهر انه ينوي له خيراً سيصرح له به بعدئذ وعاد فاستأنف الكلام قائلاً « الم يعلم ضرغام بوجود جهان هنا؟ »

قال « كلاَّ ولا هي تعلم بوجوده حياً »

فلم يصدق قوله فقال « وكيف ذلك وضرغام لم يدخر وسعاً في البحث عنها »

قال قد ساعدني على ذلك تغيير الاسماء .. كن على يقين انها تعتقد ما قلته لها عنه انه قتل وهو لا يزال يعتقد انها خطفت الى مكان مجهول .. فعلتُ ذلك خدمة لمولاي الافشين رغم ما قاسيته من اعراضه وحرماني » قال ذلك ونظر الى الافشين وعيناه ترقصان فضلاً عما فيهما من الحول الكثير »

فقال « قد علمت الآن صدق خدمتك واذا برهنت لي ذلك باتمام هذه المهمة تأكد نجاحك »

قال « اني رهين الاشارة سل ما تشاء فابذل نفسي في خدمتك »

قال « تقول انك كنت في البذ فما الذي تعرفه عن اهله وحصونه ورجاله »

قال « ان المدينة منيعة كما ترى وفيها الجند والاسلحة والحرمية متضامنون في اموالهم

وانفسهم يتفانون في خدمة زعيمهم ولكنني ارجو ان يغلبوا على امرهم »

قال « بماذا ترجو ذلك »

قال « ارجوه مما اعلمهُ من داخلية هذا البلد .. اعرف ان فيها من الاسرى المسلمين وغيرهم عددًا كبيرًا منهم ٧,٦٠٠ من النساء والاطفال ولا يخفى على مولاي ماعرف به بابك من الفتك حتى قدروا الذين قتلهم حتى الآن بنحو ٢٥٥,٠٠٠ نفس فترى الناس قد ملوا سيادته حتى المقيمين في بلده واذا تمكن عشرون رجلاً منكم ان يدخلوا المدينة ويراهم الناس فاهل المدينة جميعاً يسلمون »

قال « ما رأيك في الجهة التي نهاجم البلد منها حتى نضمن الدخول اليها »

فوقف سامان واشار بيده الى جبل في طرف البلد وقال « من هنا ياسيدي .. أرأيت هذا الجبل فان بابك يقيم الكمناء في سفحه لعلمه ان العدو اذا تجاوزهُ هان عليه دخول المدينة فاذا احتال مولاي في الاتيان من ورائه ظفر »

فسر الافشين من قدوم سامان وهمَّ ان يستزيده ايضاحًا فاذا بالحاجب دخل وهو يقول « ان بريد امير المؤمنين بالباب »

قال « يدخل »

الفصل الثالث والخمسون

البريدي

فدخل البريدي وعلى وجهه امارات السفر والتعب وعلى صدره الصفحة النحاسية التي يعلقها سعاة البريد وعليها علامة خاصة فلما دخل حيا ووقف فناداه الافشين « تقدم . ما وراءك »

فتقدم البريدي ودفع اليهِ لفافة حريرية عليها ختم الخلافة فتناولها وقبلها ثم فضَّ الختم فاذا داخلها انبوبة من فضة مختومة نفضها وفتحها فاخرج منها كاغدًا ملفوفاً نشره وأخذ يقرأهُ وسامان يراعي حركاتهِ وملامحه فرأى في وجهه تغيراً فتجاهل حتى اذا فرغ من تلاوته اشار الى البريدي بالانصراف فانصرف والتفت الافشين الى سامان وهو يبتسم ليزيده ايناساً رغبة في خدمتهِ وكان سامان لا يزال واقفاً فأمره بالجلوس

وقال « اتعلم فحوى هذا الكتاب ؟ » قال « من اين لي ان اكون نبياً اعلم الغيب ؟ »
قال « انهُ كتاب المعتصم يستحثني فيه على اثبات ويخبرني انهُ ارسل الي نجدة بقيادة صاحبه ضرغام »

فاظهر سامان الاستغراب وقال « العل صاحب اشروسنة في حاجة الى هذه النجدة وهو الملك والقائد وجنده قد ملأ السهل والجبل »

قال « كلا .. وامير المؤمنين يعلم ذلك .. ولكني اخاف ان يكون الرجل قادماً لغير الحرب .. اخشي ان يكون قد عرف بجهان .. وهب انهُ علم او لم يعلم فجهان لا يمسها احد سواي ان لم يكن حبا بها او افتتاناً بجمالها فانتقاماً من كبريائها ووقاحتها اني لا انسى جسارتها ذلك اليوم في فرغانة »

قال « اما ضرغام فلا شك عندي انهُ لم يعلم بوجود اختي هنا بل هو لا يعتقد انها في قيد الحياة .. ونظراً لتكلفه بها فربما كره الحياة بعدها واتى الى ساحة القتال رغبة في الموت فاني ارى في الناس جنوناً لم اجربهُ .. اراهم اذا احب احدهم الآخر فعل فعل المجانين حتى يعرض حياته للخطر من اجله واذا اصاب احدهما الموت اراد الآخر ان يتبعه .. اني لا افهم ذلك »

فضحك الافشين حتى بانت نواجذه وقال « ان كان قد جاء يطلب الموت فاهلاً بهِ ومرحباً .. لهُ علينا ذلك حبًّا وكرامة . اما استغرابك ما تراه من تفاني المحبين فانت معذور به لانك اجرود لا تشعر مثل شعورهم » ثم اطرق هنيهة وقال « اذا هجمنا غداً على البلد ودخلناه فاين تكون اختك ؟ »

فوقف سامان والتفت الى البذ واشار بيده وهو يقول « أرأيت هذا القصر الفخيم عند الباب الشرقي ؟ هذا هو قصر النساء وفيهِ تقيم جهان . ومن اراد الوصول اليهِ حالاً فليأته من ذلك الباب » ثم اشار بيده الى قصر في جهة الغرب وقال « وهذا القصر عند الباب الغربي هو قصر بابك نفسه انهُ امنع القصور ولا يهاجمه احدٌ الاّ قتل فافعل ما بدالك »

ففهم الافشين غرضه وتحرك من مقعده وهي اشارة الصرف فتحوّل سامان وطلب الانصراف فقال له الافشين « انت تمكث هنا ولا تخرج من هذا المعسكر الاّ عند الحاجة لنستأنس بك »

ففهم سامان قصده فقال « احب ان اكون اسيراً عندك حتى تتحقق صدق خدمتي لكنني اتقدم اليك ان تبقي خبري مكتوماً عن ضرغام وغيره والاّ فسد تدبيرنا »

فاشار الافشين برأسه ان «نعم» ثم نادى غلامه وامره ان يكرم سامان ويحتفظ به فخرج سامان من حضرته وقد سرّ واستبشر — سرّه ان الافشين احسن لقياه ووعده بارث ابيه انتقاماً من اخته . واستبشر بقرب الانتقام من اخته متى جاء ضرغام فيدبر له مكيدة يقتله فيها . ونسي انه كان ناقماً على الافشين وقد استعان بضرغام عليه . وان اخته صاحبة الفضل الاكبر عليه . ولكنه كان يجري في اعماله على هوى نفسه بلا قاعدة فلم يبغض الافشين اولاً لانه تعدى حدوده في الوصاية او لانه اراد السوء باخته وانما ابغضه لانه حرمه من الارث . ولم يحب ضرغاماً لشهامته واريحيته او قرابته وانما اظهر حبه له ليستعين به في نيل مرامه . ثم انه لم ينقلب هذا الانقلاب في الحالين الا رغبة في مصلحة نفسه فلم يكن له قلب يحب ولا نفس تشعر ولا وجه يخجل فتحولت جوارحه الى مجرى واحد هو حب المال وزاده حباً فيه يأسه من احترام الناس له لسجاياه او مناقبه فاراد ان يكتسب احترامهم بالمال ظناً منه انه متى صار غنياً احترموه واجلوا قدره . ولا نظنه كان يلتمس حبهم لان من كان يهمه ان يحبه الناس لا يرتكب دنيئه يكرهونها

فسامان لم يكن يرجو حب الناس لهُ وانما كان يطلب احترامهم الظاهر ولو لغنوه في قلوبهم . ويطلب الرفعة والثروة ليستعين بهما على التشفي والانتقام فمن كان هذا دابه كان عدوًّا للبشرية وامثاله كثيرون ولكنهم لا يظهرون

الفصل الرابع والخمسون

الصاحب

لما خلا الافشين بنفسه بعد خروج سامان اعمل فكرته ملياً في ما سمعه منهُ فرآه يلائم مصلحته وما همه ان كان سامان يفعل ذلك حباً بهِ او خوفاً منه او طمعاً بالوصية . وراجع ما سمعه عن جهان وتذكر جمالها وكبرياء ما فسره انه ظافر بها ولا شك عنده انها متى وقعت يده هذه المرة رضيت به . فاعترض فكره هذا ضرغام لان حبها له كان سبب فشله للمرة الاولى فاصبح هو العقبة الوحيدة في طريقه . وتذكر ما اغرّ به سامان من حيث الايقاع بضرغام فعلل نفسه بذلك وزاد رغبة في قتله بالحيلة وهو هين عليه فقضى الافشين اياماً في مثل ذلك حتى جاءه صاحب الخبر بقدوم الصاحب مع رجاله .

وفي صباح اليوم التالي جاء ضرغام فلاقاه الافشين واظهر الترحيب به واثنى على رغبته في نصرة الدولة . فاجابهُ الصاحب شاكرًا ولحظ الافشين في وجههِ تغيرًا من الانقباض على اثر يأسهِ من جهان وربما ادرك الافشين ذلك لكنهُ تجاهل وجعل يبالغ في اطراء بسالته وعلو همته فقال ضرغام « لافضل لنا في خدمة الدولة ونصرة الدين الحنيف »

قال « صدقت وقد جئت في ابان الحاجة اليك فاني لا ارى بين قوادي من يركن اليه في المهمات نظيرك وقد خبرتك وعلمت شجاعتك وصبرك »

فقال ضرغام « كنت قد استطلت الحرب واستبطأت الفتح فلما عاينت هذه الحصون ووعورة هذه الارض رأيت الافشين قد اتى ما تعجز عنه الابطال . وانا عالم ان مجيئي لا يزيد شيئًا في معداته ولا يهون عليه فتحًا ولكنني ملت الاقامة واحببت ان يكون لي في هذه الحرب نصيب . وقد عاهدت نفسي ان اتصدى لاشد الوقائع خطرًا .. فارم بي حيثما شئت »

فتحقق الافشين ما ظنه من يأس ضرغام واحب تغيير الحديث ريثما يدبر له مهلكا فقال « بورك فيك . ومانحن في عجلة للحرب الاَّ بعد ان تستريح من عناء السفر .. اخبرني عن اهل سامرًا كيف هم وكيف امير المؤمنين »

قال كلهم في قلق من امر بابك هذا ولكنهم يثنون على ثبات الافشين وتدبيره .. وقد آنست من الخليفة رغبة في الفراغ من هذه الحرب فجئت لالقي نفسي في اقرب السبل لهذا التعجيل ولو كان فيه موتي فاني اتعجل الشهادة .. » قال ذلك وابرقت عيناه بريقًا حادًا قرأ الافشين من خلاله حديثًا طويلاً فقال « غدًا ننظر في ذلك واما الآن فاخرج بنا نطلعك على معسكرنا ومواقع القواد ونظام الخنادق والحصون والمكامن » قال ذلك منهض وامر ان تهيأ الافراس

فنهض ضرغام وهو يقول « قد رأيت بعض هذه المعاقل فعلمت ان مولانا الافشين قد اتى في تنظيمها بالمعجزات »

ومشى الرجلان وبين ايديهما الخدم حتى ركبا وقضيا بقية ذلك اليوم في التجول بين الحصون والاستحكامات . فرأى ضرغام جندًا كبيرًا وتدبيرًا حسنًا وسرَّه اهتمام الافشين في اطلاعه على ذلك من تلقاء نفسه فقال له « ان مثل هذا الجند لا ينبغي ان يصبر على فتح هذا البلد طويلاً »

قال « غدًا اقص عليك سبب الابطاء »

وافترقا . فذهب ضرغام الى فسطاطهِ وكان وردان في انتظاره وقد اصبحا صديقين

حميمين . وضرغام ينظر الى وردان نظره الى صديق مخلص ووردان كذلك لكنه ما زال يخاطب ضرغام باحترام ووقار ولا سيما امام الناس . فلما اجتمعا قص ضرغام ما لقيه عند الافشين الى ان قال « وقد وعدني الافشين ان يسرع بالفتح وألحت عليه ان يرمي بي في اخطر المواقع فاذا لم ارجع فانت مكلف منذ الآن ان تنوب عني برعاية والدتي المسكينة » قال ذلك واختنق صوته فانحنى حتى يخفي اختناقه وعاد الى اتمام الكلام فقال « وانت تعلم قلب والدتي وما قاسته في محبتي ... وباقوتة احتفظ بها ريثما يمن الله عليها برجوع خطيبها اظنك تعرفه .. واما جهان فاذا كانت لا تزال في قيد الحياة ولقيتها بعد موتي فبلغها ما تعلمه من وجدي .. »

فقطع وردان الحديث وقال « لا توصني فاني لست باقياً بعدك وما صحبتك في هذه المهمة الا لأكون في خدمتك حيثما سرت »

قال « نعم ولكن ما تكون خدمتك لي يوم القي بنفسي الى القتل وانا انما افعل ذلك فراراً من بقاء هو اثقل على قلبي من العدم وانت لا باعث لك على هذا اليأس »

فتنهد وردان واطرق وارسل دمعتين تقطرتا من مآقيه وكأنه خجل من ذلك الضعف فرفع بصره وقال « ان نصيبي من اليأس كبير جداً ولو علمته لطلبت ان اسير انا امامك واذا بقيت حياً قصصته عليك .. وفي كل حال ارجو ان لا تراجعني في الذهاب بين يديك حيثما سرت وان يكون مصيري مثل مصيرك »

فاعجب ضرغام بار يحيته ولم يستغرب تعريضه بسبب يأسه فانه كان قد شعر بشيء من ذلك ولم يشأ ان يستطلعه اياه الا اذا عنّ هو نفسه ان يكاشفه به فقال « لك ما تريد يا وردان وغداً نرى ما اعده لنا الافشين من المهام »

اما الافشين فقضى تلك الليلة مع سامان يدبران المكيدة . وفي صباح اليوم التالي اتى ضرغام الى الافشين ومعه وردان فدخل ضرغام الى الفسطاط والافشين وحده فيه فرحب به فسأله ضرغام عما دبره فقال « لا ازال أرى الصبر على الحصار برهة اخرى »

فاجفل ضرغام لهذا التغيير وساءه تأجيل الموت فقال « ولماذا »

قال « لاني ارى في هجومنا اليوم خطراً كبيراً .. فقد قضيت البارحة وانا اقدّر واقيس وافرض التعبية على كيفيات مختلفة فلم اوفق الى تعبية تضمن لنا النصر »

قال « هل تخبرني عما تخافه على جندنا لعل لي فيه مخبراً ؟ »

فنهض الافشين ومشى حتى وقف بباب الفسطاط وضرغام بازائه واطل من ذلك

الباب على البذ وحصونها فقال « ارأيت هذه المدينة انها امنع من عقاب الجو ولا سيما من جهة الغرب حيث ترى ذلك القصر الفخيم فانه قصر بابك الذي يقيم فيه فاذا وصلنا باب السور الذي يليه اخذنا المدينة »

قال « وما الذى يمنعنا من اخذه »

قال « الا ترى هذا التل الشاهق المشرف على المدينة من غربيها .. لا سبيل اليه الا من ورائه والطريق هناك وعرٌ لا يسلكه الجند الكثير ولا يجسر الجند القليل على سلوكه لما يلقاه من نبال الخرمية ومجانيقهم عن الاسوار . وبابك كثير الاعتماد على الكمناء فنخاف ان يكون له كمين او غير كمين وراء ذلك التل او في واديه »

فقال ضرغام « انا اذهب في طريق ذلك التل مع رجالي الفراغنة »

قال « اذا فعلت ذلك عبيت انا سائر الجند حول الاسوار من سائر جهاتها والفتح مضمون لنا باذن الله »

فقال ضرغام « ومتى يكون الهجوم »

قال « متى شئت »

قال « الليلة .. دعوني اداهم القوم ليلاً فاذا اصبح الصباح وانا داخل البذ حيًّا اهجموا انتم على سائر المدينة فيكون فتحها امرًا مقضيًّا »

قال الافشين « بل ارى ان نتهيأ جميعاً للهجوم ليلاً وذلك ان تذهب انت برجالك من وراء التل وتمكث تجاه المدينة حتى ترى نارًا اوقدها هنا بعد نصف الليل وعلامتها انها مثلثة اي تكون ثلاث نيران متحاذية فاذا رأيتها علمت ان الجند كله مهاجم المدينة من سائر جهاتها فاهجم انت برجالك من تلك الجهة . ولكن لا يخفى عليك يا ولدي انك في اشد المواقع خطرًا »

قال « لا ابالي بالخطر .. انا ذاهب الآن لاهيء رجالي وارجو ان نلتقي جميعاً في قصر بابك غدًا » قال ذلك وضحك ضحكه مغتصبة كشر فيها عن اسنانه كما يكشر الاسد اذا همَّ بالوثوب . وكان الغضب واليأس قد زادا وجهه هيبة وقوة فازداد شارباه وقوفاً وحاجباه خشونة وعيناه بريقاً وحدةً حتى تهيب الافشين النظر اليه والتفرس في عينيه فقال له « لو كان لنا عشرة مثلك لفتحنا البذ من زمن بعيد » اراد بذلك ان يثبته في عزمه وهو على يقين انه لا يستطيع تجاوز التل الى السور لما يجعله بابك هناك من آلات الدفاع الخطرة فضلاً عن الكمناء . واغرب من ذلك ان ضرغامًا ودع الافشين ليذهب ويتهيأ

للهجوم وهو لا يعرف شيئاً عن الطريق ولم يسأل عنه . وفرح الافشين لانه لم يسأله عن الطريق لان جهله يؤكد فشله

تحول ضرغام عن باب الفسطاط وهو يقول للافشين « غداً نلتقي هناك » واشار بيده الى قصر بابك والافشين يهش له . حتى اذا توارى عن الخيمة القيه وردان فماشاه وهو يقول له « ما الذي تم الاقرار عليه ؟ »

قال « الليلة نهاجم البذ ونأخذه »

قال « من اين ؟ »

قال « نأتيه انا والفراغنة من وراء ذلك التل حتى ندخل من الباب الغربي وبجانبه قصر بابك فنكون اول من دخله او نموت تحت الاسوار .. وهو المطلوب »

فلما سمع وردان قوله وقف والتفت اليه وقال « هل تعرف الطريق الى ذلك التل ؟ »

قال « لا .. لا اعرفه .. ولكن .»

قال « ولكن ماذا .. انه طريق طويل ينبغي لسالكه ان يسير من وراء التل مسافة عدة ساعات حتى يأتي الى سفحه تجاه السور »

فانتبه ضرغام لتسرعه وقال « وهل تعرف الطريق انت ياوردان ؟ »

قال « نعم اعرفه »

قال « فانت دليلنا بل انت قائدنا هلم بنا الى رجالنا لينهيأوا من الآن فننتقل بهم اصيل هذا النهار بالطريق الذي تعلمه حتى نصل في العشاء الى تجاه المدينة »

قال « حسناً » ومشيا وكلاهما ساكت يريان الخطر الذي يهددهما واليأس يعزيهما عنه . حتى وصلا معسكر الفراغنة وهم قليلون لايتجاوز عددهم بضع مئات لكنهم اشداء منتخبون يستهلكون في طاعة ضرغام ولو قال لهم القوا انفسكم في النار لتسابقوا اليها

اما الافشين فبعد خروج ضرغام من عنده جاء سامان فقص عليه ما فعله وقال « الكمالة عندك ياسامان »

فقال « سمعاً وطاعة » وخرج . وامر الافشين جنده بالتعبية للهجوم في ذلك الليل ليأخذوا القوم على غرة وجعل فرقته تهاجم المدينة من جهة الباب المؤدي الى قصر النساء الذى تقيم فيه جهان او جلنار حتى اذا فتح البلد ودخل الناس للنهب قبض هو على قصر النساء وسلم جهان الى من يحتفظ بها ثم يلتفت الى قيادة الجند

الفصل الخامس والخمسون

التل

اما ضرغام فلما تهيأ رجاله للمسير مشى بهم ووردان دليلهم وداروا حول التل حتى وصلوا الى مكان فيه يشرف على البذ من جهة الغرب فمكثوا هناك وقد مضى العشاء واظلمت الدنيا فامرهم ضرغام ان يتربصوا وهم على اهبة الهجوم وانفرد بوردان على اكمة ونظرا الى البذ فرأيا فيه انواراً متفرقة كما يطل القادم على بلد في الليل من بعيد فانه لايرى الا انواراً ويندران يتبين شيئاً من ابنيتها او قلاعها . وعلم ضرغام ان وردان يعرف البذ فاخذ يسأله عن مواقع تلك الانوار فقال « ان اقرب هذه الانوار الى السور واكثرها شعشعة انوار قصر بابك وهو الذي سنفتحه او نقتل تحته وترى انواراً بعيدة في الجانب الآخر من البلد فهناك قصر النساء ولا اظنك تجهل استكثار هذا الرجل من النساء وانغماسه في اللذات »

قال « كلا .. وقد اخبرتني بالتغيير الذي اصابه من عهد غير بعيد وان سبب ذلك التغيير امرأة من نسائه ذات عقل وتدبير ... كم ينبغي ان تكون تلك المرأة عاقلة ! »

قال « انها عاقلة ولذلك يقال انها غالبة على رأيه لايقطع امراً الا بمشورتها »

فتنهد ضرغام وبلع ريقه وقال « مالنا ولذلك الآن دعنا ننظر في الطريق الذي سنتخذه في الهجوم ... ما الذي يحول بيننا وبين المدينة الآن ؟ »

قال « بيننا وبينها واد »

قال « وكيف نقطعه »

قال « نقطعه من مكان كالجسر فوقه ومتى صرنا في الجانب الآخر كنا قريبين من السور فنهجم عليه ونتسلقه . ولا اظننا نجد عليه حامية لان الحرمية لايخطر لهم ان عدوهم يأتيهم من هذا الطريق الوعر او يجسر على النزول من هنا »

قال « هلم بنا ننزل »

قال « تمهل يامولاي حتى تطمئن القلوب ويهجع الناس ولا يحسن بنا المسير الا بعد نصف الليل وبعد ان نرى النار التي سيوقدها الافشين »

قال « حسناً .. ونحول الى رجاله واوصاهم بالسكون والتربص في اماكنهم

وان لايوقدوا نارًا ولا يخرجوا صوتاً حتى يأمرهم بالتقدم ثم تركهم واشار الى وردان فلحقه فلما خلا به قال له « تعال تجسس الممر الذي قلت عنه لنرى هل هو سالم او لعل فيه عقبة »

فاستحسن وردان رأيه وعجب لسهره على جنده ومشيا مدة طويلة في ارض صخرية كثيرة الحجارة يتلمس الماشي ارضها تلمساً وكان الظلام مخيماً لايرى الرجل الا ما بين يديه. وقد ساد السكون لايسمع في ذلك الهدوء حفيف شجر ولاخرير ماء او نقيق ضفادع لكنه قد يسمع كشيش ثعبان ينساب بين الصخور اورفرفة ناعق يحلق في الجو. فلما مشي ضرغام ورفيقه كان لوقع اقدامها صوت يذلا الجهد في اخفائه لئلا ينمّ عن مكانهما

مشيا ساعة في مثل ذلك حتى اقتربا من الوادي ورأيا فوقه شبه جسر من الصخور يمر عليه الاثنان والثلاثة معاً. فقال ضرغام « تحدثني نفسي ان اسير توًا الى السور فاصعد عليه والناس في غفلة ومتى صرت داخل السور يشتد ازر المسلمين بي فيكون هجومهم ادعى الى الظفر »

فقال « اخاف عليك كميناً اومخبأ والاحسن ان نعود معاً واعود انا وحدي ونستدعي الرجال ونتعاون على العمل »

قال « اذهب انت واتركني هنا حتى تعود بهم »

فقال « احذر يا مولاي .. واذا رأيت داعياً ناد وردان واذا مكثت ولم تحرك ساكناً لا لا خوف عليك »

قال « اني ماكث هنا حتى تعودوا »

فتحول وردان صاعداً نحو الفراغنة وظل ضرغام وحده. فلما خلا بنفسه نظر نحو السور فوجده على نحو مئتي خطوة منه فلم تطاوعه نفسه على الانتظار في مكان واحد فرأى ان يتمشى الهوينا حتى يصل الى السور ثم يعود فمشى وهو لا يعرف الطريق وانما جعل وجهته السور. وكان ينقل قدميه وهو يحاذر ان يسمع وقعها ويرفع السيف بيده لئلا يلطم حجرًا فيخرج صوتاً. ولما دنا من السور وجده عاليًا وعليه الابراج ولكنه لم يسمع صوتاً ولا رأى نورًا الا في برج كبير فوق الباب رأى فيه ضوءًا ضعيفاً. ولم يسمع الا صهيلاً بعيداً كانه آت من داخل المدينة

حتى اذا صار على مقربة من السور سمع حركة فوقف ويده على قبضة حسامه وما شعر الا وعشرات من الرجال خرجوا من وراء الصخور بين يديه ومن خلفه وبايديهم السيوف

مشرعة كانهم كانوا ينتظرون قدومه فتحقق انه كمين خرج عليه فاستل حسامهُ وصاح فيهم صيحة اجفلتهم ووثب وثوب الاسد يضرب ذات اليمين وذات اليسار ضرب رجل شديد الباس قوي القلب يطلب الموت وكانوا يفرون من امامه فرار الظباء من الاسد وهو يتبعهم ولا يدري مانصبوه لهُ فما درى الا وهو يهوي في حفرة فانقلب وسقط السيف من يده وقد شدت الحبال حول قدميه وكتفيه واخذوا في استخراجه من الحفرة . واذا هو يسمع جلبة وقرقعة ودبدبة وصوت وردان ينادي لبيك ياسيدي . فتحول الكمين نحو الصوت وتركوا عند ضرغام من يحفره . وعلم ضرغام ان رجاله اتوا لانقاذه ولا يزالون بعيدين فزأر زئير الاسد ونادى « وردان اقطع هذه الحبال »

فما كان الا كلمح البصر حتى وصل وردان اليه وقطع الحبال . فلما افلت ضرغام تناول سيفه وصاح بالخرمية ورجاله وقتل اكثرهم وفر الباقون ولم تمض ساعة حتى خلت تلك الساحة منهم فصاح ضرغام في رجاله هلم الى السور . وما أتم كلامه حتى سمع صوتاً هائلا كانه دبدبة جبل يتدحرج واذا بوردان يقول « تنح ياسيدي انهم يدحرجون عجلات من اعلى الجبل عليها صخور كبار [1] لا تلبث ان تصل الينا ولا تفيد الشجاعة في دفعها »

فتنحى ضرغام وقد كلت ذراعه من كثرة الضرب والطعن ولو لم ينبهه الى التنحي من طريق العجلات لقتل تحت واحدة منها اذ لم يمض يسير حتى وصلت كالسيل الجارف او كالرجم المتساقطة او هي كجلمود صخر حطه السيل من علي

ولما استقرت تلك العجلات في آخر انحدارها جاء بعضها بلصق السور تماماً بحيث يمكن التسلق فوقها الى سطحه . وشاهد ضرغام ذلك فصاح برجاله « على السور » وركض امامهم وسيفه مشرع ولم يكد يفعل حتى راى ظهر السور قد امتلأ بالرجال في ايديهم النبال اخذوا يرمون بها على الهاجمين وهولاء لا يبالون وفي مقدمتهم ضرغام وقد وقعت قلنسوته وتمزق قباؤه وانتبش شعره وتقطعت سراويله . ولو راى نفسه بمرآة في تلك الساعة لانكر انه هو ضرغام صاحب الخليفة

وكان وردان يقتص اثر ضرغام فرآه قد صعد على احدى العجلات بقرب الباب وهم بتسلق السور فعمل مثل عمله واذا بباب السور قد فتح بعضهُ وخرجت منه فرقة من الخرمية احاطت بالعجلة ومن عليها والقوا الحبال على ضرغام ووردان فتحولا واعملا السيف في

(١) ابن الاثير ١٩٢ ج ٦

الحبال فتقطعت وصاح ضرغام « ما بالكم تحاربوننا بالحبال اين سيوفكم ايها الجبناء »

فلم يجبه احد منهم وهو واقف على العجلة يعمل السيف فيهم حتى زلقت قدمه عن خشب العجلة فوقع وارتطم رأسه بحجر فغاب رشده . فلما رآه وردان في هذه الحال شغل به عن نفسه فتكاثر عليهما الرجال وقبضوا عليهما وحملوهما الى داخل السور

فصعدوا بهما الى البرج فوق الباب والقوهما بين يدي رئيس حامية ذلك الباب فامر بالماء فرش على ضرغام فلما صحا تحفز ليقبض على سيفه و يهم بالوثوب فاذا هو موثق بين يدي صاحب الحامية والتفت فرأى وردان الى جانبه في مثل حاله فعظم عليه الامر فصاح في القوم قائلاً « عار عليكم ان تلجأوا في النجاة الى الحبال فان كنتم رجالاً حكموا السيف ... اقتلوا ولا تأسروا »

الفصل السادس والخمسون

المكاشفة

قال ضرغام ذلك والتفت فرأى رئيس الحامية جالساً على مقعد وعليه القلنسوة والسراويل من لباس الخرمية ولم يتفرس فيه لضعف النور . وشاهد بين يديه جماعة من رجال الحامية الذين نجوا من المعركة وعليهم آثار القتال ومعهم يلغطون بالفارسية وهو يعرفها فخاطب الرئيس بها بمثل ما قال بالعربية فلم يجبه . ولكنه اشار الى رجاله فخرجوا واغلق الباب وراءهم وتقدم الى ضرغام فحل وثاقه ثم وثاق وردان وقال بالعربية « قم يا ضرغام ... قم واجلس »

فلما سمع ضرغام الصوت اجفل لانه يعرف صاحبه والتفت الى الرجل وتفرس في وجهه فعرفه فصاح « حماد ؟ »

قال « نعم حماد » وهو صديقه خطيب ياقوتة . فنظر اليه والدهشة بادية في وجهه وقال « ما الذي جاء بك الى هذا المكان »

قال « جئت بعد مفارقتك اياي قرب همذان ببضعة ايام لسبب لا تجهله وقد دخلت في خدمة هذا المجوسي طلباً للانتقام من صاحبك الظالم .. اما كان الاجدر بك ان يذخر هذه السيوف في الدفاع عنه بدلاً من ان تكون عليه ؟ »

فابتسم ضرغام رغم ما هو فيه من القنوط وقال « ليس صاحبي ظالماً » ثم تذكر وعده البحث عن جهان فقال « خفف عنك اني حامل اليك خبراً يسرك وارجو ان تكون حاملاً مثله لي »

فبغت حماد وبدت الدهشة في عينيه وقال « ماذا ؟ هل وجدت ياقوتة ؟ واين هي »

قال « نعم وجدتها وهي الآن في منزلي بسامرا عند والدتي معززة مكرمة »

فظن حماد نفسه في حلم لفرط دهشته ولم يتمالك عن النهوض من شدة الفرح وقال « ياقوتة في منزلك الآن ؟ » واكب عليه وقبل رأسه ووجهه وهو يقول « هل هي في خير وصحة ؟ اني اشكر لك فضلك .. ثم تراجع وتغيرت سحنته كأنه تذكر امراً ازعجه وقال « ولكنني لسوء الحظ لم أُوفق الى خدمتك مثل توفيقك في خدمتي .. على اني لم اذخر وسعاً في السعي والاستفهام .... كيف فعلت انت هل وقفت على خبر جهان ؟ »

قال « لم اغادر وسيلة من وسائل البحث وذهب سعيي عبثاً » وسكت وقد انقبضت نفسه وبدا الاهتمام في وجهه وقال « لو انك تركت رجالك يجهزون عليّ لفعلت خيراً معي لاني لم آت هذه البلاد التماساً للفخر بالفتح أو الكسب بالغزو وانما اتيت لالقى حتفي واتخلص من هذه الحياة » قال ذلك وهو يحرق اسنانه ويتململ

فشعر حماد بحقيقة حاله فاخذ يخفف عنه فقال « لا تيأس ياصديقي البطل من الفرج فانه يأتيك وان حسبته مستحيلاً .. انت تعلم ما كان من امري مع ياقوتة وكيف تركت وطني واهلي يأساً منها وها انت تقول انها سالمة فاتاني الفرج من حيث لا انتظر ... ولا اخفي عنك اني هممت بمثل فعلك وكدت اعرض نفسي للقتل .. ولكنني وفقت الى امر هدأ روعي وساعدني على الصبر اظنك لو وفقت اليه لصبرت مثلي »

وكان ضرغام يسمع حديثه وهو غارق في الهواجس ولحظ حماد فيه ذلك فاستلفت انتباهه بيده فوضعها على كتفه ثم نزع بها قطعة من تراب مجبولة بالدم كانت لاصقة عليه من جملة لطخ الدم على ثيابه التي تقطعت او تناثرت . فانتبه ضرغام لكلام حماد فاصغى فقال حماد « ألم توفق الى فتاة تشبه حبيبتك فتتعزى برؤيتها ... ان ذلك يخفف كثيراً من لوعة البعد ويساعد على الصبر .. »

فتذكر ضرغام مشابهة ياقوتة لجهان فقال « نعم وفقت الى ذلك ولكنني لم اشعر بما يخفف اللوعة وكانت رؤية ذلك الشبيه كثيراً ماتهيج اشجاني .. »

فهز حماد رأسه هزة الاستغراب وقال « اما انا فاني استأنس بشبه ياقوتة استئناساً يكاد

يذهب بقنوطي وان لم يكن لي وصول اليها . فقد رأيت لياقوتة شبيهة في هذه المدينة هي اعز نسائها جانباً واسماهن رتبة وامنعهن مقاماً لكنها لا تحتجب فتخرج مسفرة لا تبالي ان يراها الناس وكنت كلما نظرتها تيمنت بطلعتها وتعللت برؤيتها كالظمآن يستغني بالفاكهة الرطبة عن الماء الزلال »

وكان وردان جالساً يسمع ولا يقل عنهما قلقاً ولكنه رأى من التأدب ان لا يدخل في الحديث من تلقاء نفسه فلما سمع حماداً يذكر شخصاً يشبه ياقوتة تذكر شبه ياقوتة لجهان وهمّ ان يستوضح حماداً فرأى ضرغام قد سبقه الى ذلك وقال بلهفة « واين رأيت شبيهة ياقوتة ؟ »

قال « رأيتها في هذه المدينة في قصر بابك نفسه . . . لا اظنكم تجهلون الفتاة التي قامت بنصرة بابك وغيرت طباعه وردّته عن الرذائل التي كان غارقاً فيها . . »

قال وردان « اظنك تعني جلنار »

قال « نعم هي اعني . . انها تشبه ياقوتة شبهاً عجيباً فكنت اذا رأيتها حسبت ياقوتة امامي . وكانت تتردد الى قصر بابك او تخرج معه على فرسها مكشوفة الوجه فلم اشاهد في حياتي اجمل منظراً ولا اكثر هيبة وجلالاً منها »

فاحس ضرغام للحال باختلاج قلبه ولو كان الضوء كافياً لرأى حماد الدم يتصاعد الى وجنتيه وقد ابرقت عيناه واطرق لحظة راجع فيها ما يذكره عن ياقوتة ومشابهتها لجهان فقال في نفسه لعل هذه جهان فالتفت الى حماد وقال « ومن هي جلنار هذه ومن اين اتت »

قال « هي من جملة نساء بابك حملت اليه من بلد بعيد كما حمل عشرات من امثالها لكنها كانت اشدهن تأثيراً عليه وقد اثرت في نفسه مثل تأثير السحر . فبين ترى رفيقاتها مختبئات في قصر النساء اذا رأيا بابك سجدن له تراها راكبة فرسها الادهم تجول في المعسكر تأمر وتشير وامرها نافذ على الكبير والصغير »

فلما سمع ضرغام قوله « فرسها الادهم » احس باعضائه ترتعد او هي قشعريرة البغتة ولم يتمالك عن النهوض وهو يقول « فرسها ادهم . جهان جهان . . اين هي . . . حماد اين هي ؟ »

فاستغرب حماد لهفته ولم يفهم مراده فقال « كيف عرفت انها جهان واسمها جلنار »

قال « عرفت ذلك من وصفك فقد ذكرت انها تشبه ياقوتة وانا اعرف ياقوتة وهي شديدة الشبه بجهان وذكرت ان جوادها ادهم وانها حملت من بلد بعيد وكلها تنطبق على وصف جهان ولا عبرة بتغيير الاسم . فانت تعرفني مثلاً باسم ضرغام وليس في سامرا احد

يناديني بهذا الاسم الآن فاني اسمى الصاحب ... فهي جهان بلا شك وقد شعرت بذهاب اليأس من قلبي .. قل اين هي الآن »

قال « اظنها في قصر النساء لانها تبيت هناك وتخرج عند الحاجة الى قصر بابك .. »

فتنهد ضرغام تنهد الفرج وتحوّل بأسه الى الاهتمام ونظر الى ثيابه الممزقة وهو يهتم بالخروج للبحث عن جهان فاستوقفه حماد وقال « اخلع ثيابك والبس ثياب الخرمية حتى لا ينكرك الناس وكذلك يفعل وردان وفي صباح الغد نخرج معاً الى قصر النساء »

فقطع ضرغام كلامه قائلاً « اصبر الى الغد ؟ .. كيف اصبر .. وهب اني صبرت فهل تصبر المدينة وقد احدق بها المسلمون من كل ناحية ولا بد من اخذها الليلة . ومن العجب ان يخفى ذلك عليك »

قال « لا تستغرب ذلك لاني من جملة قواد بابك وقد انتدبني في هذه الليلة لحراسة هذا الباب لان بعض الجواسيس انبأهُ بعزمكم على الهجوم من هذه الناحية فاتيت في الغروب واقمت الكمناء حتى رأيتكم قريبين فامرتهم بالهجوم عليكم وكان ما كان .. تعال بدل ثيابك » والتفت الى وردان ليقول له ذلك ايضاً فوجده مطرقاً وقد اخذت الهواجس منهُ مأخذاً عظيماً فقال « ما بالك ياصاحبي العلك مصاب مثل مصابنا »

فتنهد وردان وقال « نعم ياسيدي .. وستعلم ذلك متى خرجنا الى قصر النساء . وانا ارى الخروج الآن كما يرى مولاي الصاحب ضرغام »

فاطاعهما وبعد ان لبسا زي الخرمية خرج بهما وقد اوصى رجاله بحفارة الباب حتى يعود — يوهمهم ان الاسيرين اللذين حملوها اليه دخلا في جملة الاسرى الذين قبضوا عليهم في تلك الليلة . فلما اطل حماد عن السور رأى البذ كثيرة الاضواء وسمع الضوضاء في وسطها فصاح في رجاله فلم يجد منهم احداً فنادى خادمه فاسرع اليه فقال « اين الرجال »

قال « الم تسمع يامولاي طبل الهجوم »

قال « كلا » وكأنهُ شغل عنهُ بما كان فيه من الدهشة

فقال الغلام « ضربت الطبول وصدر الامر ان يجتمع الرجال للدفاع عن الباب الشرقي لان المسلمين داهمونا ليلاً وهجم معظمهم عليهِ ويقال ان قائدهم الاكبر معهم هناك »

فقال « الافشين نفسه ؟ »

قال « لا ادري »

فالتفت وردان وضرغام معاً الى معسكر الافشين فرايا النار المثلثة موقدة وتحقق الهجوم

فقال ضرغام « هل ترى مانعاً من الذهاب الآن الى ذلك القصر » وقد شمه الاسراع في الذهاب لما سمع بذهاب الافشين الى هناك فدبت الغيرة في قلبه على جهان

الفصل السابع والخمسون

سقوط البذ

فقال حماد « لا مانع عندي » وركب كل منهم فرساً من افراس الخرمية واركضوها نحو قصر النساء فلقوا اهل البلد في هرج وخوف ولم يبق احد منهم الا وهو يدافع عن نفسه ولم يشك الخرمية الذين شاهدوا حماداً ورفاقه انهم منهم . ثم رأوا نفراً من المسلمين في وسط المدينة ينهبون واصبحوا كلما اقتربوا من الباب الشرقي رأوا المسلمين يتكاثرون فتحققوا ان البلد قد اخذ فلم يبالوا بشيء من ذلك في جانب ما كانوا فيه من اللهفة تعجلاً للوصول الى قصر النساء ولما وصلوا اليه رأوا جنود المسلمين يخرجون منه وقد اخذوا في نهب الامتعة والرياش ورأوا بعضهم يقود بعض النساء فاختلج قلب ضرغام لئلا تكون جهان اصيبت بسبي او اسر فدخل القصر مع وردان فقال لهما حماد « تمهلا فانا استطلع الخبر اليقين من مصدره » قال ذلك وتحول الى غرفة بقرب الباب رآها موصدة من الداخل فقرعها فلم يسمع جواباً فكلم الذين فيها بلسانهم ففتحت الباب امرأة كهلة اذنت بدخولهم واقفلته وهي ترتعد من الخوف فقال لها حماد « ما الذي جرى يا خالة ؟ »

قالت « ألم ترما جرى ؟ . فتحوا المدينة وكانهم فتحوها لاجل هذا القصر فدخلوه ونهبوه وسبوا نساءه وحملوا رياشه ولو لم اختبىء هنا او لو كان فيّ جمال او لي مال لاخذوني ولكنهم اكتفوا باخذ حليّ وانصرفوا »

فلما سمع ضرغام قولها « سبوا نساءه » ارتعدت فرائصه ولم يكن وردان اقل منه اضطراباً ولكنه كان اصبر منه على كتم شعائره وادرك حماد لهفتهما فقال للقهرمانة « اخذوا كل النساء »

قالت « نعم »

قال « وجلنار ايضاً ؟ »

قالت « لا . . جلنار لم يأخذوها »

قال « اين هي ؟ »

فنظرت الى رفيقيه وترددت في الجواب وهي تحك وراء اذنها كانها تكتم شيئاً تخاف ظهوره فقال لها « قولي لا تخافي »

قالت ان مولاتنا جلنار ورفيقة لها من نساء بابك رومية الاصل خرجتا منذ بضعة ايام في مهمة لخدمة بابك .. »

فقطع وردان كلامها وتصدى للاستفهام بجسارة فقال « وما هو اسم تلك الرومية يا خالة ؟ هل تعرفينها ؟ »

قالت « كيف لا اعرفها .. وانا قهرمانة هذا القصر اعرف تاريخ نسائه واحدة واحدة فجلنار مثلاً لا يعرف اهل البذ عنها شيئاً واما انا فاعرف اصلها وفصلها منذ حملت الينا من فرغانة واسمها يومئذ جهان بنت المرزبان ثم تسمت جلنار واحبت هذه الرومية وصادقتها وتوافق ذوقاهما حتى ذهبتا في هذه المهمة معاً » فتحقق الجمع ان جلنار هي جهان نفسها ولم يبق مكان للشك اما وردان فلم ينل الجواب المطلوب فقال « سألتك عن المرأة الرومية ما هو اسمها وهل غيرته ايضاً ؟ »

قالت « اسمها هيلانة ولم تغيره منذ حملوها من زوجها البطريق في ارمينيا »

فبانت البغتة في وجه وردان ولم يتمالك ان قال « هيلانة .. هي هي زوجتي . »

فانتبه ضرغام للحال ان خادمه وردان بطريق من بطارقة ارمينيا وان بابك اغتصبه امرأته ولم يستغربوا ذلك من بابك ولكنهم استغربوا تذكر وردان بحال الخدم فالتفت ضرغام اليه لفتة تهنئة وعتاب وقال « انت بطريق وتوهمني انك خادم ؟ والله اني رأيت فيك نفس الرجل العظيم منذ عرفتك .. »

فقال « لجأت اليك ودخلت خدمة المسلمين توصلاً الى هذه الساعة التي انتقم فيها من ذلك الفاسق الظالم فارجو ان يكون قد قبض عليه ونال جزاء فعلته »

فقال حماد « ان لم يكن فرَّ فانه واقع في الاسر لان المدينة فتحت وقضي الامر » ثم عاد حماد الى الاستفهام فقال للقهرمانة « لم تخبرينا ياخالة عن الجهة التي سارت اليها جلنار وهيلانة »

قالت « سارتا معاً الى بلاد الروم يستنجدونهم على المسلمين . استنبطت هذا الرأي جلنار انتصاراً لبابك ووافقتها هيلانة وصحبتها لان اصلها من اعيان تلك البلاد وتعرف لسانهم »

قال حماد « ومولانا بابك اين هو ؟ »

قالت « ليس مولانا في البذ الآن ولا هو اسير »

قال « فاين هو .. اخبرينا لاتخافي ان البلد قد اخذهُ المسلمون وهم ابقى لنا من سواهم . وانا اعلم انك اخبر الناس بما يعمله بابك »

قالت « بقي بابك في المعركة يناضل ويدافع حتى تحقق سقوط المدينة فاتاني واصطحب من شاء من نسائه مع احمال الطعام والشراب وخرج واظنه غادر المدينة واوغل في ارمينيا »

فنظر حماد الى ضرغام كانه يسأله عما يريده بعد ذلك فاشار اليه بالانصراف فخرجوا يلتمسون مكاناً يتداولون فيه بماذا يفعلون وقد لاح الصباح . فقادهم حماد الى مكان يعرفه وشاهدوا جند المسلمين في اثناء الطريق ينهبون المدينة ويهدمون بيوتها ويحرقون قصورها حتى لايبقى فيها ملجأ لعدو ولا صديق

ولما وصلوا الى المكان قال ضرغام « ماذا يرى البطريق وردان في ما نحن فيه ... تقول القهرمانة ان جهان وهيلانة سافرتا الى بلاد الروم . وهي بلاد واسعة ولو عرفنا البلد الذى تنزلانه لقصدناه » فضحك وردان لتسميته بالبطريق وقال لا حاجة بي الى هذا اللقب يكفيني اني صديق ضرغام . واما من حيث جهان وهيلانة فاذن لي ان اضرب في البلاد وابحث عنهما ولا اعود حتى اعرف مقرهما »

فقطع حماد كلامه وقال « كلا .. لا يذهب احد في هذه المهمة سواي اني اشعر بفضل ضرغام علي لانه انقذ خطيبتي من يد الاعداء واحتفظ بها في بيته مكرمة معززة فاذا لم اخدمه بما يعوض بعض ذلك الفضل كنت لئيماً . فاذنا لي في الذهاب وحدي ابحث وافتش ومتى وقفت على شيء بعثت اليكما »

فقال ضرغام « ليس من العدل ان تكون عالما بمكان ياقوتة وهي في لهفة للقياك وتذهب في مهمة أخرى .. »

قال « لا تجاداني .. لست راجعاً الى اهلي قبل ان افرغ من طلب اهلك واهل هذا الصديق الارمني . لقد سررت بمعرفته سروراً كثيراً . واما ياقوتة فانت راجع الى سامرا طمئنها عني وبشرها باللقاء »

فنطع وردان كلامه واخبره كيف ان الخليفة امر ضرغاماً ان يتزوجها فلم يفعل والخليفة يظنهُ تزوجها . فصاح حماد وقد ثارت الاريحية في راسه « ويستعظم مع ذلك ان اخدمه في البحث عن عروسه »

قال « كلاَّ ولكني اسير معك لاني اعرف البلاد ولغتها وطرقها » فقال « لا حاجة

بي الى احد منكما استودعكما الله من هذه الساعة » قال ذلك وخرج . فلما خلا ضرغام بوردان قال ضرغام « احسبني في منام ياوردان ان الفرق بين اليوم والامس كالفرق بين الرجاء واليأس . ولكن ... »

فقطع وردان كلامه بتنهيدة وقال « وانا احسبني انتقلت من الجحيم الى النعيم . لانى كنت شديد الكلف بامرأتي وبلغ من جسارة ذلك الوحش الكافر ان يطلب التزوج بها فلما ابيت بعث جندًا حملها اليه بالقوة ... لعنه الله من مجوسي فاسق . آه لو ظفرت بهِ لاشربنَّ دمهُ » قال ذلك وحرق اسنانه

فقال ضرغام « لعل الافشين ظفر بهِ ونحن لا نعلم . وارى ان نعود الى المعسكر »

الفصل الثامن والخمسون

القبض على بابك

وكان الافشين قد احسن تدبير ذلك الهجوم حتى فتح البذ وقتل الخرمية عن آخرهم واخذ اولاد بابك وعيالاته الا جهان وهيلانة لانهما كانتا غائبتين كما علمت . وبعد ان احرق المدينة وتحقق فرار بابك عاد الى معسكره في روذ الروذ وقد ساءهُ انه لم يظفر بجهان ولا علم مكانها فارتاب في اقوال سامان على انه حسب جهان فرت معه . وبلغ مقدار ما اخذوه من السبي شيئًا كثيرًا لا يعدُّ ولا يحصى وبين الاسرى كثيرون من ابناء الاحرار وفيهم العرب والفرس وابناء الدهاقين فامر بهم فجعلوا في حظيرة كبيرة وامرهم ان يكتبوا الى اوليائهم فكل من جاء يعرف امرأة او صبيًا او جارية واقام شاهدين أخذه[1] . فاخذ الناس منهم خلقًا كثيرًا وبقي كثير منهم

وكتب الافشين الى ملوك ارمينيا وبطارقتهم يقول لهم « ان بابك هرب وعدة معه وهو ماربكم » وامرهم بحفظ نواحيهم ومراقبة مسيره وندم على تفريطه بضرغام وهو يحسبه قتل لان بعض الفراغنة الذين كانوا معه اخبروه انه اخذ اسيرًا وربما مات لانهم شاهدوه محمولاً بين حي وميت لكنهم لم يجدوه بين القتلى

وعاد ضرغام في اليوم التالي مع وردان الى معسكر المسلمين فرحب بهِ الافشين وهنأه

(١) ابن الاثير ١٩٤ ج ٦

بالسلامة واطرى ما سمعهُ عن بسالته في ليلة الهجوم وبالغ في الاطراء حتى يبعد ما يخافه من سوء ظنه . واخذه بالمداولة في الشؤون الهامة واهمها يومئذ فرار بابك واخبره بما فعلهُ من السعي في القبض عليه فقال ضرغام « ان خادمي وردان ارمني الاصل والوطن وهو يعرف هذه البلاد معرفة جيدة استخدمه في هذا السبيل . واذا شئت اتيتك بهِ الساعة »

قال « افعل »

فنادى غلاماً امره ان يستقدم وردان وكان خارج القسطاط فلما دخل حيا ووقف بتأدب فقال له الافشين « اتعرف طرق ارمينيا ومسالكها ياوردان ؟ »

قال « نعم يا سيدي على قدر الامكان »

قال « اين تظن ذلك الخرمي يختبئ والى من يلتجئ »

قال لا اظنهُ يلتجيء الى بلد لان اهل ارمينيا يكرهونهُ و يتمنون قتلهُ ولكنني احسبه يختبيء في بعض الغابات او الاودية واشهرها الوادي الاكبر المسمى الغيضة وهي كثيرة العشب والشجر بين اذربيجان وارمينيا لا يمكن الخيل نزولها ولا يرى من يختفي فيها لكثرة شجرها »

فاستفاد الافشين من تلك المعلومات ثم صرف وردان وبعث جواسيسه للبحث في تلك الغيضة فعادوا اليه واكدوا اختباءهُ هناك . وكان الافشين قد بعث الى المعتصم استكتبهُ كتاب امان لبابك فلما جاء كتاب الامان دعا الافشين بعض الذين استأمنهم من اصحاب بابك واعلمهم بذلك وامرهم ان يسيروا اليهِ بالكتاب وفيهم ابنه فلم يجسر احد منهم خوفاً منه فقال انه يفرح بهذا الامان فقالوا نحن اعرف بهِ منك فقام رجلان فقالا اضمن لنا انك تجري على عيالاتنا فضمن لهما فسارا بالكتاب فلما رآياه اعلماه ما قدما له فقتل احدهما وامر الآخر ان يعود بالكتاب الى الافشين . وكان ابنه قد كتب اليه معهما كتاباً فقال لذلك الرجل « قل لابن الفاعلة ان كنت ابني لحقت بي ولكنك لست ابني ولئن تعيش يوماً واحداً وانت رئيس خير من ان تعيش اربعين سنة عبداً ذليلاً » وقعد في موضعه . فلم يزل في تلك الغيضة حتى فني زاده وخرج من بعض تلك الطرق وكان من عليهِ من الجند قد تنحوا قريباً منه وتركوا عليه اربعة نفر يحرسونه . فبيناهم ذات يوم نصف النهار اذ خرج بابك واصحابهُ فلم يروا العسكر ولا اولئك الذين يحرسون المكان فظن ان ليس هناك احد فخرج هو وعبد الله اخوه وامه وامرأة اخرى وساروا يريدون ارمينيا فرآهم الحراس فارسلوا الى اصحابهم اننا قد راينا فرساناً لا ندري من هم . وكان ابو الساج هو المقدم عليهم فركب الناس وساروا نحوهم فرأوا بابك واصحابه قد نزلوا على ماء يتغذون فلما

راى بابك العساكر ركب هو ومن معه فنجا هو واخذ بابك والمرأة الاخرى فارسلهما ابو الساج الى الافشين وسار بابك في جبال ارمينيا مستخفياً وكان بطارقة ارمينيا يراقبون مسيره فاحتال بعضهم حتى خدعه وادخله حصنه وارسل الى الافشين يعلمه بذلك فبعث الافشين يعدهُ ويمنيهِ وهو يأبى التسليم . ثم احتال صاحب الحصن عليه حتى اخرجه بحجة الصيد وانبأ الافشين بخروجه فتمكنوا من القبض عليه ومعه اخوه عبد الله وحملوه الى الافشين (١)

فلما قرب بابك من المعسكر صعد الافشين وجلس ينظر اليهِ وصفَّ عسكره صفين وامر بانزال بابك عن دابته فنزل ومشى بين الصفين فادخلهُ بيتاً في برزند ووكل بهِ من يحفظه وانعم على الذين سلموه وكتب الى المعتصم بذلك . فامره بالقدوم اليه بهِ وباخيه فانتقل بجنده وحاشيته من برزند الى سامرا (سنة ٢٢٣ هـ) ومعه بابك واخوه عبد الله وكان المعتصم يوجه الى الافشين في كل يوم من حين سار من برزند الى ان وافى سامرا خلعة وفرساً . فلما صار الافشين بقناطر حذيفة تلقاه هرون الواثق بن المعتصم واهل بيت المعتصم وانزل الافشين بابك عنده في قصره بالمطيرة فاتاهُ احمد بن ابي دواد متنكرًا فنظر الى بابك وكلمه ورجع الى المعتصم فوصفه له فاتاه المعتصم ايضاً متنكرًا فرآه . فلما كان الغد قعد المعتصم واصطف الناس من باب العامة الى المطيرة فشهره المعتصم وامر ان يركب على الفيل فركب عليه واستشرفه الناس الى باب العامة فقال محمد بن عبد الملك الزيات :

قد خضب الفيل كعاداته ... يحمل شيطان خراسان

والفيل لا تخضب اعضاؤه ... الا لذي شان من الشان

ثم ادخل بابك دار المعتصم فامر باحضار سياف بابك فحضر فامره المعتصم ان يقطع يديه ورجليه فقطعها فسقط فامره بذبحه ففعل وشق بطنه وانفذ رأسه الى خراسان وصلب بدنه بسامرا وامر بحمل اخيه عبد الله الى اسحق بن ابراهيم ببغداد وامرهُ ان يفعل بهِ ما فعل هو باخيه بابك فعمل بهِ ذلك وضرب عنقه وصلبه في الجانب الشرقي بين الجسرين (٢) وكان ذلك آخر العهد بتلك الدولة

اما ضرغام ووردان فكانا من جملة الذين رجعوا مع حملة الافشين وشاهدا مقتل بابك فاشتفيا بقتله ولكن ضرغاما ودَّ لو انهُ قتلهُ بيده في وسط المعركة . وحال وصولهم الى سامرا سار ضرغام الى منزله وقبل يدي والدته وسلم على ياقوتة وبشرها بوجود حماد فلم تعد

(١) ابن الاثير ١٩٣ ج ٦ (٢) ابن الاثير ١٩٥ ج ٦

تعرف كيف تشكره. واخبر والدته طرفاً من خبر جهان وانه عرف بوجودها وهي لا تعرف بوجوده وانها ذهبت الى بلاد الروم وان حماداً ابت شهامته الا ان يبحث عنها بنفسه » قال ذلك و باقوتة حاضرة ونظر اليها وابتسم وهو يقول « اظن هذا الخبر يسوءك ... ولكنه ابى الاَّ الذهاب »

فتوردت وجنتاها خجلاً واطرقت وقالت « مهما فعلنا لا نكافئك على فضلك فانك انقذتني من القتل والعار وكفلتني ودللت حماداً عليَّ ... »

فقطع كلامها قائلاً « لم افعل الا الواجب ... وقد جاء عملي مطابقاً لرأي امير المؤمنين وكل ما يريده امير المؤمنين لا فضل لنا في اتباعه لاننا صنائعه وعبيده »

ورأى ضرغام في وجه باقوتة تغيراً وفي عينيها ارتباكاً كأنها تذكرت امراً يمنعها الحياء من ذكره فقال « ماذا تريدين ؟ ما الذي خطر لك ؟ »

قالت « قد اذكرني تفانيك في نصرة امير المؤمنين امراً لاحظته في اثناء اقامتي ببيت الحارث السمرقندي اخافه على حياة امير المؤمنين. سمعت كلاماً يدل على مؤامرة يسعون فيها لقتله »

فاظهر ضرغام الاستخفاف بذلك الخبر وقال « ان امثال هذه المؤامرات كثيرة والذي يصح منها قليل فلا ينبغي لنا ان نحفل بها — وسبب هذه المؤامرات على الغالب جهل بعض اهل الخليفة الاقربين فيحسن لهم ارباب المطامع من الوزراء او القواد المطالبة بالخلافة ليستفيدوا من انتقالها — وهذا العباس بن المامون قد حسن لهُ بعضهم ان يطالب بالخلافة لنفسه ولا ينالها الا اذا قتل المعتصم فهم يتآمرون و يتواطأون على قتله ولكنهم لا يفلحون » قال ذلك وفي صوته لحن التهديد كانهُ يقول انهُ يبذل دمه في مقاومتهم

فلما سمعت والدته كلامه اشرق وجهها وابتسمت ولو كان في عينيها نور لدلتا على ما خالج فؤادها من السرور بما قاله ابنها على انها قالت « بورك فيك يا بني هكذا تكون الامانة »

وبعد الاستراحة لبس ضرغام سواده وذهب للسلام على المعتصم وعنده الافشين وغيره من كبار القواد فلما دخل عليه هشَّ لهُ وقال « مرحباً بالصاحب البطل الهمام. قد بلغنا ما كان من بلائك في الاعداء وما ابديته من البسالة والهمة بورك فيك .. الا تزال ترى لقب الصاحب كثيراً عليك » واشار اليه بالجلوس قريباً منهُ

فاطرق خجلاً و بالغ في التواضع وهو يقعد وقال « ان العبد اذا قام بخدمة مولاه لا يستحق على خدمته اجراً واذا علم ان مولاه راض عن عمله فهي اكبر مكافأة لهُ »

فالتفت الخليفة الى الافشين لفتة استفهام او استشهاد فقال الافشين « ان الصاحب

يا امير المؤمنين يندر مثاله في الشجاعة وصدق الخدمة » واخذ يطري اعماله يريد ان يمحو ما يخشى ان يكون خامره من سوء الظن . وعاد الخليفة نفسه الى الاطراء والثناء وامر له بالهدايا والخلع ولما انفض المجلس عاد ضرغام الى منزله وعادت اليه هواجسه في جهان . ولبث في انتظار ما يأتيه من عند حماد فكان يقضي اكثر اوقات الفراغ مع وردان يتحادثان فيما عسى ان يكون من امر جهان وهيلانة

الفصل التاسع والخمسون

كتاب حماد

وفي اثناء تلك السنة جاء الخبر الى المعتصم ان تيوفيل ملك الروم خرج الى بلاد الاسلام وشاع ذلك في سامرا وقدهم ضرغاماً كثيراً لان قلبه في بلاد الروم فبعث الى وردان ليباحثه ويستطلع رأيه فلما جاء سأله عما يراه فقال « لابد من علاقة بين هذا الخروج وفتح البذ وقد انبأني بعضهم ان بابك لما ضيق الافشين عليه واشرف على الهلاك كتب الى ملك الروم تيوفيل يخبره ان جنود المسلمين مشغولون به وهي فرصة يجب عليه ان ينتهزها لاكتساح مملكة الاسلام . ولم تظهر نتيجة تلك المكاتبة الا الان وربما كان لجهان تأثير في حمله على ذلك »

قال « تحدثني نفسي انهما هناك »

قال « لو كانتا هناك لجاءنا الخبر من حماد لانه طبعاً انما يبحث عنهما حيث يكون ملك الروم . ولا بد من الصبر »

قضى ضرغام في ذلك اياماً على مثل الجمر حتى جاءه وردان الى منزله ذات يوم مهرولا واومأ اليه ان يتبعه فتبعه حتى انفردا في بعض جوانب الحديقة فدفع اليه اسطوانة ملفوفة بمنديل من الحرير فحل المنديل وفتح الاسطوانة فرأى فيها كتاباً من الكاغد قرأ في صدره اسم حماد فخفق قلبه فاخذ يتلوه وهذا نصه :

« من حماد العربي في عمورية الى الصاحب ضرغام في سامرا

« قد اطلت عليك السكوت واظنك ملمت الانتظار ولكنني فعلت ذلك مكرهاً . قضيت اشهراً وانا ابحث عن الضائع ولا ادري كيف ابحث فبلغني ان تيوفيل ملك الروم قادم

على زبطرا فهممت ان الاقيه هناك لعلي اعثر بضائعنا فما كدت ابلغ البلد حتى قيل لي ان الروم اكتسحوه واخربوه وسبوا الذرية والنساء واغاروا على ملطية وغيرها من حصون المسلمين وسبوا المسلمات ومثلوا بمن صار في ايديهم من المسلمين وسملوا اعينهم وقطعوا انوفهم وآذانهم وقد شاهدت بعض اولئك المجدوعين ورأيت الناس قد خرجوا من بلادهم في الشام والجزيرة فراراً من وجه الروم الا من لم يكن له سلاح او دابة . فلما رأيت ذلك عدلت من زبطرا وتذكرت ان ناطس بطريق عمورية زار البذ في عهد بابك وقد عرفته جهان فخطر لي انها ذهبت اليه وقد صدق ظني لاني علمت بعد دخولي عمورية ان جهان وهيلانة اتتا عمورية من البذ رأساً لتوسيط ناطس المشار اليه لدى ملك الروم في نجدة بابك فانزلهما ناطس في قصره ووعدهما خيراً ثم جاء الخبر بسقوط البذ وقتل بابك فلم يبق لهما حاجة في ارمينيا كلها فبقيتا في عمورية . ويظهر ان بطريقها ناطس شديد الحرص عليهما ولا سيما جهان وقد ضيق عليهما فلا يسمح لهما بالخروج — وان كنت لا احسبه يستطيع ذلك مع جهان بعد ان شاهدت نفوذها على بابك اشد خلق الله وطأة وافظهم خلقاً . ولعلها رضيت بذلك الاسر من تلقاء نفسها يأساً من لقائك . وقد حاولت ملاقاتها حتى اطلعها على حالك وابشرها بقرب لقائك فلم يتيسر لي لان القوم هنا شديدو الحذر من المسلمين واذا ساؤا الظن باحد منهم قتلوه ومثلوا به كما فعلوا باهل زبطرة . وفي كل حال ان جهان وهيلانة الآن مسجونتان في قصر ناطس بطريق عمورية وسابذل جهدي في ابلاغ خبرك اليهما وان كنت لا اطمع بذلك . هذا ما وصلت اليه الآن وقد علمت ان الروم ينوون اكتساح مملكة الاسلام فالذي اراه ان يسبقهم المسلمون ويكتسحوا بلادهم وهذه عمورية من امنع حصونهم ولا اراها تمتنع على المسلمين لعلمي بمواضع الضعف في اسوارها — ولا اخالك بعد قراءة ما تقدم الا محرضا صاحبك على فتحها . فاذا فعلت فاجعل على رايتك علامة اعرفها عن بعد لاعرف مقرك اجعل رايتك قطعتين مستطيلتين اذا نزل معسكرك امام عمورية عرفت مكانك منه والسلام »

وما فرغ ضرغام من قراءة الكتاب حتى تصبب العرق من جبينه وهاجت اشجانه وثارت عواطفه ودفع الكتاب الى وردان فقرأه ثم قال « الا يرى مولاي المبادرة الى العمل .. هل تأذن بذهابي الى عمورية »

قال « لا فائدة من ذهابك فان المرأتين في حصار اضيق مما قرأته في هذا الكتاب وقد اراد صديقنا حماد تخفيف الخبر . ألم تقرأ قوله « ويظهر ان ناطس شديد الحرص عليهما

ولا سيما جهان » فانه يعني انهُ احب جهان واستبقاها لنفسه فلا تفيد الحيلة في انقاذها منه ولا بدَّ من القوة — وقد اشار حماد الى ذلك في اواخر كتابه تلميحاً »

فقال وردان « فاذا كان لابد من الحرب فلا يقدر على اثارتها سواك بما لك من المنزلة عند الخليفة ». فلم يصبر ضرغام على اتمام الحديث فترك وردان في مكانه ومضى الى المنزل لبس السواد والقلنسوة وخرج لمقابلة الخليفة فاستأذن فقال الحاجب « ان امير المؤمنين في خلوة مع القاضي احمد » فقال « استأذن لي ايضاً »

فلما اذن لهُ دخل وسلم فرأى القاضي احمد جالساً بجانب سرير المعتصم والاهتمام بادٍ في وجهيهما فلما دخل ضرغام رحب به الخليفة قائلاً « جاءنا الصاحب في ابان الحاجة اليهِ وقد كنت عازماً على استدعائك » واشار اليه بالجلوس

فجلس وهو يقول « ان قلبي دلني على امر يقتضي مجيئي لاني لا ابرح مفكرًا في مولاي اشاركه في ارادته فتتلاقى خواطرنا »

فقال القاضي « بلغني سرور امير المؤمنين لما ابديتهُ من البسالة في فتح البذ وقد سرني صدق توسمي فيك واصبحت موضع ثقة مولانا يعوّل على رأيك وسيفك »

فاطرق حماد تأدباً ولم يجب فاتم الخليفة الحديث قائلاً « جاء البريد من بلاد الروم ان تيوفيل اللعين نزل زبطرا وملطية واساء الى اهلهما وارتكب فيهما كل قبيح مما لم يتعود المسلمون مثلهُ » . فقال ضرغام « هل يطلب امير المؤمنين رأيي ؟ » . قال « نعم »

قال « لا رأي لي غير السيف .. السيف .. كما عودهم الرشيد من قبل .. احمل عليهم دوخهم اكتسح بلادهم .. ان الاسلام لا يصبر على مافعلهُ تيوفيل من سمل العيون وجدع الانوف وسبي النساء .. جرد يا امير المؤمنين جندك وهم عائدون من ظفر فيكونوا اصبر على القتال وانا عبدك اول متفانٍ في هذه الحرب ... واذا صبر امير المؤمنين على سمل عيون المسلمين لا اخاله يصبر على سبي النساء المسلمات .. » وكان ضرغام يتكلم وعيناه تقدحان شررًا وشفتاه ترتجفان واحسَّ انهُ بالغ في الجرأة بين يدي الخليفة ولكنهُ لم ينتبه الا بعد ان فرغ من كلامه . ورفع بصره الى المعتصم فرأى سحنتهُ تغيرت وقد اقطب حاجباه وابرقت عيناه وخالطهما احمرار من الغضب . ووقفَ شعر شاربيه ولحيته وقد ثبت بصره في ضرغام وهو يتكلم فهاجه حماسه واصبح كالاسد الكاسر . وهو كالاسد في بطشه وسلطانه . فخاف ضرغام ان يكون قد اغضب المعتصم بجسارته فاراد ان يستأنف الكلام للاعتذار فقطع القاضي احمد كلامه قائلاً « لقد نهبت حمية امير المؤمنين الى

مصلحة المسلمين وما هو غافل عنها ولكن يسره ان يرى ذلك في رجاله وابطاله »

فقال المعتصم « ان الصاحب تكلم بلساني وعبر عن جناني . وسآمر الافشين وغيره من القواد بالتأهب للحرب بعد ان استخير الله فيها . انها جهاد في سبيل الاسلام» قال ذلك واشار اشارة الصرف وهو يقول « موعدنا غداً ان شاء الله » فانصرف القاضي وضرغام

مشى ضرغام الى منزله وقد جاشت عواطفه فرأى وردان في انتظاره فقص عليه ماجرى فسرّه الامر ولكنه مازال خائفاً ان تأول تلك الاستخارة الى العدول . وفي الصباح التالي جاء غلام الخليفة باكراً في طلب الصاحب فخاف من هذا التبكير فمضى حتى دخل على الخليفة فرآه في بهو خاص لا يجلس فيه للناس وهو لا يزال في ثوب النوم وقد التف بمطرف . وآنس في وجهه انقباضاً فاوجس خيفة فدخل وحيّاً . فامره المعتصم بالجلوس فجلس وهو ينتظر فقال له الخليفة « اتدري لماذا دعيتك باكراً . . وادخلتك عليّ وانا في هذه الحال ؟ » « قال كلا يامولاي »

قال « اني ناهض من فراشي الآن بعد ان استيقظت منزعجاً مضطرباً »

قال « خيراً ان شاء الله »

قال « رقدت البارحة بعد الصلاة وتوسلت الى الله ان يلهمني ما يكون خيراً للمسلين من امر الروم فرأيت حلماً اطار صوابي واذهب رشدي »

فظلّ ضرغام مصغياً وهو يتطاول بعنقه فمسح المعتصم لحيته وشاربيه واصلح عمامته الصغيرة على رأسه وقال « قلت اني رايت والحقيقة اني لم ارَ شيئاً ولكني سمعت صوتاً اخترق اعماق قلبي . سمعت امراة هاشمية اسيرة في بلاد الروم تصيح «وامعتصماه» فاجبتها « لبيك» [1] واستيقظت وقد علمت ان الله يأمرني بالجهاد وان اكون انا ايضاً في جملة المجاهدين فكن انت على اهبة السفر وسآمر قوادي بالتاهب . . هل اثق بجندي ؟ »

فتذكر ضرغام ماكان يبديه من الارتياب في اخلاص الافشين فقال « لا سبيل الى تحقيق ذلك وقد علم امير المؤمنين انهم يشتغلون طمعاً بالمال وقد فتحوا البذ واذهبوا الحرمية وسيفعلون ذلك بالروم »

فقال المعتصم « يخيل لي انهم لولا ذهابك لم يفتحوه الا بعد اعوام . . »

فخجل من الاطراء وقال « اذا كان لامير المؤمنين ثقة بعبده فاكون في خدمته في هذه الحملة ولا يخشى غدراً باذن الله »

---

(١) ابن الاثير ١٩٦ ج ٦

ولا سيما جهان » فانه يعني انهُ احب جهان واستبقاها لنفسه فلا تفيد الحيلة في انقاذها منه ولا بدَّ من القوة — وقد اشار حماد الى ذلك في اواخر كتابه تلميحاً »

فقال وردان « فاذا كان لا بد من الحرب فلا يقدر على اثارتها سواك بما لك من المنزلة عند الخليفة ». فلم يصبر ضرغام على اتمام الحديث فترك وردان في مكانه ومضى الى المنزل لبس السواد والقلنسوة وخرج لمقابلة الخليفة فاستأذن فقال الحاجب « ان امير المؤمنين في خلوة مع القاضي احمد » فقال « استأذن لي ايضاً »

فلما اذن لهُ دخل وسلم فرأى القاضي احمد جالساً بجانب سرير المعتصم والاهتمام بادٍ في وجهيهما فلما دخل ضرغام رحب به الخليفة قائلاً « جاءنا الصاحب في ابان الحاجة اليهِ وقد كنت عازماً على استدعائك » واشار اليه بالجلوس

فجلس وهو يقول « ان قلبي دلني على امر يقتضي مجيئي لاني لا ابرح مفكرًا في مولاي اشاركه في ارادته فتتلاقى خواطرنا »

فقال القاضي « بلغني سرور امير المؤمنين لما ابديتهُ من البسالة في فتح البذ وقد سرني صدق توسمي فيك واصبحت موضع ثقة مولانا يعوّل على رأيك وسيفك »

فاطرق حماد تأدباً ولم يجب فاتم الخليفة الحديث قائلاً « جاء البريد من بلاد الروم ان تيوفيل اللعين نزل زبطرا وملطية واساء الى اهلهما وارتكب فيهما كل قبيح مما لم يتعود المسلمون مثلهُ » . فقال ضرغام « هل يطلب امير المؤمنين رأيي ؟ » . قال « نعم »

قال « لا رأي لي غير السيف .. السيف .. كما عودهم الرشيد من قبل .. احمل عليهم دوخهم اكتسح بلادهم .. ان الاسلام لا يصبر على مافعلهُ تيوفيل من سمل العيون وجدع الانوف وسبي النساء .. جرد يا امير المؤمنين جندك وهم عائدون من ظفر فيكونوا اصبر على القتال وانا عبدك اول متفانٍ في هذه الحرب ... واذا صبر امير المؤمنين على سمل عيون المسلمين لا اخاله يصبر على سبي النساء المسلمات .. » وكان ضرغام يتكلم وعيناه تقدحان شررًا وشفتاه ترتجفان واحسَّ انهُ بالغ في الجرأة بين يدي الخليفة ولكنهُ لم ينتبه الا بعد ان فرغ من كلامه . ورفع بصره الى المعتصم فرأى سحنتهُ تغيرت وقد اقطب حاجباه وابرقت عيناه وخالطهما احمرار من الغضب . وقفَّ شعر شاربيه ولحيته وقد ثبت بصره في ضرغام وهو يتكلم فهاجه حماسه واصبح كالاسد الكاسر . وهو كالاسد في بطشه وسلطانه . فخاف ضرغام ان يكون قد اغضب المعتصم بجسارته فاراد ان يستأنف الكلام للاعتذار فقطع القاضي احمد كلامه قائلاً « لقد نبهت حميـة امير المؤمنين الى

مصلحة المسلمين وما هو غافل عنها ولكن يسره ان يرى ذلك في رجاله وابطاله »

فقال المعتصم « ان الصاحب تكلم بلساني وعبر عن جناني . وسآمر الافشين وغيره من القواد بالتأهب للحرب بعد ان استخير الله فيها . انها جهاد في سبيل الاسلام» قال ذلك واشار اشارة الصرف وهو يقول « موعدنا غداً ان شاء الله » فانصرف القاضي وضرغام

مشى ضرغام الى منزله وقد جاشت عواطفه فرأى وردان في انتظاره فقص عليه ماجرى فسرّه الامر ولكنه مازال خائفاً ان تأول تلك الاستخارة الى العدول . وفي الصباح التالي جاء غلام الخليفة باكراً في طلب الصاحب فخاف من هذا التبكير فمضى حتى دخل على الخليفة فرآه في بهو خاص لا يجلس فيه للناس وهو لا يزال في ثوب النوم وقد التف بمطرف . وآنس في وجهه انقباضاً فاوجس خيفة فدخل وحيّاً . فامره المعتصم بالجلوس فجلس وهو ينتظر فقال له الخليفة « اتدري لماذا دعيتك باكراً . . وادخلتك عليّ وانا في هذه الحال ؟ » « قال كلا يامولاي »

قال « اني ناهض من فراشي الآن بعد ان استيقظت منزعجاً مضطرباً »

قال « خيراً ان شاء الله »

قال « رقدت البارحة بعد الصلاة وتوسلت الى الله ان يلهمني ما يكون خيراً للمسلمين من امر الروم فرأيت حلماً اطار صوابي واذهب رشدي »

فظلّ ضرغام مصغياً وهو يتطاول بعنقه فمسح المعتصم لحيته وشاربيه واصلح عمامته الصغيرة على رأسه وقال « قلت اني رايت والحقيقة اني لم ارَ شيئاً ولكني سمعت صوتاً اخترق اعماق قلبي . سمعت امراة هاشمية اسيرة في بلاد الروم تصيح «وامعتصماه» فاجبتها « لبيك» [1] واستيقظت وقد علمت ان الله يأمرني بالجهاد وان اكون انا ايضاً في جملة المجاهدين فكن انت على اهبة السفر وسآمر قوادي بالتاهب . . هل اثق بجندي ؟ »

فتذكر ضرغام ماكان يبديه من الارتياب في اخلاص الافشين فقال « لا سبيل الى تحقيق ذلك وقد علم امير المؤمنين انهم يشتغلون طمعاً بالمال وقد فتحوا البذ واذهبوا الحرمية وسيفعلون ذلك بالروم »

فقال المعتصم « يخيل لي انهم لولا ذهابك لم يفتحوه الا بعد اعوام . . »

فخجل من الاطراء وقال « اذا كان لامير المؤمنين ثقة بعبده فاكون في خدمته في هذه الحملة ولا يخشى غدراً باذن الله »

(١) ابن الاثير ١٩٦ ج ٦

قال « وما رايك في البلد الذي تقصده من بلاد الروم »

قال « ان الصوت الذي سمعته يا امير المؤمنين احسبهُ خارجاً من عمورية وهي من اكبر مدائن الروم وعين النصرانية وفي فتحها نفع للمسلمين .. »

الفصل الستون

الحملة على عمورية

قال « احسنت » وتحفز للنهوض فخرج ضرغام وبشر وردان واخذا في الاستعداد

اما المعتصم فامر ان يتأهب جنده للحرب وجلس في دار العامة واحضر قاضي بغداد ومعه ٣٢٨ رجلاً من اهل العدالة فاشهدهم على ما وقفهُ من الضياع فجعل ثلثاً لولده وثلثاً لله تعالى وثلثاً لمواليه . ثم تجهز الى عمورية جهازاً لم يتجهزه خليفة قبله قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الماء والروايا والقرب وغير ذلك وجرَّد جيشاً عظيماً قالوا انهُ ٩٠٠,٠٠٠ مقاتل عليه من القواد الافشين واشناس وغيرهما وخرج المعتصم نفسه على دابته وسمط خلفه شكالاً وسكة حديد وحقيبة فيها زاد تشبهاً بالمجاهدين في صدر الاسلام

وفرق جنوده الى جهات مختلفة من بلاد الروم واخيراً التقوا قرب انقرة وعزموا على المسير الى عمورية . فامر المعتصم بتعبية الجند فجعله ثلاثة عساكر او معسكرات احدها في الميسرة قائدهُ اشناس التركي والثاني في الوسط وفيه المعتصم نفسه والآخر في الميمنة وقائده الافشين وبين كل عسكر وعسكر فرسخان . وامر كل عسكر ان يكون لهُ ميمنة وميسرة وامرهم ان يحرقوا القرى ويخربوها ويأخذوا من لحقوا فيها ثم ترجع كل طائفة الى صاحبها يفعلون ذلك في ما بين انقره وعمورية وبينهما سبع مراحل . ففعلوا ذلك حتى وافوا عمورية وكان اول من وردها اشناس ثم المعتصم ثم الافشين . فداروا حولها وقسمها المعتصم بين القواد وجعل لكل واحد منهم ابراجاً منها على قدر اصحابه (١)

وكان ضرغام في معسكر المعتصم والمعتصم يقربه ويكرمه وفي جملة حاشيته ايضاً الحارث السمرقندي وقد اخذ الحسد منه مأخذاً عظيماً لما شاهده من منزلة ضرغام عند الخليفة وضرغام لا يكترث بذلك وانما همه ان يحظى بما تطلبهُ نفسه من انقاذ جهان وكذلك وردان

(١) ابن الاثير ١٩٨ ج ٦

واول شيء فعله بعد نزول المعسكر انهُ صعد مع وردان الى راية اطلا منها على غمورية فرأياها مدينة كثيرة الابنية واسعة الارجاء، حولها سور عال عليه الابراج الضخمة وله الابواب المتينة ورأيا بين الابنية قصرًا عليه الرايات علم ضرغام انه قصر البطريق فخفق قلبه لاعتقاده ان جهان في داخله فتنهد ونظر الى وردان فرآه مطرقًا فقال له « اليس هذا قصر البطريق ناطس » قال « بلى ، هذا هو بعينه »

قال « اذا صح قول حماد فان جهان وهيلانة محبوستان فيه وارى المدينة حصينة ، ولكنها لا تمتنع علينا باذن الله ، هل اعددت الراية المزدوجة التي اوصانا حماد بها ؟ »

قال « نعم اعددتها ولا ادري كيف ننشرها ونحن في معسكر المعتصم وتحت رايته »

قال « لا بد من نشرها في مكان منفرد لعل حماداً يكون في انتظار رؤيتها »

قال « غداً اقف بها على هذه الراية ساعة ثم نرى ما يكون » قال « افعل »

ورجعا الى المعسكر وباتا تلك الليلة واصبح المعتصم في اليوم التالي فعقد مجلساً من خاصته حضره القواد وفي جملتهم الصاحب والحارث السمرقندي واخذوا يتباحثون في ماذا يفعلون وكيف يحاربون ، ولما اذن المؤذن لصلاة الظهر تفرقوا ودخل الخليفة فسطاطه واشار الى الصاحب ان يأتيه في صباح الغد على انفراد فرجع الى فسطاطه فاذا وردان في انتظاره وقد اخذ الغضب منه مأخذًا عظيماً فسأله عن الراية فقال « انها مغروسة على الرابية »

فقال « مالي اراك متغيرًا وكيف تركتها »

قال « تركتها لامر اهم منها » قال « وما ذلك ؟ »

قال « ذلك اني رأيت سامان اللعين في معسكر الافشين وقد قربه الافشين ورفع منزلته فلم استطع الصبر على رؤيته وحدثتني نفسي ان اذهب بحياته »

قال « لا تفعل اننا في موقف نحتاج معه الى جمع الكلمة ، واخاف اذا ابديت غيظاً او رفعت يدك على سامان ان يغضب الافشين فيقع الانقسام في الجيش فاترك سامان الى وقت آخر ، وامضِ الى الرابية وراقب الاسوار وامكث هناك الى الليل »

قال « حسناً » ومضى لشأنه

ومكث ضرغام في فسطاطه حيناً وقد خلا بنفسه واخذ يفكر في حاله واستغرق في افكاره وهو ينتقل بخياله من جهان الى امه الى حماد الى الافشين واخذه النعاس فنام ولم يستيقظ الاّ وهو يسمع صوت وردان يناديه ففتح عينيه فاذا هو في المساء وقد اظلمت الدنيا فلما رأى وردان ظنهُ جاء ببشره بحماد فقال « هل اتى حماد ؟ » قال « كلاّ »

قال « وكيف تركت الراية هذه المرة ايضاً ؟ »

قال « تركتها لامرٍ لم استطع صبراً على كتمانه الى الغد وخفت ان تذهب في الصباح الى المعتصم قبل ان اراك ويهمني ان تطلع عليه قبل ذهابك »

قال « وما هو ؟ اذا كان مختصراً قلهُ والا فدعني ارافقك الى الراية اساهرك لاني نمت كثيراً وتقصه عليَّ هناك »

قل « ليس حديثي طويلاً لكنك اذا صحبتني لا يخلو اجتماعنا من فائدة »

فنهض ضرغام ولبس ثياباً لا تميزه عن سواه من الجند وخرج مع وردان وكانت الراية بين معسكري المعتصم واشناس فمرَّا بكثير من الفساطيط بين مضيء ومظلم ووردان يسير بهِ في وسط المعسكر فقال ضرغام « اراك تسير بي في غير الطريق المستقيم »

قال « اريد ان اريك شيئاً جديداً ... هل تعرف هذا الفسطاط الى يسارنا ؟ »

قال « اعرفه هو فسطاط العباس بن المأمون ما لنا وله »

قال « اكتشفت سرًّا لو اطلع عليهِ المعتصم لقلب المعسكر رأساً على عقب » قال « وما هو »

قل « لما عدت من عندك في هذا النهار مررت من هنا فرأيت الحارث السمرقندي خارجاً من هذا الفسطاط وقد خف العباس لوداعه وبالغ في اكرامه فقلت في نفسي لامر ما هذا الاكرام وانا اعلم ان السمرقندي واجدٌ على المعتصم بعد ان اخذ ياقوتة منهُ وزاد حسده لما رآه يقربك اليه ولا يخفى عليك مافي نفس العباس بن المأمون على المعتصم لانهُ اخذ الخلافة منهُ وبعض القواد يريدها له فجبن هو عن طلب البيعة فنالها المعتصم . وقد سمعت وانا في سامرا ان الحارث السمرقندي كان من جملة الساعين في خلع المعتصم ومبايعة العباس لكنهم تهيبوا الاقدام على هذا الامر خوفاً من الجند فلما رأيت الحارث خارجاً من فسطاط العباس اليوم حدثتني نفسي بامر ذي بال بينهما »

وكان وردان يقص حديثه بصوت منخفض وقد عرَّجا عن المعسكر نحو الراية ووصلا الى الخيمة المنصوبة هناك والليل مظلم فراى ضرغام رجلاً نائماً عند باب الخيمة وله شخير كخوار الثور وشم رائحة الخمر فقال « من هذا النائم هنا وكاني اشم رائحة الخمر »

قال « هذا ناقل السرّ اليَّ وهو من عبيد الحارث عرفته من سامرا فاحتلت في دعوته اليَّ وسقيته خمراً حتى سكر وقص عليَّ الحديث الآتي — اتدخل الخيمة ام اتم الحديث خارجها . اني والحق يقال لا ارى لحراسة الراية في هذه الظلمة فائدة لان الظلام يحول دون رؤيتها على عشرة اذرع فكيف من داخل عمورية »

قال « صدقت ولكني لا اعني ان يراها حماد من هناك ليلاً ولكن قد يراها ساعة الغروب ويحتال في الخروج بعد قليل فلا يراها او ربما وقع بصره عليها في صباح الغد باكرا فيأتي وانت لا تزال عندي ... اقصص علينا ما سمعته من العبد »

فمشى وردان الى صخرة على بضعة اذرع من الرابية وضرغام يتبعه واشار اليه بالجلوس هناك فجلس واخذ يقص عليه قال « اخبرني العبد ان سيده الحارث اتفق مع العباس ان يكون رسوله الى القواد في هذا المعسكر ومنهم جماعة تحت قيادة الافشين وآخرون من قواد اشناس وآخرون في جند المعتصم . فتعهد الحارث ان يكون سفيره الى اولئك القواد يأخذ البيعة عليهم . فاخذ يدور المعسكرات الثلاثة حتى استمال جماعة من القواد وبايعوه وفيهم جماعة من خواص المعتصم وقال لكل من بايعه اذا اظهرنا امرنا فليثب كل منكم بالقائد الذي هو معه ويقتله . فوكل من بايعه من خاصة المعتصم ان يثبوا في الوقت المعين على المعتصم ويقتلوه ومن بايعه من خاصة الافشين ان يثب على الافشين ويقتله ومن بايعه من خاصة اشناس ان يقتله وهكذا في سائر القواد العظام فضمنوا له ذلك [1] »

وكان ضرغام يسمع كلام وردان وهو مطرق يهز رأسه من الاستغراب فلما فرغ من كلامه قال ضرغام « قبحهم الله من خونة مارقين »

فقال وردان « اني ارى العباس اعقلهم جميعاً فقد فهمت من محدثي انه لم يوافقهم على تنفيذ المكيدة الآن خوفاً من ضياع هذا الفتح . فاحببت ان اطلعك على ما سمعته وانت ذاهب غداً الى الخليفة فتنقله اليه اذا شئت »

قال « كلا ياوردان .. لا ينبغي ان يعلم الخليفة بذلك والاَّ فاننا نجر على المسلمين ما نحاشاه من الانقسام ولكننا نكتمه الى حينه وخصوصاً بعد ان علمنا انهم اجلوا تنفيذه .. ويجب علينا مع ذلك ان نسهر على حياة امير المؤمنين »

فاعجب وردان بار يحية ضرغام وقال « بورك فيك يابطل .. هذا هو الرأي الصواب »

فقطع ضرغام كلامه قائلاً « ولكنك قد اخطأت باستبقاء هذا العبد عندك الى الصباح فاذا صحا عرف المكان وربما وشى بك والاحسن ان لا يعرفه فانقله الآن وهو بين السكر والنوم وانا امكث هنا حتى تعود »

قال « لقد اصبت » ونهض واخذ في ايقاظ العبد وهو لا يصحو فجعل يوقفه او يقوده او يجره حتى بعد به عن فسطاطه واقترب من فسطاط العباس فتركه على الارض ورجع وكان الليل قد تنصف ولم يبق في المعسكر احد الا نام

(١) ابن الاثير ٢٠٠ ج ٦

الفصل الحادي والستون

فتح عمورية

اما ضرغام فوقف في اثناء غياب وردان ونظر الى عمورية فرأى الاضواء على اسوارها وفي بعض قصورها ولا سيما قصر البطريق فلما وقع بصره على ذلك القصر اختلج قلبه بصدره وحدثته نفسه ان يتسلق السور وينقض على المدينة حتى يبلغ القصر وينادي جهان فاذا اجابته لا يبالي ولو قاومه اهل عمورية كافة — ذلك هو غرور اهل الحب فان احدهم يرى المستحيل ممكناً في سبيل هواه . اما ضرغام فما لبث ان رأى وردان راجعاً حتى رجع اليه رشدة فصبر نفسه وكتم هواجسه وقال لوردان « اني ذاهب الى فسطاطي وامكث انت هنا الى الصباح لنرى ما يكون » قال « سمعاً وطاعة »

وتحوّل ضرغام نحو فسطاطه وهو غارق في افكاره وقبل ان يصل اليه سمع لغطاً بينه وبين السور فالتفت فرأى جماعة من خفر المعسكر يقودون رجلاً قد امسكوا بخناقه وهو يقول لهم « خذوني الى الصاحب »

فلما سمع صوته اجفل لأنه صوت حماد فاسرع الى فسطاطه ولبث في انتظار وصولهم وبعد قليل دخل احدهم وقال « ان جاسوساً قبضنا عليه وهو داخل المعسكر من جهة المدينة فزعم انه قادم اليك » قال « ادخلوه »

فدخل فتبينه فاذا هو حماد بعينه فقال « دعوه » فتركوه ورجعوا فلما خلا به حياه ورحب به واجلسه الى جانبه وساله اولا عن جهان فقال « لا تزال عند البطريق كما اخبرتك »

قال « الم تستطع ايصال خبرنا اليها »

قال « كلا .. بل لم استطع الظهور قط ولما رأيت جندكم بالامس تفرست بالاعلام فلم أرَ الراية المزدوجة الا في هذا المساء ولكنني لم استطع الخروج الا الساعة بحيلة شيطانية وقد اظلم الليل فتهت عنها ولما قبض الخفر عليّ طلبت اليهم ان يحملوني اليك كما ترى »

قال « اهلاً وسهلاً . فجهان لا تزال في قصر ناطس »

قال « نعم وهيلانة معها وهما في خير لا بأس بهما ولكن الرجل شديد الحرص عليهما ولا تغضب فانك ظافر بما تريد عن قريب »

قال « وكيف ذلك .. اني ارى الاسوار منيعة وسيطول الحصار على ما اظن »

قال « ساجعله قصيراً باذن الله » قال « هل تعرف مدخلاً سهلاً ؟ »

فضحك وقال « نعم اعرف مدخلاً يسهل الفتح هل اقصه عليك الآن ؟ »

قال « اني ذاهب في صباح الغد لمقابلة الخليفة في خلوة وسأخبره بما عندك من اخبار العدو ونجعل ذلك ذريعة لرضائه عنك فيغتفر لك ما مضى » قال « حسناً . »

فقال ضرغام « اظنك في حاجة الى الرقاد . . هذا فراش نم عليه وانا انام هنا ونذهب في الصباح معاً . »

وفي صباح اليوم التالي ذهبا حتى اتيا فسطاط المعتصم فاستأذن ضرغام عليه فدخل واستبقى حماداً خارجاً فرحب به الخليفة وقربه ولحظ ضرغام في وجه المعتصم تغيراً فتهيب وسكت فقال المعتصم « اتدري لماذا دعوتك يا صاحب ؟ »

قال « ليس لي علم الغيب يا مولاي »

فتنهد المعتصم وقال « قد كنت وانا في سامرا استانس بالقاضي احمد واطلعه على سري اما الآن فاراني في حاجة الى مشاورتك بعد ان خبرت صدق نيتك »

قال « اني عبد مخلص لمولاي »

قال « اتذكر اني شكوت اليك ارتيابي بالافشين ؟ » قال « نعم يا سيدي »

قال « كنت استعظم ما لاحظته من طمعه بمالي ولكنني اصبحت الآن لا اعد طمعه شيئاً مذكوراً في جانب ما اراه في هذه المعسكر من فساد النيات . . هل عرفت شيئاً عن ذلك »

قال « لم افهم مراد مولاي » وقد فهمه لكنه تجاهل

قال « بلغني ان بعضهم طامع بحياتي يتآمرون على نقل البيعة الى العباس بن اخي » قال ذلك وعيناه تقدحان شرراً من الغيظ

فرأى ضرغام من الحكمة ان يتجاهل ويخفف عنه فقال « لا اعرف شيئاً من ذلك وان كنت لا استبعده لان الخلافة ما برحت من عهد الراشدين مطمح انظار الطامعين وهب ان بعضهم يحدث نفسه بذلك فكن على يقين انهم مخذلون وانما نحن في حاجة الى الاتحاد لنتمكن من اعدائنا المحدقين بنا فهل انبيء مولاي بما يذهب عنه الغضب »

فانبسطت اسرة المعتصم وقال « ما وراءك ؟ »

قال « اتيت امير المؤمنين برجل خرج الينا في مساء الامس من عمورية وهو يعرف مداخلها ومخارجها . . . هل ادخله على مولاي » قال « يدخل »

فنهض ضرغام واشار الى حماد فدخل ووقف متادباً والقى التحية فلما شاهده الخليفة عرفه فانقبض لرؤيته ولكنه اشار اليه بالجلوس فجلس جاثياً فنظر المعتصم الى ضرغام وقال

« كأني أرى حماداً العربي بين يديّ »

قال « نعم هو عبد امير المؤمنين وقد يكون له خطيئة عنده لكنها ستغفر باذن الله »

قال « ما الذي جاءنا به ؟ »

فقال حماد « قضي عليّ ان ادخل هذه المدينة منذ بضعة اسابيع فعرفت حصونها ومعاقلها ولما رأيت جند امير المؤمنين بالامس بذلت جهدي بالفرار حتى اتيت »

قال « ما الذي تخدم به الاسلام »

قال « ادل امير المؤمنين على عورات البلد فيهون عليه الفتح ... ان لهذه المدينة سوراً منيعاً كما ترى لكن قسماً منه وقع من سيل اتاه فكتب الملك الى عاملها ليعمره من عهد قريب فتوانى فلما خرج الملك من القسطنطينية خاف العامل ان يأتي عمورية ويرى السور خراباً فبنى وجهه حجرا وعمل الشرف على جسر من خشب واذا شاء مولاي دللته عليه من هنا »

فنهض الخليفة وقال « ارنيه »

فدله عليه من بعيد فلما رآه اثنى عليه وقال « اذا صدقت في ما تقول فلك الجزاء الحسن »

فقال ضرغام « انا اضمن صدقه يا سيدي فهل يامر امير المومنين بتعجيل الجزاء »

قال « نعجله اكراماً لك وما جزاؤه »

قال « انه لا يطلب مالاً وانما تاذن له بجاريتك ياقوتة يتزوجها »

فقال « ياقوتة زوجتك ؟ »

فوجم ضرغام ثم قال « نعم ياقوتة التي امر امير المؤمنين ان اتزوجها وانا استغفره عن جسارتي فاني لم اطعه لعلمي انها مخطوبة لصديقي هذا فحفظتها عندي امانة له فاذا شاء امير المؤمنين ان يغمرنا بنعمه عفا عنا واذن ان تكون ياقوتة زوجة لحماد بعد رجوعنا من هذه الحرب ظافرين باذن الله »

فاعجب الخليفة باريحية ضرغام وكرم اخلاقه وابتسم له وقال « قد عفونا عنكما واحب ان يكون حماد معك من خاصتي وساغدق عليه النعم »

فانحنى كلاهما وشكرا له — فقال هلم بنا الى العمل وامر ان ينقل فسطاطه امام السور المتخرب ونصب المجانيق عليه فتخرب فجعل الروم خشباً كبارا كل عود بجانب الآخر فكان المنجنيق يكسر الخشب فجعلوا عليه البرازخ فلما الحت المجانيق على ذلك الموضع تصدع السور والح المعتصم بالحصار . وكان حول السور خندق عميق لا يمكن تجاوزه ولولاه لاخذت المدينة حالا . فاشار ضرغام على الخليفة ان يطمه بجلود الغنم المملوءة تراباً ففعل وعمل دبابات كبيرة

تسع الواحدة عشرة رجال ليدحرجوها على الجلود الى السور فدحرجوا واحدة منها فلما صارت في نصف الخندق تعلقت بتلك الجلود فما تخلص من فيها الا بعد جهد وعمل سلالم ومنجنيقات

وكان ضرغام يلحّ على الخليفة ان يأذن للجند بالهجوم يريد سرعة الوصول الى جهان والخليفة ضنين به فلم يأذن لهُ ولكنهُ امر بالحرب فكان اول من هجم اشناس باصحابهِ وكان المحل ضيقاً فلم يمكنهم من الحرب فيه . فامدّهم المعتصم بالمنجنيقات التي حول السور فجمع بعضها الى بعض فوق الثلمة . وفي اليوم الثاني امر المعتصم ان يهجم الافشين واصحابه واجادوا الحرب . وفي اليوم الثالث هجم هو ورجالهُ وفيهم المغاربة والاتراك وهجم ضرغام وعمل اعمالاً تعجز عنها الابطال ووردان الى جانبه وكان قد علم بامر حماد . وجعل ضرغام وجهته قصر البطريق وظلت الواقعة الى الليل واحتدم سعيرها وكان البطارقة قد اقتسموا ابراج السور فاختصموا وجاء بعضهم في الصباح والقوا سلاحهم نكاية بالآخرين وساروا امامهم الى المدينة ففشل الروم ودخلها المسلمون دخول الفاتحين وامعنوا فيها نهباً وقتلاً وسبياً

اما ضرغام فلم يكن همهُ الاَّ قصر البطريق يطلب حبيبته ومعهُ وردان في مثل طلبه ومعهما حماد ولم يستطع الوصول الى القصر الا بعد التعب الجزيل لشدة ازدحام الاسواق بمن دخلها من المسلمين للنهب والسبي ولما وصلوا القصر وجدوا ابوابه مفتحة ولم يبق فيه شيءٌ من المال او النساء فطافوا غرفهُ يبحثون فيها فلم يقفوا لجهان ولا هيلانة على خبر فارتاب ضرغام بقول حماد وادرك هذا ارتيابه فاقسم لهُ على صدق قوله وقال « يظهر ان بعض الجند دخلوا القصر ونهبوه واخذوا اهلهُ »

فوقف ضرغام ووردان وقد اسقط في ايديهما فقال وردان « لنبحث عنهما بين السبايا بعد الفراغ من المعركة »

الفصل الثاني والستون

جهان

فانقضى ذلك اليوم ولم يفرغ المسلمون من الحرب . وفي صباح اليوم التالي امر الخليفة ان تجمع الغنائم فجمعت في ساحة وامر ببيعها . فاخذوا ينادون عليها بالمزايدة فلا ينادون على السبي الواحد اكثر من ثلاثة اصوات التماساً للسرعة فكانوا ينادون على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة لكثرته والمعتصم يطلب السرعة وامر بالمدينة فهدموها واحرقوها

اما وردان فانهُ طاف بين السبايا في اثناء البيع في عدة اماكن فلم يقف لامرأته ولا لجهان على خبر فانقبضت نفسه وعزم على الرجوع الى ضرغام ليتداولا في الامر . وهو راجع مرَّ بمعسكر الافشين فرأى فرس جهان الادهم في جملة الغنائم وتحقق ذلك لانه رأى سامان واقفاً الى جانبه فارتعدت فرائصه من الغضب — وكان لا يستطيع ان ينظر الى سامان الا اقشعر بدنه وحدثتهُ نفسه ان يفتك بهِ ولكنه امسك اكراماً لضرغام لعلمه انه لا يريد ذلك على انه لما شاهد فرس جهان كاد يطير من الفرح فاسرع الى ضرغام واخبره بما رأى فاتى ضرغام فرأى الفرس وحده لان سامان كان قد ذهب ونظر الى وجه الفرس فرأى صورة الاسد في جبهته فتأكد انهُ فرس جهان فغلب على اعتقاده ان جهان وهيلانة دخلتا في جملة السبي الذي اخذه الافشين وهمَّ ان يدخل على الافشين حالاً ليطلب منه جهان وهيلانة ثم تراجع خوفاً من ان يسمع ما يغضبه فيعمل عملاً يعود بفساد امر الجند وهو حريص على جمع كلمته فوقف حيناً وهو يتردد بين ان يدخل على الافشين او لا . واخيراً غلب على رأيه ان لا يفعل وان يوسط الخليفة ولا ريب عنده انهُ ينصفه

فرجع وذهب توًّا الى المعتصم فوجده في دار العامة وقد تقاطر القواد والخاصة لتهنئته بالنصر وهو فرح مستبشر فصبر نفسه حتى خلا المجلس فذهب في ذلك الانتظار معظم النهار فاستأذن بخلوة مع الخليفة فأذن لهُ ورحب بهِ واجلسه قريباً منهُ وهش لهُ ولاطفه فدعا ضرغام له وهنأه . ولحظ الخليفة انقباضاً في وجهه فقال « ارى الصاحب غضباً »

قال « لا يغضب العبد بين يدي مولاه ولكنني قلق »

قال « وما الذي اقلقك ياصاحبي ؟ » قال « اقلقني ان الافشين تعدى عليَّ »

قال « بماذا .. وعهدي بك انك حكيم لا تدع مجالاً لمثل ذلك »

قال « ليس الخلاف على منصب او مغنم ولكن كان لي خطيبة في عمورية وقعت سبية عند الافشين وهو يعلم انها لي فاخذها لنفسه »

فاستغرب المعتصم قوله وكيف يكون له خطيبة في عمورية فقال « زدني ايضاحاً »

فتنهد ضرغام وقال « يذكر مولاي زاده الله نصراً انه اكرمني ونحن في سامرَّا يياقوتة وامرني ان اتزوجها فخالفت امره لسبب ذكرته لهُ بالامس ونلت عفوه ولم يسألني امير المؤمنين عن سبب مخالفتي . والسبب اني كنت مقيد القلب بفتاة اخرى من فرغانة قد خطبتها وتعاهدنا على الزواج يوم سرت الى فرغانة بشأن الجواري . وتوفي والدها في اثناء ذلك واتاني امر الخليفة ابده الله ان ارجع سريعاً فرجعت الى سامرَّا واجلت الاقتران . وحدث

في اثناء غيابي حوادث كثيرة يطول بي شرحها آلت الى خطف هذه الفتاة حتى وصلت الى هذه المدينة وكانت سجينة في قصر ناطس صاحب عمورية . فلما فتحت المدينة طلبتها في القصر فلم اجدها وبعد البحث علمت انها عند الافشين وحدثتني نفسي ان ادخل عليه واطالبه بها لخفت ان يغضبني فنختصم وتتفرق كلمة الجند ونحن احوج الى الاتحاد . فرجعت الى مولاي بما يراه »

فاطرق المعتصم لحظة ثم قال « ذلك امر هين ولا اظن الافشين يري بأساً برد خطيبتك اليك والسبايا عنده كثيرات وقد بيعت الواحدة منهن بدراهم معدودة » وصفق فجاء احد الغلمان فامره ان يستقدم الافشين

وبعد قليل جاء الافشين فدخل وسلم فلما رأى ضرغام هناك علم سبب دعوته لكنه تجاهل وسكت فقال له الخليفة « دعوتك لامر يهم الصاحب وانت تعلم منزلته عندي »

فابتسم الافشين وقال « ان الصاحب عزيز عليّ وهو لا يجهل ذلك »

قال المعتصم « اخبرني ان بين السبايا اللواتي وقعن في حوزتك فتاة يطلبها منك »

قال « السبايا كثيرات وقد بعن باثمان بخسة وعندي منهن عشرات فاذا طلب خمساً اعطيته عشراً »

فادرك ضرغام تمويهه فقال « انما اعني سبية معينة انت تعرفها » قال « ايهن ؟ »

قال « اعني جهان بنت المرزبان » فاظهر الاستغراب وقال « وهل هي بين السبايا ؟ »

قال « اظنها بينهن ومعها امرأة رومية اسمها هيلانة »

فالتفت الى الخليفة وقال « اذا كانت جهان بين السبايا فاستعفي امير المؤمنين من اعطائها »

فقال المعتصم « ولكن الصاحب يقول انها خطيبته وهو صادق »

قال « نعم ولكن هذه الفتاة بمنزلة ابنتي وانا وصيّ عليها بوصاية بخط ابيها ولا اظن الصاحب ينكر ذلك .. »

فالتفت المعتصم الى ضرغام فرآه قد تغيرت سحنته وبان الغضب في وجهه ولما شعر ضرغام ان الخليفة يتفرس فيه التفت اليه فآنس في عينيه معنى ادركه . فامسك نفسه عن الغضب وقال « سمعت بالوصية التي كتبت له ولكن خطبتنا حدثت قبل كتابتها »

قال الافشين « لو صح ذلك لذكرها صاحب الوصية في وصيته وهو لم يفعل . فانا اعدّ الفتاة غير مخطوبة ولا يجوز ان تخطبها الا بامري حسب وصية والدها » قال ذلك والتفت الى المعتصم كانه يطلب مشاركته بهذا الحكم . فوقع الخليفة في حيرة لانه يحب ان ينال

ضرغام غرضه ولا يريد ان يحدث شقاق في الجيش فقال « هب ان والد الفتاة لم يكن عالماً بتلك الخطبة او لم يعترف بها وانت ولي الفتاة فنحن نخطبها منك »

فالتحم الافشين وظهر الانقباض في وجهه وتحير في الجواب بين ان يغضب الخليفة او تذهب جهان من يدهِ فاطرق لحظة وضرغام ينظر اليه وقد امسك تنفسه تشوقاً لسماع ما يقوله الافشين فاذا بهِ يجيب ببرود وسكينة « ان امر مولاي نافذ لامردَّ لهُ ولكن ذلك يكون بعد رجوعنا الى سامرَّا ان شاء الله »

فالتفت المعتصم الى ضرغام ولسان حاله يقول « هذا هو الرأي الصواب »

فعلم ضرغام ان الافشين يماطله وينوي غير ما يقول فلم يملك غضبه فقال « اذا كان الافشين رضي طلب امير المؤمنين فليعقد الخطبة هنا ونحن حيثما كنا فانا في ظله »

فابتسم الافشين واظهر التلطف والاذعان وقال « اذا امر امير المؤمنين فلا مانع لدي ولكن لا ادري اين السبايا الآن واظنهن حملن الى سامرَّا »

فاستبشر ضرغام بنيل المرام لاعتقاده ان جهان في ذلك المعسكر وقد رأى فرسها فقال « اذا لم تكن الفتاة هنا اجلنا الخطبة الى سامرَّا فليأمر امير المؤمنين باستقدامها »

فنادى الغلام وامره ان يذهب الى معسكر الافشين يطلب من وكيله ان يرسل اليه الفتاة السبية جهان . فاستمهله ضرغام وقال « او يقول له جلنار فانه الاسم المعروفة بهِ في هذه الديار »

خرج الغلام ومكث ضرغام كأنه على النار وقد هاجت اشجانه وخفق قلبهُ تطلعاً لرؤية حبيبتهِ بعد ذلك البعاد الطويل وتصوَّر كم تكون دهشتها لما يقع نظرها عليه بغير انتظار وهي تحسبه في عالم الاموات — تقضي في ذلك دقائق حسبها ساعات حتى عاد الرسول وهو يقول « ان السبايا ارسلن الى سامرَّا في هذا الصباح »

فوقع ذلك الجواب وقوع الصاعقة على رأس ضرغام ولم يسعهُ غير السكوت والصبر فاظهر الرضى وسكت وقد عزم في باطن سرّه انهُ حالما يخرج من فسطاط الخليفة يكلف وردان بتدقيق البحث عن جهان فاذا كانت لا تزال في المعسكر اخذها عنوة

فحالما اذن المعتصم بانصرافهما ذهب ضرغام توًّا الى فسطاطه لمشاهدة وردان فلم يجده فسأل بعض العبيد عنهُ فقالوا انهم لم يروه من الصباح ولا يعرفون مكانه . فخرج للبحث في فسطاطه فلم يجده ولا وجد حماداً وكان يتوقع ان يراهما معاً فتولاه القلق عليهما وهو في اشد الحاجة الى وردان . فخرج بنفسه لتفقد فرس جهان حيثما شاهده في الصباح فلم يجده

فترجح له ان الافشين صادق بقوله وهو يعلم انه لا يجرأ على الكذب الصريح بين يدي الخليفة فرجع الى فسطاطه وكظم مافي نفسه

الفصل الثالث والستون

الظفر

والواقع ان الافشين أمر باخراج السبايا من المعسكر من صباح ذلك اليوم — اشار عليه بذلك سامان وهو الذي دلّه على مقر جهان في قصر البطريق وحرضه على سبيها . وكان يتتبع خطاها منذ كانت في البذ وعرف بخروجها لمخابرة الروم ونزولها عمورية وكان يفعل ذلك التماساً لما وعده به الافشين من الوصية . فلما فتحت عمورية ذهب هو بنفسه الى اخته واظهر انه جاء لنجدتها وان الافشين جرد هذه الحملة في سبيل انقاذها واخذ يهوّن عليها القبول به وهي لا تجيبه فحملها رجال الافشين الى معسكره على فرسها قبل وصول ضرغام الى القصر ومعها هيلانة وكانت تعزية كبيرة لها وقد تحابتا وتآلفتا وكل منهما تحسب نفسها متروكة لا نصير لها . فلما صارتا في معسكر الافشين شق على جهان ذلك الامر وحدثتها نفسها ان تطلب مقابلة المعتصم وتستجير به من الافشين فاتاها اخوها وحبب اليها السكوت وقال لها انه سيأخذها الى سامرّا فتكون هناك كما تشاء . فلما سمعت ذكر سامرّا تذكرت ضرغاماً وفي نفسها بقية امل بوجوده او سماع حقيقة حاله من والدته اذا كانت لا تزال في قيد الحياة فوافقته واشترطت ان تكون هيلانة معها فقبل . وكان هم سامان ان يفرّ بجهان قبل ان يعلم ضرغام بوجودها فلما رأى وردان في الصباح يبحث عنها اسرع الى الافشين واشار عليه ان يأمر بارسالها حالاً فقال له الافشين « الى اين . . الى سامرّا ؟ »

فاصطنع ضحكة ليس فيها من ظواهر الضحك غير التكشير عن الثنايا وتكمش عضلات الوجه ونظر الى الافشين بنظر الاحول وقال « الى سامرّا ؟ وهل انا مجنون لافعل ذلك ؟ »

قال « بورك فيك . سر بها رأساً الى اشروسنة واحتفظ بها جيداً اوساً وافيكم الى هناك »

فاسرع سامان واعد الاحمال واخذ حامية تحفرهم في الطريق واقلع بهم خلسة . ولما جاء غلام الخليفة يطلب جهان كان قد مضى على خروجهم عدة ساعات وهم على ظهور الخيل

اما ضرغام فاصبح لا يدري مايفعل وقد ادهشه غياب وردان وحماد وخاف ان يكونا قد اصيبا بسوء وظن الافشين الحق بهما اذية

بقي الجند في عمورية عدة ايام قضوا خمسة منها في بيع الغنائم والاسرى رغم السرعة التي توخوها لكثرة الغنائم فربح تجار اليهود من ذلك ربحاً عظيماً . وقضوا اياماً اخرى في هدم المدينة واحراقها وقتلوا من اهلها جمعاً كبيراً وسلم ناطس سيفه

ولما فرغ المسلمون من الفتح امر المعتصم بالرجوع الى سامرا وضرغام لا يزداد في اثناء ذلك الا قلقاً ولكنه رجع مع الراجعين وهو يرجو ان يرى في سامرا شيئاً جديداً . واتفق له وهو راكب في اثناء الرجوع انه رأى في عرض الافق فرساناً لم يقع نظره على خيولهم حتى اختلج قلبه في صدره لانه رأى بينها فرساً عرف من مشيته انه فرس وردان فهمز جواده لملاقاة ذلك الركب ولما اقترب منهم عرف اثنين هما وردان وحماد فصاح « وردان »

قال « لبيك يامولاي » وفي غنة صوته دلالة السرور والظفر

فقال وهما قد حولا الاعنة ومشيا مع الحملة « اين كنتما لقد شغلت بالي عليكما ؟ »

قال وردان « كنا في سامرا » قال « ولماذا ؟ »

قال وهو يضحك « اوصلنا العروسين اليها ورجعنا » فبغت ضرغام وقال « اي عروسين »

قال « جهان وهيلانة .. »

قال « وكيف ذلك ؟ قل .. قل حالاً »

قال « رأيتك كثير المراعاة لخاطر الافشين لا تخاطبه الاعلى يد الخليفة ورأيته يخادعك ويبغي الفرار بهما الى حيث لا نعلم وما صدقنا اننا عرفنا مقرهما والعمر لا يكفي للتفتيش مرة ثانية عنهما . فخطر لي ان اعمد الى القوة ولو شاورتك لما رضيت واظنك كنت تقول لي الافضل ان نبعد عن اسباب الشقاق . وعلمت سراً ان الافشين يحاول الفرار بهما وقد أمر سامان بذلك فتواطأت انا وحماد ان نأخذهما بالقوة ونأخذه معهما وقد فعلنا واوصلنا العروسين الى بيت الصاحب في سامرا وزججنا سامان في السجن ريثما نرجع »

ففرح ضرغام ولكنه قال « ألم يكن الاولى ان نبقى على عهد الافشين فقد وعدني بين يدي الخليفة ان يعقد لي على جهان حالما نرجع الى سامرا »

قال « وهل صدقت انه كان ينوي ارسالها الى هناك ؟ . وهب انه كان صادقاً فانا لم استطع صبراً على هذه المماطلة وقد فعلت ذلك ولم اشاورك او اخبرك حتى لا اشركك في الذنب فاذا طالبني الافشين بذنبي اجيب عن نفسي »

فالتفت الى حماد وقال « وانت ايها الصديق ارجو ان تكون قد شاهدت ياقوتة ومررت بها .. ولكن لماذا رجعت »

قال « وكيف لا ارجع لمرافقتك واتمام خدمتي لك »

وكانت الحملة سائرة فرقاً وضرغام في فرقة المعتصم ليكون قريباً منه . ولما امسى المساء حطت الاحمال ونزل الناس للراحة والرقاد . وقص وردان على ضرغام في تلك الليلة مؤامرات جديدة ومكائد نصبها القوم على المعتصم من قبيل ماتقدم وانه اذا لم يعلن الخليفة حالاً تذهب حياته . واكبر ضرغام ان يكون هو المبلغ وخصوصاً لان الحارث صاحب التهمة الكبرى خصمه او منافسه فتباحث في ذلك مع حماد فقال حماد « انا انقل الخبر الى الخليفة انما اطلب اليك ان تدخلني عليه في خلوة »

قال « قم بنا الآن » وكان الوقت عشاء فلما وصلا الى فسطاط الخليفة استأذن ضرغام بخلوة فاذن له فدخل ومعهُ حماد فقال الخليفة « ما وراءك ياصاحب »

قال « عند صديقي حماد عبد امير المؤمنين مخبآت هامة اذا اذن لهُ تكلم »

قال « قل واحذر الانحراف عن الصواب »

فقص عليه تواطؤ القواد على قتله ومبايعة العباس وسمى المتواطئين وفي جملتهم الشاه بن اسماعيل الخراساني والحارث السمرقندي وعجيف بن عنبسة وغيرهم فاهتم المعتصم بالامر واستقدم المتهمين واستنطقهم فاعترفوا فقتلهم على اساليب مختلفة لا محل لذكرها . واحتفظ بالعباس حتى وصلوا سامرّا فسمله اللعين واخذ اولاد المأمون فحبسهم في داره حتى ماتوا [1] . وعد المعتصم هذه الخدمة جميلاً لضرغام وحماد معاً وانعم عليهما

اما الافشين فجاءه الخبر من بعض رجاله بما فعله وردان وحماد فصبر نفسه حتى يصل سامرّا فيشكيهما ويشكي ضرغاماً

ولما دنت الحملة من سامرّا اخذ قلب ضرغام بالخفقان لهول الملتقى بعد ذلك الغياب الطويل . اما جهان لما خطفها وردان وحماد عادت اليها آمالها . وكانت لما رأتهما هاجمين بمن معهما من الرجال لاختطافها استعاذت بالله من توالي الاحن عليها وارادت الدفاع ثم سمعت صوت وردان وسمعته ايضاً هيلانة زوجته فانحازتا اليه ولا تسل عن حال هيلانة لما سمعت صوت زوجها وهي تحسبه بين الاموات فترامت عليه فرحب بها واستهلها حتى يتم مهمته . فامر الذين معه بالقبض على سامان قبل ان ينفر فقبضوا عليه واوثقوه وثاقاً متيناً وتقدم وردان الى جهان بكل احترام فلما رأته قالت « وردان .. »

قال « نعم ياسيدتي ابشري بالسلامة واللقاء »

---

(١) ابن الاثير ٢٠١ ج٦

فلم تتمالك عن ان صاحت « اللقاء .. ضرغام .. ضرغام .. اين هو ؟ »

قال « هو في سلامة وخير وسيأتي بعد ايام وانا ذاهب بك الى منزله في سامرا تمكثين مع والدته ريثما يعود »

فظنت نفسها في حلم وتفرست ثانية في وردان وقالت « وردان ؟ .. ضرغام حي ؟ » وتذكرت ان سامان اول من انبأها بموته فالتفتت اليه وقد شد الى ظهر الفرس وهو ينظر اليها نظر الذليل لانه سمع ما دار بينها وبين وردان فلم تقل شيئاً ورأت صديقتها هيلانة معانقة بثوب وردان وتكاد تشرقة بعينيها فقالت لها « هل تعرفين وردان قبل الآن ؟ »

فصاحت هيلانة من الفرح قائلة « هو زوجي يا مولاتي ... »

قالت « زوجك البطريق الذي قصصتِ عليَّ خبره ؟ »

قالت « نعم هو هو ... الحمد لله على لقائه .. واهنئك علي ببلوغك الى حبيبك »

وكان حماد واقفاً وقوف الدهشة وقد اضاف الى هذه الصدفة بقاء ياقوتة حية حتى يرجع اليها فرادت دهشة

وسألت جهان عن محل ضرغام فاخبرها وردان انه في عمورية وانه ذاهب بها الى سامرا تبقى فيها حتى يعود قريباً فاطاعته ومشوا نحو سامرا وكل فرح بما عنده . وقضوا مسافة الطريق يقصون مامر بهم من الغرائب . وقص وردان على جهان ما حظي به ضرغام عند المعتصم وكيف سماه الصاحب واسباب ذلك واخبرها خبر حماد وخطيبته ياقوتة ومقدار ما بينهما من المشابهة العجيبة فاستغربت ذلك كله وصورة ضرغام غالبة على جوارحها جميعاً

ولما وصلوا الى سامرا بعث وردان بسامان الى صاحب السجن واخبره ان الصاحب يأمر بسجن هذا الجاسوس فاطاع . وبعث وردان الى آفتاب بقدوم جهان وكان لذلك اللقاء دهشة يندر مثالها وآفتاب لم تشبع من لمس جهان وضمها وتقبيلها . اما ياقوتة فكان فرحها بحماد عظيماً ولم يكن فجائياً عليها لانها كانت عالمة ببقائه حياً ولكنها دهشت لما لقيت جهان فتوهمت انها ترى نفسها بمرآة لشدة المشابهة بينهما . ولم تكن جهان اقل دهشة منها فبعد ان سلمت عليها اخذت تتفرس في وجهها وكلما زادت تفرساً زادت استغراباً فلما فرغ وردان من تلك المهمة عزم على الرجوع الى عمورية فرجع حماد معه كما تقدم

ومكث اهل الجوسق على مثل الجمر في انتظار ضرغام وكانت والدته شديدة اللهفة لمجيئه تشتهي شمه وضمه . ولكن شعورها يختلف عن شعور جهان حبيبته . ولا سيما بعد ان قاست ما قاسته قبل اجتماعها به . والعذاب في سبيل الحب الصادق كالنار للذهب لا تزيده الا صفاء ورونقاً

الفصل الرابع والستون

اللقاء

قضت جهان بضعة عشر يوماً في سامرا قبل وصول ضرغام وتمتعت باشياء اكثرها جديد عندها وكانت موضع اعجاب كل من عرفها ولكنها كانت تعد حياتها ناقصة اواذا شئت قل تافهة ولولا التعلل باللقاء لكانت جحيماً . فكانت تعلل نفسها بقرب مجيئه ولا تزال صورته في ذهنها كما شاهدته المرة الاخيرة لما ودعها في قصر ابيها وعليه ثياب السفر اذ وقفت لهُ بالباب حتى توارى

فلما جاءت البشائر برجوع المعتصم وجنده ظافراً زينت سامرة واصطفت المواكب والجنود ورفعت الاعلام وضربت الطبول وضجت المدينة فرحاً وخرج النساء والرجال للفرجة واشتغل الناس بهذا الاحتفال عن كل شيء الا جهان فانها لم تكن تسمع صوتاً ولا ترى شبحاً وانما كانت عيناها شاخصتين نحو باب الجوسق لعلها تشاهد ضرغام داخلاً في موكب الخليفة فلما دخل الخليفة لم ترَ احداً

وهي في تلك اللهفة سمعت سعالاً في الدار ارتعدت له فرائصها لانه سعال ضرغام فارادت ان تحول لملاقاته فلم تساعدها قدماها من الارتعاش واحمر وجهها ثم علاهُ الاصفرار ولكنها تشددت وتمالكت وتذكرت رباطة جأشها ومشت . وكان ضرغام قد دخل الغرفة فرأى جهان تمشي مشية الجلال والوقار وعيناها تتكلمان كانهما خطيب على منبر يدعو الناس الى التعبد أو يحرضهم على التفاني في الحب . فلم يتمالك عن الانحناء للسلام وهو يود ان يجعل سلامه معانقة لولا العادة التي تحول دون ذلك . ثم وقف ومد يده اليها فمدت يدها وابتسما ابتسامة اغنت عن حديث طويل ثم قال « مرحباً بعروس فرغانة ... لقد اطلت علينا الغياب وطال بنا طريقك وطريق المحبين تصير على مايقولون »

فضحكت وقالت « طال الطريق لوعورته وكثرة عقباته ... ولكن ماء السكر كلما زدتهُ غلياناً زادك حلاوة »

قال « لكن خشيت ان يجف ماؤه فيحترق »

قالت « اوشك ان يحترق لولم ارطبه بدموعي .. » قالت ذلك وابرقت عيناها وتلألأت فيهما دمعتان ونظرت اليه نظرة وقعت كالسهم في قلبه فقال لها وقد اخذ الهيام

منه مأخذاً عظيماً « ابمثل هذه الدموع كنت تتقين الاحتراق ؟ »

قالت « نعم ولكن شتان بين دموع الحزن ودموع الفرح واشكر الله على كل حال »

وكانت يدها لا تزال بيده فضغط عليها وقادها الى مقعد هناك وهو يتفرس في عينيها ويقول « اراك تشكرين الله وعهدي انك تشكرين اورمزد فمتى حدث هذا الابدال »

فقالت « وهي تمشي معهُ حتى جلسا متحاذيين وقد نسيا الوجود » حدث يوم تبدلت حالي وشغل فؤادي فاصبحت لا املك شعوري ولا ارى هذا الوجود الا كما يشاء ضرغام . . ولا آسف الا على مدة غلب فيها اليأس على قلبي — يوم بعثت اخي وغيراخي للبحث عن ضرغام في سامرا فعادوا واكدوا انهُ لا يوجد فيها وزاد بعضهم انهُ لا يوجد في الارض . . تبًّا لتلك الساعة كم أحدثت وكم غيرت . . ولكني نسيت كل ذلك الآن ولا اعلم الا اني اسعد خلق الله بل اراني اسعد اليوم مما كنت بقربك في فرغانة . . كنت يومئذ سعيدة عن جهل لاني لم اجرب الشقاء وكنت اتلذذ بقربك مندفعة بتيار الحب وانا لا اعرف قدر اللقاء واما اليوم فقد عرفت ان السعادة يزيد مقدارها كما زاد الشقاء في سبيل الحصول عليها . لو عرفت ذلك يوم اجتماعنا في فرغانة لفضلت ان اجاهد في سبيل حبك قبل الحصول على قربك » قالت ذلك وقد غلب عليها الهيام ونسيت رباطة جأشها وكبر نفسها وهو ينظر اليها وقد شغل بمعاني وجهها وسحر عينيها عن تفهم كلامها ففرغت من حديثها وهو لا يزال يرنو اليها كأنها لا تزال تخاطبه

ثم انتبه لنفسه وخجل من غفلته عن الموضوع ونسي ما كانا فيهِ فقال « كم احب ان اسمع ما قاسيته في اثناء هذه الغيبة وقد سمعت بعضه ولكني التذ ان اسمعه من فيك . ولا ريب عندي انك تحبين الاطلاع على خبري والحديثان طويلان سنتبادلهما في فرصة اخرى . ولو بقيت بجانبك الدهر كله لا ارتوي من النظر اليك ياجنتي وحياتي . صدقت ان الحب تزداد لذته كما زاد التعب في سبيله ولم اكن احسب حبنا يقبل الزيادة وحاشا ان يقبلها ولكنه يزداد بالتعب حلاوة وصفاء »

فوقفت وهي تقول « صدقت ان تلذذنا باللقاء لا نهاية لهُ فينبغي ان ننظر الى الآخرين . . هل رأيت والدتك ؟ » قال « لم ارها بعد وساراها »

قال « هنيئاً لك على هذه الوالدة الحنونة فيجب ان تقبل يديها صبح مساء وهي الآن تشتاق الى لمسك وشمك » فوقف ضرغام واطاع جهان وخرجا الى الدار وفيها والدته فشعرت بخروجهما فنهضت وبسطت يديها لمعانقة ابنها فترامى عليها وقبل يدها واعلى صدرها فضمته

وقبلته وشمت عنقه ثم قالت « اهنئك بعروسك بل اهنيء نفسي بهذا اللقاء »

وتقدمت جهان فقبلت يد آفتاب واثنت على لطفها والتفتت الى ياقوتة وكانت قد وقفت لاستقبالها وخاطبت ضرغاماً قائلة « الم تكن تستأنس بروية ياقوتة في اثناء غيابي »

قال « ربما استأنست حيناً وغصصت بريقي احياناً ولكن هذه المشابهة هي التي دلتني عليك وساقص الخبر في وقت آخر »

قضوا في امثال هذه الاحاديث ساعات وقد اعدت الاطعمة فتناولوا ما شاؤا ثم قالت آفتاب « قد آن ياضرغام ان تكتب الكتاب »

فقال « صدقت يا اماه وغدا افعل ان شاء الله »

الفصل الخامس والستون

محاكمة الافشين

وهم في ذلك جاء احد غلمان القصر يدعو ضرغاماً لمقابلة الخليفة فلبس قلنسوته وسواده وخرج حتى اذا دنا من دار العامة رأى بالباب جماعة من الغلمان الاشروسنية فعلم ان الافشين هناك فدخل فرأى الخليفة جالساً على سريره في صدر الايوان والافشين على كرسي بين يديه ورأى بجانب القاعة وردان وحماداً واقفين فسلم فاشار اليه المعتصم ان يجلس فتباطأ وقال « يأذن لي امير المؤمنين بكلمة قبل ان اجلس » قال « قل »

قال وهو يشير الى وردان « اقدم لامير المؤمنين البطريق وردان احد كبار بطارقة ارمينيا وقد ابلى في خدمة جيشنا بلاء حسناً في البذ وعمورية »

فاستغرب المعتصم والافشين هذا التعريف وقال الخليفة « اليس هو خادمك وردان »

قال « كنت اظنه خادمي وانا لا اعرف اصله فلما بلوته علمت انه رجل شريف وقد كانت له معي اياد بيضاء عادت بالنفع على جند المسلمين فاذا امر امير المؤمنين بجلوسه فعل وهو صاحب الامر »

فقال « ولكنه واقف في موقف القضاء وقد دعوناه لتحضر المحاكمة وتؤدي الشهادة »

قال « افعل ذلك طوعاً لامير المؤمنين » وجلس واصغى

فقال المعتصم « يقول قائد جندنا الافشين ان وردان وحماداً تعديا على رجاله واختطفا منهم امرأتين من سبيه بعد ان اجلنا النظر في ذلك لحين رجوعنا الى سامرا »

قال ضرغام « نعم قد فعلا ذلك واذا حكم امير المؤمنين انه ذنب فانا صاحب الذنب لانهما فعلاه لاجلي وان لم يكن بامري وانا اتحمل تبعة عملهما . وفي كل حال فان حماداً هذا (واشار اليه) قد عرف امير المؤمنين خدمة وانعم عليه بالعفو وجاء سامرًا لينال ما وعده به مولانا من النعم فلا يوخذ بجرم سواه »

فحك المعتصم جبينه كانه يسترجع الى ذهنه شيئاً نسيه وقال « صدقت ان حماداً ذو فضل وسابقة وسنوليه ما هو اهل له فيخرج الآن اذا شاء »

فانحنى حماد وسلم وخرج وبقي وردان وضرغام والافشين فقال الخليفة « فالآن قد قلت عن وردان ما هو اهله ولكن ذلك لا ينفي انهُ خالف امرًا اصدرناه بشأن السبيتين فقد قلنا ونحن في عمورية ان يترك امرهما لحين رجوعنا الى سامرًا فكان ينبغي ان يراعي هذا الامر ... فليأتِ بالسبيتين الآن الى هنا .. »

فقال ضرغام « ان السبيتين هما خطيبتي وزوجته (واشار الى وردان) . اما خطيبتي فقد سبق امر الخليفة ان تكون زوجة لي وهي في منزلي واما امرأة البطريق فهي عنده ايضاً ولا اظن الافشين يهمه امرها »

فقال الافشين وقد بدا الغضب في عينيه « يهمني اولاً ان يراعى امر امير المؤمنين في الاثنتين . واما جهان التي تقول انها خطيبتك فلها شأن خاص لاني ولي امرها بوصية ابيها »

فعند ذلك تقدم وردان ووجه خطابه الى الخليفة واستأذن بالكلام وقال « هل ثبت لامير المؤمنين انهُ وصيٌّ »

فانتبه المعتصم لهذا الاعتراض والتفت الى الافشين وقال « اين هو كتاب الوصية »

فقال الافشين « هو عندي .. وهل انا كاذب ؟ »

فقال المعتصم « لكن الشرع يقضي بالاطلاع على نصه قبل اصدار الحكم .. وهل يهمك كتمانهُ ؟ »

فظهرت الحيرة في وجه الافشين فعمد الى المغالطة واظهر الغضب وقال « اذا كان الافشين الملك والقائد يكذب في مثل هذا الامر ويصدق هذا العلج فعلى الدنيا السلام »

فقال وردان « اني لا انكر وصايته ولكنني ارى ان يطلع امير المؤمنين على نصها ليعرف من هو الافشين صاحب اشروسنة »

فاستشاط الافشين غضباً وكأنهُ نسي موقفه فصاح « ان الافشين قائد جند المسلمين لا يخاطب بمثل هذا الكلام في حضرة امير المؤمنين .. وهب ان الوصية ضاعت مني او

سرقت او احترقت فهل يؤخذ ضياعها حجة عليّ فاعدٌ كاذباً . والرجل يقول انهُ لا ينكر الوصاية فما الفائدة من نصها »

فقال وردان « لا تغضب ايها القائد اننا في موقف القضاء بحضرة امير المؤمنين والقضاء يطلب اليك ان تتلو الوصاية بنصها »

فازداد الافشين غيظاً وقال « قد ضاعت الوصية ولا اذكر نصّها »

قال وردان « انا اذكره .. هل اتلو بعضها على مسامع امير المؤمنين »

قال المعتصم « اتلُ ما شئت »

فقال « يكفي امير المؤمنين ان الوصية مصدرة باسم اورمزد معبود المجوس بدل الله تعالى وقد شهد فيها الموبذ كاهن المجوس بدل القاضي الشرعي .. اليس كذلك يا قائد جند المسلمين »

فهاج غضب الافشين وادرك ان الرجل ينوي اذلاله وفضح امره وندم على ما فرط من تعنته ولكنهُ تجلد وقال « واين هو وجه الطعن فيها ان المومي مجوسي فكتبها على ما يقتضيه دينه وعادات بلاده .. كأنك تريد بذلك اتهامي بالمجوسية .. انها لوقاحة كبرى »

فوجه وردان كلامه الى المعتصم وقال « هل يأذن امير المؤمنين ان اقول ما اعرفه »

قال « انك في موقف الدفاع عن نفسك قل ما بدالك »

فقال للافشين « لا اتهمك بالمجوسية تهمه ولكنني اقول انك مجوسي تسجد لاورمزد وتخضع للموبذ حتى الآن . واقول فوق ذلك انك تتظاهر بالدفاع عن الاسلام وانت انما تفعل ذلك طمعاً بالمال ... ولو استطعت سحق دولة المسلمين لسحقتها وهذا بيت نار كاران شاه في فرغانة شاهد على ذلك » . فلما قال وردان ذلك رأى الخليفة التهمة اوسع من ان يقضى بها في تلك الجلسة فاحب تأجيلها فقال « ان هذه التهمة خارجة عن موضوع هذا المجلس وانما نبحث الآن في اختطاف السبيتين »

فقال ضرغام « قلت لامير المؤمنين ان الذنب في ذلك لي انا لان احداهما خطيبتي وهي في منزلي الان وقد اذن الافشين بزواجها على فرض صحة وصايته »

فقطع الخليفة كلامهُ وقال « نحن لا نعترض على زواجك بها وانما نطالب وردان باختطافها »

فقال وردان « انما اختطفتها لعلمي ان مولانا الافشين امر بارسالها الى بلده اشروسنة لتضاف الى خزائن الاموال التي يرسلها الى هناك كل سنة من اموال المسلمين ليستعين بها على اسقاط دولتهم عند الحاجة .. »

فنظر المعتصم الى الافشين فرأى لحيته ترقص في صدره ولوجس يده لراها باردة كالثلج فضلاً عن ارتعاشها فقال له « ان هذه التهم كبيرة ولا اراك دفعتها عنك »

فقال الافشين « كلها مفتريات كاذبة وعند التحقيق يظهر كل شيء وغداً موعدنا »

فقال وردان « لا باس من التاجيل الى الغد او بعده ولكن من يضمن ان صاحب هذه التهم يبقى في سامرا الى الغد »

فقال المعتصم « يبقى محبوساً في الجوسق » واشار الى صاحب حرسه ان ياخذ سلاحه وسواده ويحبسه ويتولى حراسته . فنهض الافشين وقد اسقط في يده ولكنه ما زال يكابر ويغالط ويمشي مرحاً وهو يتوعد ويتهدد

وبعد خروج الافشين اشار المعتصم بانصراف وردان واستبقى الصاحب فلما خلا به تنهد وقال « تبا لهؤلاء المجوس انهم شاركونا في ملكنا وخدعونا في امرنا .. ولكن الله اعاننا على الانتفاع بسيوفهم ورد كيدهم في نحورهم .. ماذا رايت ياصاحب ؟ »

قال « ان امير المؤمنين عرف سوء نية هؤلاء قبل سائر الناس . ولا انسى شكواه منهم مراراً . »

قال « ان ما اشار به صاحبك وردان لم يخف علينا فان كتب عاملنا في خراسان كانت تاتينا وفيها الشكوى من كثرة الاموال التي يرسلها الافشين الى بلده ونحن صابرون . وقد رفعت الينا الكتب من كثيرين يتهمونه بالمجوسية وعبادة الاصنام وبالمواطأة مع المازيار صاحب طبرستان وبابك على حربنا . وقد علم بذلك القاضي احمد ووزيرنا محمد بن عبد الملك الزيات وغيرهما وبعثنا نستقدم المازيار صاحب طبرستان الذي تواطا معه على الغدر بنا والمرزبان احد ملوك السغد وموبذاً مجوسياً واثنين من المسلمين كان الافشين قد عذبهما لانهما بنيا مسجداً في اشروسنة . وساعقد مجلساً يحضره هؤلاء تفضح به ما استتر ونجزي كل فاعل وما فعل . اما انت فلك عروسك تتهنأ بها ولا باس على وردان فانه حرٌّ وسنجعله في خاصتنا وعلى الباغي تدور الدوائر » فدعا له وخرج

وفي يوم تالٍ عقد المعتصم مجلساً مؤلفاً من القاضي احمد بن ابي دواد والوزير محمد بن عبد الملك الزيات وغيرهما من الاعيان ودعا الصاحب ووردان فحضرا ثم امر بالافشين فاخرج من محبسه وجيء به الى المجلس وتولى ابن الزيات مناظرته بعد ان احضر الشهود المشار اليهم . فطلب اولا الرجلين المضروبين وكشف عن ظهريهما وهي عارية من اللحم وقال للافشين « اتعرف هذين ؟ »

قال « نعم هذا مؤذن وهذا امام بنيا مسجداً باشروسنة فضربت كل واحد منهما الف سوط لان بيني و بين ملك السغد عهداً ان اترك كل قوم على دينهم فوثب هذان على بيت نار في اشروسنة كان فيه اصنام فاخرجاها وجعلاه مسجداً فضربتهما على هذا »

قال ابن الزيات « ما كتاب عندك حليته بالذهب والجوهر فيه الكفر بالله تعالى »

قال « هو كتاب ورثته عن ابي فيه من آداب العجم وكفرهم فكنت اخذ الاداب واترك الكفر . ووجدته محلى فلم احتج الى الحلية منه وما ظننت هذا يخرج من الاسلام »

ثم تقدم الموبذ وقال وهو يشير الى الافشين « ان هذا يا كل لحم المخنوقة و يحملني على اكلها و يزعم انها ارطب من المذبوحة وقال لي يوماً قد دخلت لهؤلاء القوم (المسلمين) في كل شيء اكرهه حتى اكلت الزيت وركبت الجمل ولبست النعل غير اني الى هذه الغاية لم اختتن » فاعترض الافشين على كلام الموبذ بانه غير ثقة . فرد ابن الزيات عليه وحجه . ثم تقدم المرزبان وقال مخاطباً الافشين « كيف يكتب اهل بلدك اليك ؟ »

قال « لا اقول »

قال « ألا يكتبون بكذا وكذا في الاشروسية وتفسيره بالعربية الى اله الالهة من عبده فلان بن فلان ؟ » قال « بلى »

فقال ابن الزيات « ان المسلمين لا يحتملون هذا فما ابقيت لفرعون ؟ »

قال « هذه كانت عادتهم لابي وجدي ولي ايضاً قبل ان ادخل في الاسلام فكرهت ان اضع نفسي دونهم فتفسد طاعتهم »

ثم تقدم الماز يار فقال ابن الزيات للافشين « هل كاتبت هذا » قال « لا »

قال الماز يار « نعم كتب اخوه الى اخي انه لم ينصر هذا الدين الابيض غيري وغيرك وغير بابك فاما بابك فانه لحمقه قتل نفسه ولقد جهدت ان اصرف عنه الموت فابى لحمقه الا ان اوقعه فان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ومعي الفرسان واهل النجدة فان وجهت اليك لم يبق احد يحاربنا الا ثلاثة العرب والمغاربة والاتراك والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه والمغاربة اكلة رأس والاتراك فما هي الا ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيل عليهم فتاتي على اخرهم ويعود الدين الى ما لم يزل عليه ايام العجم »

فقال الافشين « هذا يدعي ان اخاه كتب الى اخي وما هو ذنبي » (١)

فتقدم وردان عند ذلك وقال « تزعم ان اخاك كتب ولا تبعة عليك فما قولك بمن

(١) ابن الاثير ٢١١ ج ٦

رآك رأي العين في بيت النار بفرغانة ومعك المازيار هذا ونائب عن بابك وقد تواطأتم على محق دولة المسلمين وتعهدت ان تجمع المال الكافي لذلك العمل »

فاعرض الافشين بوجهه عنه وقال « هذا خصم يكذب في سبيل مصلحته »

قال « وان اتيتك بالموبذ نفسه الذي شهد على كتاب الوصية وسمعته يقول مثل قولي؟ »

فقال المعتصم « سنرسل في طلبه »

فقال وردان « واذا بعث امير المؤمنين الآن من يدخل بيت الافشين في سامرا وجد فيه التماثيل المجوسية »

فقال ابن الزيات « قد اتينا بها بالامس » وامر غلاماً احضرها واذا هي تمثال من خشب عليه حلية كثيرة الجوهر وفي اذنه حجران مشتبكان عليهما ذهب واصنام اخرى وكتاب من كتب المجوس وغيره . فارتج على الافشين وسكت فامر المعتصم بارجاعه الى الحبس وان يقطع عنه الطعام والشراب فقطعوها حتى مات سنة ٢٢٦ هـ [1]

وخلا ضرغام بالمعتصم بعد ايام وقص عليه حقيقة وصاية الافشين على جهان فامر بالغائها ورد المال الى صاحبته . وبعث الى فرغانة فامر بهدم بيت النار كاران شاه [2] وامر ان يكون حماد ووردان من خاصته باعطية تصرف لهما وان يقيما في قصرين داخل الجوسق مثل ضرغام . وامر بعقد كتاب ضرغام على جهان وانعم عليه نعماً شتى

ولما تم ذلك نقل ضرغام الانعام الى اصحابه وابلغ جهان ما اصاب الافشين وان الخليفة امر ان تعود تركة ابيها اليها بلا وصاية ففرحت ولكن ساءها ما اصاب الافشين ليس غيرة عليه ولكن كبير العقل يأسف لما يلحق البشر من الاذى وان كانوا يستحقونه فانما استحقوه لضعف في فطرتهم هم غير مخيرين فيه

الفصل السادس والستون

محاكمة سامان

أما سامان فقد تركناه في السجن لا يكترث به احد الا وردان كان يتردد عليه من حين الى آخر و يسأله عن حاله على سبيل التهكم والتشفي . وكان ضرغام في شاغل عنه حتى اذا فرغوا من امر الافشين احب ان يطلق سراح سامان كرماً وفضلاً فقال وردان « اذا

(١) ابن الاثير ٢٢١ ج ٦ (٢) المسعودي ٢٦١ ج ١

اطلقتهُ فمكانك سجنتني مكانه ويهمني في الدرجة الاولى ان اسأله بعض الاسئلة واسمع جوابهُ عليها لاني رأيت منه امورًا لا تصدر عن البشر »

فقال « نسأل جهان عن رأيها في ذلك » قال « افعل »

فلاقى جهان وسألها عن اخيها فقالت « لا ادري ... ولينك لم تسألني عنهُ لاني احب ان انساه » قال « هو في السجن الآن فما الذي تريدين ان تفعل به »

فاطرقت حينًا ثم قالت « احب ان ان تطلقه ولكنني في شوق الى سرّ لا يزال مكتومًا عني — اريد ان اطلع على سبب غضب والدي عليه ثم نرى ما يكون »

فتذكر سرًّا آخر قد طال اشتياقه الى معرفته وهو حقيقة نسبه فعزم ان يستطلع والدته عنه بعد الفراغ من سر سامان

وأمر باستقدام سامان من السجن الى منزله في جلسة حضرها ضرغام ووالدته وجهان وياقوتة وحماد ووردان وهيلانة وجعلوا محاكمتهُ بيتية

دخل سامان دخول غريب تنبحه الكلاب ووقف وقوف مجرم يخاف العقاب وقد شوهت خلقته كانما طبعت على صحيفتها دناياه ونقائصه . وكان رث السربال زاده الهزال ذلاً حتى اذا توسط الدار وقف تحني العنق يجول ببصره في الجالسين . فلما رأى ياقوتة ظهرت عليه البغتة فالتفت الى جهان واجهش فسبقته الى البكاء وقد عزَّ عليها ان تراه واقفًا هذا الموقف رغم ما ارتكبهُ في حقها من السيئات . ولم يبقَ احد من الحاضرين الا رق لذلك المنظر الا وردان فانهُ لم تأخذه عليهِ شفقة وكان هو اول المتكلمين فقال « لا تخف ياسامان لم ندعك لمحاكمة على جريمة من جرائمك فانها لا تفتقر الى محاكمة ولا نعرف عقابًا يفي بها ولكنني رأيت في سيرتك ما ادهشني من تقلبك في الايذاء فبين انت ناقم على الافشين لانهُ حرمك من الميراث تستعين عليه بالصاحب فاذا انت تستعين على هذا بذاك ثم بذاك على هذا واغرب من ذلك انك غدرت بأختك هذه وهي كالملائكة خلقًا وخلقة وواطأت عليها افسق اهل الارض وهي مخطوبة وقد وثقت بك وعوّلت عليك في الفرار الى خطيبها . فرضيت ان تؤخذ غدرًا وتحمل قسرًا الى ذاك اللعين زعيم اهل الفحشاء . ولم تكن لتنال على عملك جزاء افضل مما قد تناله لو جئت بها الى سامرًا . ومع ذلك لم تنل من بابك غير الخزي . وبعد ان كنت نصيره خنته وبحت باسرار حصونه الى عدوّه وواطأت الافشين على اختك وعلى خطيبها . عرفتُ في الناس اشرارًا يرتكبون افظع مما ارتكبتهُ في سبيل غرض يعرفونهُ ويعرفه الناس واما انت فما عرفنا لك غرضًا .. »

وكان سامان يسمع قول وردان وهو يتظاهر بالاطراق وعيناه لم تنتقلا عن ياقوتة وان لم يظهر ذلك للحاضرين لشدة الحول . فلما فرغ وردان من كلامه ظهر الجد في وجه سامان وقال « تسألني عن اسباب لستُ اعلم بها منك . ارتكبت فظائع لم يعرف الناس الا طرفاً منها ولو سئلت عن اسبابها لم استطع جواباً . وانما اعرف اني كنت ارتكب الخطأ ثم ابادر الى اصلاحه بخطأ افظع منه كأن اعمالي سلسلة غلطات والعمدة على الغلطة الاولى » قال ذلك وتغير وجهه وغصَّ بريقه وتململ فابتدره وردان قائلاً « ماهي تلك الغلطة »

قال « هي الغلطة التي اغضبت والدي وجرَّت عليَّ هذه المصائب »

فقالت جهان « قل يا سامان اني اكثر الحاضرين شوقاً لمعرفة تلك الغلطة »

فحوَّل بصره الى ياقوتة واطال النظر اليها وعيناه ترتعشان ثم انتقلت الرعشة الى اطرافه حتى اصطكت ركبتاه وكاد يسقط فلحظ ضرغام ذلك منه فقال لهُ « اجلس يا سامان وتكلم » وقد استغربوا تغيره وطول نظره الى ياقوتة حتى تولاها الخجل وحولت بصرها عنه . فجلس سامان جاثياً وجعل رأسه بين كفيه واخذ في البكاء بصوت عالٍ يتخلله شهيق كثير حتى كاد يختنق فانكر القوم بكاءه لاول وهلة وحملوه على الحيلة ثم ما لبثوا ان تحققوا صدقه فصبروا عليه حتى فرغ من بكائه وهم ينظرون بعضهم الى بعض . واذا بسامان نهض بغتة وترامى عند قدمي ياقوتة واوغل في البكاء فدهش القوم ولاسيما حماد ووثب اليه ليرجعه عن امرأته فلم يطعهُ فقال له « ماشأنك ياسامان هم يسألونك عن غلطتك الاولى فاجب عليها »

فصرخ قائلاً وهو يشير الى ياقوتة « هنا غلطتي الاولى ... هذه هي » وعاد الى البكاء . فازداد الحاضرون دهشة وظنوه جن ولاسيما جهان فقالت « قل ياسامان . صرح فقد حيرتنا .. ما هي غلطتك ياقوتة »

قال « بل هي غلطتي نفسها ... وما هي ياقوتة وانما هي شهر زاد »

فلما قال ذلك صاحت آفتاب ام ضرغام « شهر زاد ! . شهر زاد هي شهر زاد !.؟ » وكانت جالسة بالقرب منها فضمتها الى صدرها وقالت « قد تنسمتُ ريحك منذ لمستك للمرة الاولى ثم صاحت « جهان حبيبتي الا تعرفين شهر زاد ؟ »

فبغتت جهان واعملت فكرتها وقالت « لا اعرف واحدة بهذا الاسم الا اختاً لي ماتت طفلة قبل أن اولد »

فقالت آفتاب هي هي اختك لم تكن ماتت بل ضاعت .. وانما قالوا ذلك تلطفاً وستراً ولم يكن يعرف هذا السر الاَّ انا ووالداك وسامان هذا وكان ضياعها على يده ولم يحضره

سواه وكان قد خرج بشهرزاد الى البساتين وهي طفلة تكاد لا تستطيع المشي . فلما عاد سأله ابواكِ عن اخته فبكا وزعم ان فرساً من افراس النخاسين اختطفها منه — لان في تركستان جماعة يربون الخيل على النخاسة ويعوّدونها اختطاف الاطفال باسنانها فيلتقط الفرس الطفل باسنانه ويطير بهِ الى منزل صاحبه — ولم يصدق والدكِ ما قاله سامان وغضب عليه من ذلك الحين واشاعوا انها ماتت »

وكانت افتاب تتكلم والجميع سكوت كأن على رؤوسهم الطير . فلما فرغت اكبت جهان على ياقوتة وضمتها وطفقت تقبلها وياقوتة اشد فرحاً من الجميع لانها كانت تحسب نفسها جارية فاذا هي بنت المرزبان . فقبلت اختها والدهشة لا تزال سائدة والكل يقولون « لم تكن هذه المشابهة بين الاختين عن عبث واخذوا يتساءلون وهم يحسبون انفسهم في حلم فقالت جهان « افصح ياسامان .. قل كيف أخذت شهرزاد منك »

فاجابها وهو يمسح دموعه « انتبهت لوجودي وانا في نحو العاشرة من العمر واختكِ هذه في نحو الرابعة ورأيت ابوينا يحبانها كثيراً ويدللانها ويهملانني فدبّ الحسد في قلبي فصرت اظهر الكره لاختي وهما يزيدانني حسداً بتمييزها عني بالهدايا والنقود . وكنت اذا طلبت نقوداً من ابي لم يعطني وأنا ارى النقود مع اختي او حاضنتها . وسمعت ذات يوم ان اناساً يطوفون البلاد يشترون الاطفال بالدنانير فغافلت الحاضنة واخذت شهرزاد الى البساتين فرأيتهم مارين فبعتها لهم بدينارين وعدت وساروا هم في طريقهم . ولما سئلت عنها قلت انها خطفت مني فلم يصدق والدي . وانتبه بعد ذلك اني بعتها وبعث من يفتش ويبحث بلا فائدة . فكرهني من ذلك الحين وهددني بالحرمان من ماله فصرت أرى كل الناس اعدائي وتوهمت ان كل حركة يأتونها انما يريدون بها نكايتي أو اذيتي فاصبحت ولاهمّ لي الا كسب المال لاستعين به عليهم . واول سعي بذلته في هذا السبيل اني حاولت منع والدي من كتابة الوصية ففشلت فاردت اصلاح هذا الفشل فوقعت في فشل آخر وهكذا كما تعلمون . ولم ادرك هذه الحقيقة الا وانا في السجن منذ يومين » قال ذلك وتنفس الصعداء ثم عاد الى اتمام الحديث وقد زاد وجهه امتقاعاً وبدت الرعدة في اطرافه والاضطراب في عينيه وقال « وقد تأخذكم الشفقة عليّ بعد ما بسطته لكم فاعلموا اني لا التمس عفوكم لان من كانت حياته سلسلة فظائع لا يجوز ان تنتهي بغير القتل » قال ذلك واستل من جيبهِ خنجراً طعن بهِ صدره وسقط يتخبط بدمه

فضج الحضور وابتعدت النساء عن هذا المنظر وقد اسفوا على موت سامان بعد ان ايقنوا بتوبته فترحموا عليه وامروا بدفنه . وكانت جهان اكثرهم حزناً عليه

الفصل السابع والستون

نسب ضرغام

وكان الجمع في اثناء ذلك يتحدثون بما علموه من القرابات الجديدة اذ تبين لهم ان ياقوتة اخت جهان وقد اقتسمتا الميراث. واصبح حماد وضرغام نسيبين وقد نالوا حظوة في عيني المعتصم وتمّ لهم كل ما يبغونه الا ضرغاماً بقي في خاطره شيء يجب الاطلاع عليه فاختلى بوالدته يوماً وقال لها « ألم يئن الوقت لكشف حقيقة نسبي؟ ما الذي تنتظرينه بعد الذي رأيتهِ من نعم المولى؟ »

قالت « لا انتظر شيئاً ولكنك مع ذلك لم تنل ما انت اهل له »

فقال « تعنين ان والدي كان اعزّ جاباً وارفع مقاماً مني؟ »

قالت « نعم »

قال « فهو اذن من كبار القواد او الوزراء واذا صح ذلك فلا يعقل ان يكون خبره مكتوماً عن الناس »

قالت « انه فوق ما ذكرت »

فبهت ثم قال « لم يبق الا ان يكون من اشراف قريش او بني هاشم او بني ابي طالب »

قالت « انه اشرف من ذلك كثيراً »

فاطرق واعمل فكرته في ما تعنيه امه فلم يبق الا ان يكون ابوه الخليفة وهمّ ان يسألها عن ذلك فخجل وامسك نفسه وظلّ ساكتاً وهي تنتظر سؤاله فلما استبطأته قالت « لِمَ لا تتم اسئلتك ياضرغام »

قال « يخجلني ان اقول ما في خاطري »

قالت « لا تخجل ان تسأل اذا كان ابوك خليفة فانه كذلك »

فاجفل وقال « ابي خليفة؟. كيف يمكن ذلك.. ان المعتصم يضارعني سنّاً فلا يمكن ان يكون هو المراد ولا المأمون ولا الأمين »

قالت « ان هؤلاء اخوتك »

فقال وقد اخذته الدهشة « فانا اذاً ابن الرشيد! »

قالت « نعم ياولداه وهذه اول مرة نطقت بهذه الحقيقة بعد مرور الاعوام الطوال »

قال « أليس في الدنيا احد سواك يعرفها »

قالت « كلاّ »

قال «وما معنى كتمانها كل هذا الزمن الطويل والناس يفاخرون بالانتماء الى اتباع الخلفاء فكيف الى الخلفاء انفسهم »

قالت « لذلك سبب معقول وهو اني كنت من جملة جواري الرشيد في قصره ببغداد وكان يستلطفني ويحبني حتى كانت الليلة التي فتك فيها باخته العباسة وبجعفر البرمكي وابنيهما الحسن والحسين [1] وقد بالغ في التكتم حتى قتل كل من استخدمه في ذلك الفتك . فلم يكن أحد من اهل القصر يجسر على الخروج من حجرته مع انهم مطلعون على كل شيء وهم بعيدون . الا انا فقد حدثني طيشي لصغر سني يومئذ ان اخرج لارى واسمع فوقفت موقفاً ظننت نفسي مختبئة فيه لا يراني احد فسمعت حديث الرشيد رحمه الله مع زوجته زبيده بشأن اخته واشياء اخرى . وانا في ذلك رأيت زبيدة نفسها مقبلة نحوي وهي تقول « يا هرون ان جواريك يسمعن حديثنا » فوقع الرعب في قلبي وايقنت اني مقتولة لا محالة فلم تعد ركبتاي تحملانني من الرعشة . ثم سمعت الرشيد يرعد بصوته من الغضب ويقول « من هذا ؟» وامر مسروراً فحملني اليه فلما رآني اظهر الاسف عليّ لان قتلي لا مناص منه . فلما رأى دموعي رفق بي ولكنه كان شديداً في غرضه فاطرق لحظة ثم قال « يا حبيبة (وهذا كان اسمي عنده) قد سعيت الى حتفك بظلفك ويسوءني ان تقتلي ولكن لا بد من قتلك »

فترامیت عند قدميه وبكيت وغسلت رجليه بدموعي وكنت يومئذ حاملاً بك فقلت « اشفق على صباي بل اشفق على هذا الجنين »

فوجم وتراجع ثم قال « اعفو عن حياتك ولكنني لا اقدر ان اراك ولا اسمع اسمك » ونادى مسروراً فاتى فامره ان يجهزني بالمال ويدبر نقلي الى البلد الذي اختاره فاخترت فرغانة لاني اعرفها من قبل ثم قال لي « احذري ان تفوهي بكلمة او تذكري سابق عهدك في هذا القصر او انك تنتمين اليّ واذا وضعت غلاماً فاكتمي نسبه عنه واذا خالفت ما اقول عاد ذلك بالوبال عليك وعليه .. ولو علمت زبيدة باني ابقيت عليك لاحت عليّ بقتلك » وصرفني فخرجت مع مسرور في الليل الدامس الى خارج بغداد وقد

(١) اقرأ رواية العباسة اخت الرشيد

اعدّ لي الاحمال واوصى المكاري بي ودفع اليّ مالاً وجواهر تكفيني اعواماً وودعني . فقضيت في الطريق مدة طويلة ولدتك في اثنائها . واخيراً وصلت الى فرغانة فاقمت فيها وعرفت المرزبان وعائلته وطلبني الناس للزواج فابيت وانقطعت لتربيتك وانا كاتمة سرك وانت تطلب المجيء الى العراق وانا اخالفك . ولما مات الرشيد مازلت خائفة من زبيدة حتى اذا ماتت هان عليّ المجيء ورضيت بسفرك الى العراق كما علمت »

وكانت آفتاب تتكلم وضرغام يتطاول بعنقه للسماع وقد اخذته الدهشة . فلما فرغت قال لها « فانا اذاً اخو المعتصم »

قالت « نعم انك اخوه فاذا علم هو بذلك زادك تقريباً »

فهزّ رأسه هزّ الانكار وقال « كلا .. ان هذا السر يجب ان يبقى مكتوماً بيننا لئلاً يطلع عليه المعتصم فتتحول محبته الى حذر وكيد . ويكفيني اني عرفت حقيقة نسبي ولا ارى فائدة من كشفه لان الناس لا يصدقوننا . ونحمد الله اننا نالنا من النعم والرتب فوق ما كنا نتمناه . وان وجود جهان في منزلي نعمة كافية احمد الله عليها وارجو ان يطول بقاؤك »

فوافقته والدته على الكتمان وعاشوا بعد ذلك برغدٍ وهناء حتى نشئت شملهم وبقي السر مكتوماً الى الأبد

﴿ تمت الرواية ﴾

زيدان، جرجي
عروس فرغانة...
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037270

892.78
Z39arA
c.1